

ابن المعتمر العباسي

تأليف

الدكتور أحمد كمال زكي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

مقدمة

(١)

هذه سيرة أبى العباس عبد الله بن المعتز سليل جماعة من كبار الخلفاء العباسيين ، ولد عام ٢٤٧ / ٨٦١ وقتل عام ٢٩٦ / ٩٠٩ بعد ثورة لم تستمر أكثر من يوم واحد ببيع له فيه بالخلافة ، ثم انقض أنصاره من حوله .

ولقد كانت تلك الحادثة من المواقف المثيرة التى لفتت أنظار القدماء ، فبسطوها فى كتبهم ، وأشاروا إليها فى مجالسهم . غير أنهم لم يعنوا بما وراءها من مقدمات توغل فى العصر بقدر ما توغل فى نفسه هو ، بل اكتفوا بتصوير سطحى يبرز ابن المعتز فيه خارجا على الدولة معتديا على القانون .

وفى العصر الحديث تقدم إليها كثيرون فلم يكن عملهم يفضل كثيرا عمل أسلافهم ، وإن يكن خالطه لون من التفسير فى حدود الأحداث التى يلعب فيها القصر دوره الأول . وعلى سبيل الاستشهاد أذكر الدكتور عبد العزيز الدورى فى كتابه « دراسات فى العصور العباسية المتأخرة » خلال حديثه عن المقتدر بالله .

وأما الذين عنوا به من حيث انه شاعر وكاتب ، فقد حددت طبيعة بحثهم المحيط الذى ينبغى أن يطرقوه ، ومن ثم ضاع

ابن المعتز بين شروحهم لأشعاره وتقييمهم لآرائه وتقديهم لكتبه .
بل بدا لبعضهم أنه يحتذى أبا بكر محمد بن يحيى الصولى
عندما ساق شتيئا من الأخبار عنه مشفوعا بنصوص له ، بعضها
نثرى وبعضها شعرى مبوب على نوع الغرض من مدح وعتاب
وغزل وحكمة الخ ..

باحث واحد اختلف عنهم — وهو الأستاذ عبد العزيز
سيد الأهل — فاستوحى من حياة الرجل قصة ممتعة نشرها
سنة ١٩٤٩ باسم «يوم وليلة» صادرا عن خيال شاء أن يطلق جماحه
لينيض على القصة روحا جديدة كما يقول هو فى مقدمة القصة . ولقد
حاول أن لا يحدث عن شئ الا وهو من صميم «الفتنة» كما حاول
أن يربط بين المواقف التى تحكى ما ضاع من سيرة ابن المعتز ، ولكنه
لم يخرج عن الدائرة التى رسمها فى قصصه التاريخى جرجى زيدان
— مع غلبة عنصر التاريخ عنده — ولم يعن قط بأن يحقق مفهوم
السيرة الأدبية على النحو الذى اصطلح عليه المحدثون .

وفى كتابه الثانى « عبد الله بن المعتز أدبه وعلمه » خضع تماما
لأسلوب الأكاديميين فتحدث عن البيئة العامة للأمير الفنان ثم عن
بيئته الخاصة — خطفا — ليأخذ فى شرح مذهبه الشعرى وفنونه
والنقد والبلاغة عنده وأنواع نثره ، وعاد فى ذيل الكتاب فبسط
شيئا عن صفاته وشيئا آخر عن أخلاقه .

ويذكرنى ذلك الكتاب بالبحث العلمى الذى قدمه الأستاذ
محمد عبد المنعم خفاجى بعنوان « ابن المعتز فى الأدب والنقد
والبيان » وطبعه سنة ١٩٤٩ قبل كتاب الأهل الثانى بعامين على

وجه التدقيق ، وفيه عنى أيضا بآثار الرجل مع مناقشة موضوعية لأدبه وبسط لآراء علماء الأدب فيه وشرح لأسلوبه ليحدد في آخر الأمر طبيعة فنه .

وفي رأيي أن الكتاين — كتاب الأهل وخفاجى — لم يخرجنا قط عن الفلك الذى قطعه الدكتور طه حسين يوم ألقى محاضراته الجليلة « ابن المعتز وشعره » فى قاعة الجمعية الجغرافية ، وقد نشرت عام ١٩٣٦ فى كتابه « من حديث الشعر والنثر » .

بل لم يخرج عن هذا الفلك الآسر أغلب الأكاديميين الذين تعرضوا له بعد عام ١٩٣٦ كالدكتور محمد نجيب البهيتى والدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى . الأول فى الفصل الذى عقده عن فن الشاعر فى كتابه « تاريخ الشعر العربى » والثانى فى كتابه المسمى « عبد الله بن المعتز العباسى » . بل لقد انتفع الدكتور الكفراوى بكثير مما وصل اليه الأستاذ الأهل والأستاذ خفاجى ، فخطا من بعدهما خطوة مسددة .

ومع كل ذلك فقد بقيت سيرة ابن المعتز ناقصة ، بل بقيت فيما سجل الأولون — وهى متناثرة فى كتب عدة — أكثر حياة وأعظم خصبا ، فبدا لى أن أعود إليها بالمنهج الذى اصطنعتة فى كتابى عن « الأصمعى » وقد صدر فى هذه السلسلة منذ عام أو يزيد وفاز بجائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٤ ، لتكون نتيجة أخرى للمحاولات التى تبذل فى تسييق تراثنا ونشره وتقديمه فى الصورة اللائقة .

ابن المعتز هنا وآراؤه ومؤلفاته وعصره ، وحدة متماسكة تتحرك في اطار التاريخ المحقق ، هو كالأصمعي يوم تعرضت له ، يخضع لمنطق السيرة الفنية كما يحدده المتخصصون من أمثال أندريه موروا وليتون ستراتشي وستيفان زيفايچ .

هو هنا ليس كابن المعتز على ما صورته قصة « يوم وليلة » وليس على النحو الذى قدمه الدكتور طه حسين ، وانما جاء تاريخا فنيا لم يقتحمه قط خيال ولم يذكر فيه اسم مخترع . ان قصة « يوم وليلة » تذكرنى برواية « طريق البشر » التى كتبها صمويل بتلر سنة ١٨٧٣ مستوحيا حياته . حقا حرص بتلر على ألا يذكر الأسماء الحقيقية للأبطاله ، ولكنه أقحم الخيال على ما شاء أن يذكر من تفصيلات واقعية ، فجاء كتابه على هذا رواية أكثر مما هى سيرة ذاتية .

أنا أعلم أن الأستاذ الأهل يترجم لغيره وصمويل بتلر يترجم لنفسه ، ومع ذلك فهما يتفقان فى المنهج على الرغم من أنهما لم يلتقيا قط ولم يقرأ أحدهما للآخر !

فاذا كان ثمة من يرى أتنى لم أخرج فى هذا الكتاب بالقياس الى صنيعى فى « الأصمعي » عن أسلوب الرواد من أمثال جرجى زيدان والجارم وسعيد العريان — والأهل امتداد لهم —

فقد أنكر علىّ عنصر الحقيقة الذى لم أتخل عنه قط . وآية هذا تلك التهميشات الكثيرة التى نراها متناثرة فى الكتاب هنا وهناك ،
والتي سجلت فيها المصدر حتى يكون التاريخ الحقيقى هو
الفصل .

ذلكم هو المنهج المناسب لكتابة التاريخ الفنى ، أعنى لكتابة
السيرة الأدبية بخاصة . وقد أضطر أحيانا الى فت الموقف فى
حوار ، وفى هذه الحالة أحرص على شيئين : الأول رصد أبعاد
الموقف رسدا أميناً مع اصطناع دقيق لألفاظه وصوره ، والثانى
الارتفاع الى مستوى الحوار الحقيقى الذى يسجله التاريخ
كاملاً على ما جاء هنا فى الفصل الأول من الباب الثانى .

كذلك قد أضطر الى ما يضطر اليه الاكليكتيون فأختار
مستصفا ما فى تاريخ الرجل من أحداث مروية ، بعضها يرفض
ما كان ينفيه منطق الزمن قبل أن أتفيه أنا ، وبعضها يمكن تنسيقه
بمنطق الفن حتى اذا لم يكن مستندا الى نص مذكور .

ولكنى مع هذا لم أجنب الحق ، ولم أوغل فى الخيال لأسلك
مع الروائيين والقصاص !

ان السيرة الفنية عمل دقيق ، وهى قد تطورت هذه الأيام
تطوراً يؤذن بخروجها عن قصد الحقيقة التاريخية ، الا أننى
آثرت أن أقف عند المرحلة التى قطعها موروا عندما كتب شيلي
وعندما كتب ديكنز ، فهى فى رأى أصلح أو أنسب لما يقدم
لقراء هذه السلسلة الرفيعة ، سلسلة أعلام العرب .

وبعد ..

فالسيرة في ثلاثة أبواب وفصول تفتتح عليها ، وكل باب يرصد لفترة من فترات التاريخ يمكن أن تكون محاولة جادة لدراسة مجتمع العصر من مختلف نواحيه وفي شتى تركيباته الاثنولوجية والأثروبولوجية والميثولوجية والطبوغرافية وغيرها. الباب الأول يستغرق حياة ابن المعتز اللاهية الى أن اكتمل شبابه ، والباب الثاني يتعرض لحياته وهو رجل يشتغل بالعلم والسياسة ويفكر في عرش أبيه الذي انتزع منه ذات ليلة مشئومة من ليالى المغامرات ، والباب الثالث يقف عند مؤامراته على المقتدر — وكان في الثالثة عشرة من عمره — بعد أن أقنع بأن الخلافة لا يمكن أن تكون لصبي لا يعرف كيف يقابل تصادم القوى .

والقسمة هنا قد تبدو اقتسارية أمام بعضنا ، لا سيما أنه لم يكن ثمة فاصل تاريخي عام بين الباب الأول والباب الثاني ، إذ كان الخليفة هو المعتضد والمجتمع نفسه يسير في اتجاه واحد منفصلا بالوقائع الحربية انفعاله بمغامرات الشطار والمغامرين والعيارين والخلاء المجان . ولكن هذا يصح لو أننا كنا نعنى بالتاريخ العام فقط ، أما وأتينا نمزج بينه وبين الحادثة والشخصية والنظر الداخلى فمن الضروري أن نلاحظ الخطوط الكبرى في حياة الشخص الذى تترجم له .

ورسمت هذه الخطوط عند ابن المعتز ، بالصورة التي نجمت عنها قسمتنا تلك .. شباب لاه ثم رجولة لها طابعها الذي فرضته ظروفه الصحية والفكرية وقواه البدنية ، وأخيرا شيخوخة مبكرة لم تحسن التدبير ولا التقدير فكان عليها أن تبيد .

وعلى الرغم من ازدهار الدولة أيام المعتضد فقد تم رسمها في الحيز الذي شغل ضعف الخلفاء السياسى ، ومعنى ذلك أن حياة ابن المعتز تأثرت بهذا الضعف ، بل بسببه عاش تلك العيشة المنكودة . حيث قتل أبوه الخليفة المعتز بتدبير من أتراك القصر وخصيانه ، ونفى الى مكة صغيرا ليعيش في كنف جدته التي صودرت أموالها ، ثم عاد مخوفا منه ليدفع الى حياة أقل ما يمكن أن توصف به أن يقال انها حياة القلق المؤسس .

وفي سنة ٢٩٦ للهجرة يبلغ العتب مبلغه حين يتفق الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن مع فريق من الترك على الاطاحة بالمقتدر ، ويكون كل ما عاناه ابن المعتز طوال نصف قرن تقريبا بمثابة تبرير لقبوله أن يكون أداة في هذه المؤامرة الفاشلة ، أو أن يخوض عمليا في النزاع الذى نشب بين الخلفاء والترك فى السر والعلن .

وكانت فترة السنوات التسع (٢٤٧ — ٢٥٦) وهى التى شهدت مولد الشاعر واستوفت صباه وابتليت خلالها الدولة ابتلاء عنيفا ، من أهم ما أثر فى نفسية ابن المعتز وشكل شخصيته على النحو المتردد المتحرر الذى يرضى اذا خرج — كما خرجت الدولة

فى تلك الفترة — بنصر مؤقت صغير على رغم ما يصاب به من
أجراح وتقطيع أوصال .

وأثمرت الفوضى ثمرها المر ؛ فحرم البلاط — وقد كان من
الترك غالبا — يشترك مع الخصيان فى الاثراء غير المشروع وفى
الاستبداد بأمور الحكم ، ويرفض ابن المعتز أن يتعاون معه مع
أنه اكتوى بناره . ألم يقتل أباه أمه قبيحة لأنها رفضت أن تملأه
بالمال ؟ ثم ألم يقتله هو شغب أم المقتدر بما جمعت من مال
أعذفته على غلمان القصر ثمنا لتحديثهم قوى الفتنة الطارئة ؟

ومن ناحية أخرى كانت الطالبية تسعى سعيها لتمكين
سلطانها ، فدفع ابن المعتز — كعباسى متحمس — الى الدعوة
ضدها . بل اشتبك معها اشتباكا أفقده عطف الكثيرين ، وانتهر
القرامطة — وهم علوية — هذه الفرصة فشنعوا عليه وكادوا
له حتى شككوا فى موقفه العقيدى وطعنوه فى دينه مع أنه كان
سنيا حنبليا .

فاذا أضفنا الى ذلك قوة طبقة الكتاب وتوزع دواوين
الدولة بينهم أو بين آل الفرات وآل الجراح — على وجه
التحديد — ثم انضمام ابن المعتز للجراحين ، تكتمل الصورة
بكل تمزقاتها وبراكينها وتياراتها ، وتضطرب حياة ذلك الأمير
الفنان داخل تلك الصورة .

كل أولئك نراه في هذه السيرة الأدبية ممتزجا بذات الرجل
امتزاج كل في كل ، فاذا حققت ما هيئت له فيها ، والا فلكل
مجتهد نصيب ، راجيا في كل الأحوال أن يبعث ابن المعتز غيرى
على نحو يقترب من الكمال المنشود .

مصر الجديدة في سبتمبر سنة ١٩٦٤

أحمد كمال زكى

الباب الأول
الأمير الرحيم

الفصل الأول

المخطوط الأول

لما قتل عبد الله بن المعتز في أول أيام ربيع الثاني من عام ٢٩٦ هجرية وألقيت جثته في بستان داره بالصرافة ، قال جاره ابن البصري أبو الحسين محمد بن الحسن العلوي :

— من لى بمن يندبه من نساء هذه الأمة !

وكانت المرأة الوحيدة التى سعت وراءه فى محنته قد قضى عليها ، وتلكأ أخوه اسماعيل بن المعتز فى الوصول من سامرا حتى غسل وصلى عليه خلق من جيرانه وأودعوه حفرة قصىة فى البستان الذى طالما شهد صبواته .

وهكذا خرج ابن المعتز من الدنيا غريبا كما دخلها غريبا ، غير أنه لم يكن هكذا طوال نصف الدهر الذى عاشه . وحسبه أنه أشعل نار ثورة سياسية كادت تنجح لتجعل منه خليفة المسلمين لولا سوء طالعه ، فلم يتمكن من الأمر سوى يوم وليلة وانتهى نهاية لم تقنع أحدا من المؤرخين بجعله واحدا من الخلفاء .

ان هذا العرض الخاطف يعطينا صورة عامة عن حقيقة هذه الشخصية التى لم يعرفها عصرها كل المعرفة ، وهى لا تبرح

بالنسبة لنا أسطورة طريفة .. غريبة .. مثيرة ! ولكنها لا تجحد نفسا فنانة استطاعت أن تفرض نفسها في دنيا الشعر والكتابة على حد سواء . ومثلما كانت الحياة التي اضطرب فيها ابن المعتز محل تساؤل واعجاب وافقتان ، فالآثار التي خلفها لنا — والتي كتبها بسرعة فيما بين ساعات الفراش والشراب أحيانا وبيطء كلما غالبته روح العالم المدقق أحيانا أخرى — تنضح بالموهبة التي تثير وتعجب حتى لتطمس عنده آثار الصفة والتكلف .

والحق الذي لا يمكن أن تنكره أن عبد الله بن المعتز لم يكن قط نباتا طفيليا في أرض الفكر ، وإن كان كذلك في دنيا القصور . ولكن في وسعنا أن نقبله على أساس أن الظروف التي أوجدته كانت تشكله ذلك التشكيل الفذ ، ونظن أن أى دارس لحياته ولانتاجه جميعا لابد منته الى الاعجاب به برغم نقائصه ، وهو يقرأ شعره بشيء كثير من المودة والتألف .

ونحن من هنا يمكن أن نقول ان لابن المعتز منزلته الخاصة في القضايا الانسانية التي توضع معلما من معالم الطريق ، فاذا ساد الفكر العربى لون من التسامح ، واذا زالت من الحياة بعض جوانبها الموحشة لتبقى الجوانب الأخرى المشرقة ، واذا عومل أولاد الملوك بشيء من التقدير .. فان جزءا من هذا يعود فضله الى هذا الأمير العالم الفنان ، وإن قليلا من رجالات عصره من استطاع أن يزحمه على رغم ميته الشنيعة وقصر عمره .

وأظهر من ذلك كله أن ذلك التأثير المعتدى على حرمان الخلافة — كما قيل في عصره على لسان شائثيه — ما كان يستحق

مصيـرا أقل مما قدر له ، فان الشهرة التى ظفر بها بعد النبذ
والارادة على النسيان لتفوق كل شهرة ظفر بها خصمه الأول سواء
أكان هذا الخصم المقتدر بالله أم وزيره ابن الفرات . وقد
استطاع خياله الغريب أن يحتل مكانا بين الخالدين لا يبرحه ،
ويغضى على كل شروره وآفاته يوم كان يخدع النساء
— أو يجعلنه يخدعن — ويعكف على زقاق الخمر طول يومه
وليله ، ويطرق مراتع اللهو والأديرة .

وهنا نرى الحظ يلعب دوره الأول فى توجيه مصير هذا
الانسان الذى أسلم قياده للشهوة دون أن يخطئ الهدف ، وكان
بذلك مثلا نادرا للانسان الذى تمتزج فيه السعادة والشقاء بحياة
كان كل شىء فيها يغرى بالاضطراب ويدفع الى الحيرة والقلق .
ولقد كان له من بيئته الخاصة ما يعصمه من كل المصاعب المادية ،
الا أن وضعه كمطالب بعرش — باعتبار أن أباه كان خليفة — كان
يفرض على سلوكه التعقد حتى انه ليصبح فى يوم من الأيام أشبه
بنديم من الندمان ، وقد يمدح وزيرا دونه أو أميرا مثله ليجد
عنده بعض الغناء .

فلا عجب بعد هذا أن تتصوره مغامرا عابثا ، وينال بما خلفه
حظوة لدى الخلف يتخطى بها عندهم حدود المؤلف ، بل كذلك
بيوم مولده وكانت أمه قد وضعت قبل أن يقضى على جده المتوكل
بأربعين يوما . ولقد كانت نهاية هذا الخليفة العظيم مطالع فترة
السنوات التسع التى تبدأ بعام ٢٤٧ وتهىء مجالات فوضى قعد
الأتراك على أطلائها وأيديهم تقطر بالدماء .

ان ابن المعتز لم يكن يدرى ذلك ، ولكنه كان يستقبل سنواته الأولى بشر عظيم ، حقا هو لم يعرف شيئا عن الليالي المخيفة المؤرقة التى عاشها والداه ، حتى اذا طلع النهار واجها تدير المنتصر أو المستعين أو بغا الكبير وأوتامش ووصيف أو غيرهم من الترك ، الا أنه عرف معنى النفى والتشريد وذلك عندما قتل أبوه سنة ٢٥٥ بعد أربعة أعوام من تنصيبه خليفة على المسلمين ونفى مع أمه وجدته الى مكة المكرمة .

ولكن عندما حان الوقت الذى أعيد فيه صيبا الى شر من رأى اطلع على الحياة الشائنة التى عصفت بأبيه أو كانت سببا فى العصف به ، ولكنه لم يجد بأسا من أن يربط بها حياته وقد كانت طبيعته وخلقته ومشاعره تدفعه الى ذلك دفعا . ومن ناحية أخرى راحت جدته « قبيحة » بما ملكت من أموال وبما كانت أمه تأخذ من المعتمد الذى أصدر أمره بالعفو عنها أن تؤدبه فينتقل خائضا محيطه الواسع من شاطئ الى شاطئ مقتاتا بما يلقيه فى سفينه واحد كأحمد بن سعيد الدمشقى أو آخر كالمبرد أو ثعلب أو البلاذرى ، وهؤلاء تولوه بالتأديب بعد أبى جعفر محمد ابن عمران بن زياد الضبى الذى رعاه بالتعليم فى حياة أبيه (١) . وقد كان ابن المعتز فى ذلك الحين يأكل الفاكهة الفاخرة بمثل

(١) تاريخ بغداد ٣ : ١٣٢ (ط . السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٩) والأوراق ١٠٧ قسم أشعار أولاد الخلفاء (ط . الصاوى سنة ١٩٣٦) ومعجم الأدباء ٧ : ٥٢ (ط . مصر سنة ١٩٠٦) ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ٣٠١ (ط . مصر سنة ١٩٢٤) .

الاستهانة التى يتبلع بها العامة حبات التمر والشعير ، ويفهم من
الدنيا أن لا خير فيها الا بود من يجب . روى أن البلاذرى كان
قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يجلس اليه يؤدبه ، فغضب
الدمشقى واعتزل فى داره ، فكتب اليه الأمير وسنه لا تجاوز
الثالثة عشرة يقول (١) :

أصبحت يابن سعيد حزت مكرمة
عنها يقصر من يخفى وينتعل
سربلتنى حكمة قد هذبت شيمى
وأجبت غرب ذهنى فهو مشتعل
أكون ان شئت قسا فى خطابته
أو حارثا وهو يوم الفخر مرتجل
وان أشأ فكريد فى فرائضه
أو مثل نعمان ما ضاقت بى الحيل
أو الخليل عروضا أخا فطن
أو الكسائى تحويا له علل

ولكن هذا لا يمنع من أن يجب المرء نفسه ، بل لا بأس
إذا أعجب بها وأفاض فى تغنيها . وهو بعد أينما حل لم يكن
بالذى يتخلّى عن غروره ، ولا سيما إذا اعترضته امرأة ، فان

(١) معجم الأدباء ١ : ١٣٣ وهو يعنى يقس قس بن ساعدة
الايادى ، وأما الحارث المذكور فهو الحارث بن حلزة ، ويعنى يزيد
زيد بن ثابت أبرع من تحدث فى الميراث ، وأما نعمان فهو أبو حنيفة
الفقيه المشهور ، والخليل والكسائى معروفان فى العروض والنحو !

شاقه أن يلهو أو يرقص أو يصخب فدونه وذلك كله تلك الخاصة
التي عرفها عنه معاصروه ، بل ربما قدمها اذا امتحنت أمام ولاءه
ووفائه لأساتذته ، والغرور ضرب من التعالي ، والاثنان عنده
منبعهما واحد ويدفعانه الى الاخلاص لنفسه أولا ، حتى انه لينفر
من مصارحة أحد بدخيلته .

الفصل الثانی

الإنسان والفنان

ان كل فنان حقیقی يعيش الجانب الأكبر من حياته منظوياً على نفسه ، وكأنه فى صراع داخلى مع مثله . ولما كانت حياة ابن المعتز متنوعة أشد ما يكون التنوع — وقد كشفت الأبیات السابقة عن توزعها بین شتى معارف — فقد اقتضى ألا يهدأ قط . وكان لا يكاد يفرغ من التجربة المباشرة حتى یلقى بنفسه فى أحضان المخيلة يعيش تجربة أخرى غیر مباشرة فيها كل ما یقصد إليه بلا حواجز ولا حدود .

كان انساناً أمیراً ، وكان شاعراً كاتباً .

الانسان الأمیر یطلب الحس ، وكل ما هو متاع وحرارة ، والشاعر الكاتب یطلب الحق وكل ما هو سحر وجمال .

الانسان الأمیر بالقیاس الى هذا العصر ینشد اللغة وأسرارها والنحو وعلمه ، ویطلب الفقه والتفسیر مع الشراب والقنص ومعاينة النساء ومحاسبة خزان المال . والشاعر الكاتب ینشد الدفء ، والوداد والحق ، والخیر .

الأول فى سبیل عارض زائل ، والثانى من خلف باق خالد !

ولم يضع هو بين الاثنين ، لا ولم يفته الانسان والفتان . حقا
ما جعل الله لامرء من قلبين في جوفه ، غير أنه هو كان على
غير ما فطر عليه كل البشر .

وهكذا نرانا أمام مخلوق آدمى يتأجج صدره بحب اللهو
حتى لا شيء عنده الا اغتنام كل فرصة متاحة لا سيما أن الطبيعة
قد أعدت عليه القوة والجرأة والفحولة والذكاء ، ثم اذا خلص
منه أو تعب أو مل لم يعجز عن أن يضرب في مسارب الفن والفكر .
عجب ولا عجب !

ولكنها النفس الخسبة ، فلا ينبغي أن تتصور على غير جدوى
كيف أمكن له أن يوازن أو يعدل بين الكفتين بحيث لا ترجح
احدهما فيتردى هو الى واحد من الجانبين .

لقد سبق أن قلنا انه نادر المثال !

وأعانه أنه لم يشعر قط أنه مدفوع الى جانب دون جانب ،
فهو قد يكون مغامرا خسيسا الى يوم أو الى ساعة أو الى لحظة
فقط ، ولكنه لا يعدم أن يكون بعد ذلك طيبا رزينا . وهو قد
لا يكون أحيانا الا منقبا عن امرأة حلوة أو عن زق في حانة من
حانات قطربل وطيژناباذ ، ولكنه يكون أحيانا منقبا عن حقيقة
في الدين أو في السياسة أو في الشعر . وفي مختلف الحالات
لا يطلب شهرة لأن حسبه الشهوة ، فهذه عند الانسان وعند
الفتان اذا صدقت أقل في ضوئها كل شعور بالتباهى والاستعلاء .
ان ابن المعتز ابن الحياة المعقدة ، وهو قد يبدو عاريا ولكن
العرى لا يعنى قط الخزى والعار !

وليس عليه بعد وهو فى طريقه الا اقل ما يتطلبه الفن من صاحبه ، أى يجعل حياته سخية العطاء قابلة للتصور . بحيث اذا عن لامرئ أن يسأل أترى كان يجب أن يموت على النحو الذى مات به ؟ وجد من يقول : هاك عريه فالتمس الجواب !

وما بلغ الخامسة عشرة حتى تبين أهله ومؤدبوه ما خلب لبهم تماما . وكان ادمانه على قراءة الكتب والرسائل ومقابلة الأعراب الذين يفدون على سر من رأى وبغداد ، يلفتهم الى مدى ما يتمتع به من جلد على التحصيل .

وعندما بنت جدته بالصراة قصرها الجديد — وقد لا يكون أكثر من بيت كبير لأحد سادات بغداد — حرصت على أن تهيب له فيه مكتبة جمعت كتبها من الوراقين . وكان الغلام يندس فى هذه المكتبة ليلتهم الصفحات التهاما لا يفرق بين هذه التى تقف عند نواذر الأعراب ، أو التى تنطوى على درة من درر الشعر ، أو الثالثة التى تعرض لقصة من ألف ليلة وليلة أو حكاية من كليلة ودمنة أو مثل من الأمثال .

ثم بدا شابا يعرف أين يضع قدمه ، فهو مثلا يكره ابن الرومى لأنه هجا أباه بشعره ، فكان يسبه ويصفه بالشعوبية . بينما يتجه بهواه الى البحرى الذى اعتبر ذات يوم شاعر أبيه الأثير ، وأقام حكمه هذا العاطفى على مبررات فنية كانت تعجب أساتذته . وعندما ماتت جدته وهو فى السابعة عشرة ومن بعدها بأشهر

أمه (١) ورث دار الصراة وما فيها واستقبل المعزين بها فكان يتذكر والده أمامهم ويقول :

لو به أقتل كل قريب وبعيد لم ينم لى ثار
مطلته النصل منى سن لم تطل بى فخطاها قصار
الا أن حزنه وغصته لم يمنعه من تعقب الجوارى ومن أن
يطرق قصر عمه المعتمد بن المتوكل ويرتاد بيوت العلماء ، حتى
ليقول :

شغلى اذا ما كان للناس شغل دفتر فقه أو حديث أو غزل
ويمكن أن نقول انه أصبح فتى العصر بهندامه وفتوته
ووسامته ، وقد أخذ أهل الحذقة من الشبان يقلدونه فى مشيته
وفى شد قامته — وكانت طويلة هرقلية — وفى تصفيف شعره
من تحت المجلسية (٢) ووضع غلالة قصب مبطنة بملحم
خراسانى (٣) على كتفيه العريضين . بل لم يفت أحد الألوان
الداكنة التى تظهر من تحت الغلالة وخيوط الذهب التى تلمع
على أطراف ثوبه وأعلى روائح العطور التى يتضمخ بها . ومن
ناحية أخرى كانت حركاته وهوينحنى فى رشاقة ويده اليسرى التى
توضع على خنجره الذى يتلأل بفصوص كبيرة من الجواهر
وابتسامته العريضة الحلوة ، مثار حديث الناس فى المسجد الجامع
وفى القصور وداخل الخدور .

(١) ماتت قبيحة والأصل فى اسمها صبيحة سنة ٢٦٤ .

(٢) المجلسية : نوع من أغطية الرأس .

(٣) الملحم الخراسانى : لباس مبطن يصنع فى خراسان .

وكأنما هو غير مدرك لذلك كله . فهو يتحرك بلا مبالاة ،
وينظر حوله في فتور ، حتى اذا لفته شيء لمعت عيناه حتى لتصبحا
عينا صقر .

ولم يكن في تكوينه شيء رخو سوى شفتيه . فهما غليظتان
حمران ، اذا أغلقهما دار فمه استدارة طيبة ، ربما كانت
مما يأسر الجوارى اللائى كن يتعقبه وينقلن صورته الى
سيداتهن المحجبات .

انه حتى هذه السن لم يصل بعد الى درجة الاكتمال ، هكذا
يقول بعضهم ، ولكن خاصته — وهم قلة — يؤكدون أن ليله
لا يغفو قط ولا يغفل وان يكن هو يزعم أنه من أجل المكرمات :
وأسهر للمجد والمكرمات

اذا اكتحلت أعين بالكرى

الفصل الثالث

بين أعمامه

ها هو ذا يلمح في قصر عمه جارية ٥ وعلى الفور تبرق عينا
الصقر ويختفى وراء جفونهما ذلك الفتور الناعس . ثم يرفع
يده عن مقبض خنجره ويقبض بيمناه على طرفي غلالته . ويومئ
الى غلام صغير — قد يكون في العاشرة — يحمل المراوح ليسلمها
الى المتنادمين ، فيطرق الصغير .
والجارية من جانبها تشعر بالارتباك فلا تستطيع النطق وقد
أمرت من وراء الستر أن تغنى .

— أطربينا يا بنت الأهوازي .

وغاب صوت الخليفة في وقع أقدام لغللمان يحملون أواني
الشراب ، وهم في أردية ملونة ألوان قوس قزح ٥ وكل واحد في
قبائه (١) أبيض نابض بالحياة والأمل .

وعاد الصوت الرزين ، فأشارت الجارية الى عازفيها فانسابت
الأنغام لتقول في دعة :

(١) القباء : بفتح القاف ثوب يلبس فوق القميص أو القفطان
ويتمنطق عليه ، وكان مفتوحا عند الرقبة فيظهر ما تحته زاهيا
وقيل كان عرض أكمامه ثلاثة أذرع .

بحياتى يا حياتى اشربى الكأس وهاتى
قبل أن يفجعنا الدهر بين وشتات
لا تخونينى اذا مـت وقامت بى نعاتى
انما الوافى بعهدى من وفى بعد مماتى
ومن وراء الستر صدرت أصوات الاستحسان ، ثم تقدم
موسى بن بغا وكان المعتز قد قتل أباه ، وقال :

— أمير المؤمنين طرب ويسأل من صاحب الشعر !
فأومأت الجارية الى حيث يجلس ابن المعتز ، فانحنى باعتداد
وهو يتطلع الى الحضور ويريد أن يقتحم بعينى الصقر ما وراء
الستار ، وهنا ارتفع صوت موسى قائلا :
— انه لولى نعمتكم الأمير عبد الله .

وانبعثت بعد ذلك عبارات المجاملة المعتادة ، ويدعى الأمير
على الفور الى الدخول على عمه . ورويدا رويدا يرتفع صوته
الى أن يصبح مسموعا لدى الجميع . وكأنما درّب نفسه على
مثل هذا الموقف ، فهو ينطق الكلمات نطقا واضحا ويشفع عباراته
دائما بقوله :

— مولاي وعمى أمير المؤمنين حفظه الله .
ويقول له الخليفة :

— أفى هذه السن وتحدث عن البين وفجیعة الدهر يا عبد الله ؟
فيقول :

— لعمري يا أمير المؤمنين ما كنت لأفعل وكل شىء الى زوال
والباع قصير !

ويسأل الخليفة عمه :
— أيعوزك المال يا ابن أخى ؟

فيجيب :

— فهل يسمع منى مولاي وعمى أمير المؤمنين حفظه الله
ما قلت وعابه على بعض من لا أبرئهم من عيب ؟
وعندما يومىء الخليفة برأسه ، ينطلق هو منشدا رافعا صوته
أكثر من ذى قبل . وكأنه يريد أن يجاوز الستر التى تحجبه
عن المتتادمين الى آذانهم ليعجبوا أو ليتساءلوا أو ليشفقوا على
هذا الأمير « الوديع » الذى حرمه الدهر رغد العيش كما يقول :
يا قوم انى مرزاً وكل حرّ مرزاً
خرج كثير ودخل نزر فلم لا أعزى
فالخرج لا يتناهى والدخل لا يتجزأ
وضحك الخليفة شيئاً ، فقطع عليه سبيل انشاده . وهنا أدرك
أن شعره لم ينل من نفس عمه فسكت وقد أطرق ، فقال المعتمد :
— لك هذه الألف يا ابن أخى وعندما تراك فى حاجة الى
أخرى فاقصد الى بابى فوالله ما كان ليتركك أخى تقول
ما أسمعته !

وخرج وهو يدفع بصرة المال الى كفه ، ولكن ما ساءه هو
ألا يجد الجارية وكانت قد انصرفت مع أترابها . فتلاعبت على
شفثيه ابتسامة لا تحمل أى معنى ، فقال له أحد الجالسين وكان
جاره بالصرّة واسمه أبو الحسين العلوى :
— فيم تفكر أيها الأمير ؟

وهز ابن المعتز كتفيه فعاد العلوى يقول :
— أتظن أنك تنالها ؟

قال محاورا :

— من هى ؟

فأجاب العلوى :

— خزامى جارية الضبط المغنى .. لقد سألت الغلام عنها قبل
أن تسأله !
قال :

— وهل طلبت أن يدعوها الى البيت .. ومتى ؟
وانقطع الهمس عندما اقترب أحد أعمام الأمير ، وهو أبو عيسى
ابن المتوكل وكان فى صحبه الموفق عمه الثالث الذى يبدو للجميع
وكأنه المسيطر على المعتمد بحيث لا يصدر الا عن مشورته ، وقال
أبو عيسى :

— أنت تذكر أخوى وتنسانى أيها الأمير العاق .

فقال ابن المعتز وهو يقبل أطراف يمين عمه .

— انى لك والله منذ الساعة ، فليس أحب الى من أن أفرغ
لأهلى ودارى خاوية على عروشها .
فقال الموفق :

— أتصدقنا يا عبد الله ؟

وهم أن يقسم ولكن الموفق أشار بيده وقال لأخيه :

— هاكه قبل أن يقنعنا بما يراه !

وفى اليوم التالى سنراه فى مجلس عمه — وكان مجلس علم

وفن معا — ليفتن روّاده كما فتن روّاد المنادمة في قصر المعتمد .
أجل وسينجح هذا النجاح السريع بفضل ذكائه واحاطته بأسباب
الثقافة التي طبعت عصره بطابعه الفريد . ويحكى ابراهيم بن
خليل الهاشمي أنه كان حاضرا هذا المجلس ، فدخل على بن محمد
ابن أبي الشوارب القاضي وقال لأبي عيسى وابن المعتز ساكت :
— قد احتجت الى معونتك في أمر دفعت اليه لم أستغن فيه
عن تكليفك المعاونة .

قال أبو عيسى :

— وما هو ؟

قال :

— زوجت بنتا من بناتنا رجلا من أهلنا فخرج عن مذهبنا
وأساء عشرة أهله ، وجعل منزل عيسى بن هارون أكثر مظاته
وأوطانه ، ويهددنا ويوعدنا بشره حتى لقد نالنا من عيسى بسط
ليده ولسانه فينا بالقبيح والقول السيئ ، وكثرة معاونته له على
ما يزرى بدينه ونسبه . وقد تواعدنا بأنه يكشف وجهه لنا في
معاونة صهرنا هذا الغاوى علينا ، ولولا نسبه الذي فخره لنا
وعاره علينا لاتصفنا منه بالحق دون التعدي ، الا أنى أستعيذك
منه .

فقال له أبو عيسى :

— أنا أوجه اليه بعد انصرافك وأراسله بما أنا المتكفل
بعده بآلا يعود الى عشرته ، والضامن أن أرد هذا الصهر الى
حيث تحب ويقع بموافقتك !

فشكره ودعا له وانصرف ، فقال أبو عيسى :
 — ألا ترون الى هذا الرجل النبيه الفاضل السرى الشريف
 يدفع الى مثل هذا ؟ طوبى لمن لم تكن له بنت !
 فقال ابن المعتز :
 — ان لولدك فى هذا المعنى شيئا قاله واستحسنه جماعة
 ممن يعلم ويقول الشعر .
 فقال أبو عيسى :
 — هاته فداك عمك !
 فقال :

وبكر قلت موتى قبل بلع وان أثرى وعد من الصميم
 أأمزج باللئام دمي ولحمى فما عذرى الى النسب الكريم
 فقال أبو عيسى :
 — أمتع الله أهلك ببقائك وأحسن اليهم فى زيادة احسانه
 اليك وجملهم بكمال محاسنك ولا أرانا شرا فيك (١) .
 وقام الحاضرون يعانقون الأمير الشاب ، وهم يعجبون بهذه
 الخصال التى قلما ظفر بها شاب من شباب بغداد ، فلما احتوته
 داره التى بالصراة لم يلبث فيها الا ريشما يخلع رداءه الرسمى ،
 وخرج بعد ذلك فى مغامرة من مغامراته الطائشة .

(١) الأغاني ١٠ : ٢٨٣ (ط . دار الكتب سنة ١٩٣٨) .

الفصل الرابع

البحث عن طريق

منذ شبت ثورة الزنج والفوضى تسود جميع ربوع العراق ، وقواد الدولة الذين تصدوا للشوار يقاتلون حتى أنهمكهم القتال .
فها هو ذا سعيد الحاجب يستقيل فيخلفه منصور بن جعفر الخياط ، ثم يعقبهما محمد بن المولد ، فأبو أحمد الموفق أخو المعتمد ، فابن المولد ثانية . وعندما أسندت القيادة الى موسى ابن بغا — وكانت اليه ولاية المشرق كله — ظن الخليفة خيرا ، ولكنه لم يلبث أن استعفى سنة ٢٦١ فانتقلت القيادة مرة أخرى للموفق .

وفجأة هبت زوبعة جديدة على الخلافة ، اذ استحكمت الأزمة بين يعقوب بن الليث الصفار والمعتمد . واتهز الزنج هذه الفرصة وقصدوا بغداد لامتلاكها والاجهاز على هؤلاء الكبار الذين لم يعرفوا أن الحياة سقيمة مرة المذاق خارج القصور . ويبدو أن الظروف قد أبت الا أن ينتصر الموفق ، فأثار هذا اعجاب ابن أخيه عبد الله بن المعتز وحدد موقفه نهائيا منه . فضلا عن أن ابنه أبا العباس — الخليفة المعتضد فيما بعد — وقد انتصر

انتصارات ساحقة على الثائرين (١) كان يقوى من هذا الموقف ،
ويدفعه الى مدحه بأشعار جيدة (٢) .

لقد بلغ من احساس هذا الأمير المتعطل بركود حياته في عهد
القلق والاضطراب أن دار جدته — التي أعاد تجديدها (٣) بعد
أن طفيح ماء دجلة وحطم مسناة بستانها فأغرق جدرانها وهدمها —
لم تعد تصرفه عن السياسة ومناوراتها . وكانت له جدة غير
قيحة ، هي أم حبيب بنت الرشيد (٤) يقصد اليها مع رجالات
العباسيين ، فيسمع اليهم بعض الشيء ثم لا يلبث بعد قليل حتى
ينصرف الى متابعة آثار الفخامة التي تطالعه في كل شيء بالقصر .
فالى جانب أثاثه الفاخر وستره المخملية الملونة تفننت تلك العجوز
في تنسيق بستانها حتى انها فجرت فيه العيون وغرست الأشجار
التي تعطى من الزهور والفواكه ألطفها وأطرفها ، ومن وراء
القصر ووراء دجلة الى الجبل مراتع للصيد يلهو فيها صغار أمراء
العباسيين بالقنص .

ان هؤلاء الأقارب يأخذون بهذه الحياة المترفة بفضل الأموال
التي يفيضها عليهم المعتمد ، ولم يمنع اشتراك بعضهم في تدبير

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١١ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٦٩ ، ٨٦
وما بعدها (ط . الاستقامة سنة ١٩٣٩)

(٢) يراجع ديوانه وأوراق الصولى ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ هـ هذا
وقد كان له عم اسمه أبو محمد بن المتوكل يعطف عليه كثيرا فلما
مات رثاه رثاء صادقا .

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٨٣ وقد كانت له دار أخرى في المطبرة
بسامرا اعتاد أن يتردد عليها

(٤) ماتت سنة ٢٦٧ وابن المعتز في العشرين من عمره .

ضده من أن يستمر المد منه . ولكن سوء طالع ابن المعتز عرضه مرة أو مرتين للعقاب ، وهو على أى حال لا يزال يذكر كيف كاد يطاح به عندما ارتحل مع سليمان بن وهب الوزير الى سامرا عام ٢٦٤ وأعلن المعتمد فجأة غضبه على الوزير حتى أمر بانتهاب داره ودار ابنه وهب وابراهيم ^(١) ، ثم تعقب الأمير فى كل مكان وضيق عليه حتى ظن أنه هالك ، ولولا أخوه اسماعيل الذى كان يلزم سامرا واعتذاره عنه أمام الخليفة لتغير مصيره الى الأبد . من أجل ذلك حرص على ألا يتورط مع المعتمد لا حبا ولا كرها فى شىء ، وآثر عمه الموفق بزياراته والاشادة ببطولة ابنه أبى العباس الذى لم يكن يكبره الا بسنتين أو ثلاث . ولكن ..

ولكنه يتبين على الأيام عبث كل ذلك ، ثم يجد ألا جدوى من وراء الاقدام على مراسلة عمالقة الفكر والأدب والفن من أمثال الزجاج ، وابن جرير الطبرى ، وابن دريد الأزدي ، ومحمد ابن يزيد البصرى ، وأبو العباس أحمد بن يحيى ، والمفضل ابن سلمة ، والقاسم بن أحمد الكوفى ، ونطاعة أحمد بن اسماعيل ، وابن ثوابه الكاتب ، وأبو الحسن على بن يحيى المنجم وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر ^(٢) . انه ضائع مبدد ، وكل ما يستطيع أن يفعله — عدا الانتقال بين القصور والبساتين

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٤١

(٢) كتب له ابن المعتز رسالة طويلة فى الغناء أشار اليها

أبو الفرج فى أغانيه ١٠ : ٢٧٦ ، ٢٧٧

وبيوت القيان — هو أن يتفقد أسواق النخاسة في بغداد ، أو في البصرة ، أو في سامرا .

وكان في هذه الهواية يشبه أى أمير آخر أو أى ثرى من أثرياء العراق . كل وجيه مرموق كان يريد لبلاطه أن يتفوق على سائر البلاطات باستحواذه على أفتن الجوارى وأرشق الغلمان . فيبدهم الحياة ، وأحاديثهم هى الصورة الحقيقية لهذا الأسلوب الفريد من السلوك . وعن هذه الطريق التقى بنشر الرقيقة الوديعه ذات الدل الودود ، كما التقى بنشوان الذى أحبه وعشق صوته كلما ارتفع بالغناء .

وأما خزامى التى أراد قنصها فى قصر المعتمد فقد أبى سيدها أن يهبها له ، وان يكن قد ظفر منه بوعده أن تتردد على داره لتعلم نشر الألحان والشعر . فقد كانت مغنية محسنة وشاعرة ظريفة ، وكانت أيضا ساقية ماهرة قادرة على أن تسكره بالتجميش قدرتها على اسكاره بالنبيذ .

وتتردد عليه بنت الكراعة فلا يوليها ما يولي خزامى ، ولكنه مع ذلك يحس أنها تأسره دائما بكل باهر وبادر ، ثم هو يشهد أنه قد يتوق اليها اذا غابت عنه أياما .

كما عرف زرياب ، وفى حضنها عرف معنى النغم ودرسه ، وأقام عليه حتى شهر به فيما بعد . وقد زارته فى يوم السعائين (١)

(١) عيد للمسيحيين يقع قبل العيد الكبير عندهم بأسبوع ، وفيه يخرجون بسعف النخل من الكنيسة .

فصنع من وقته لحنا في شعر عبد الله بن العباس الربيعي غنته
بعداد كلها (١) .

وعرف أيضا هزار وبثنة وسليمي وشر وغير هزار وبثنة
وسليمي وشر (٢) ممن يحطن الليل ضياء والنهار أسطورة تعيش
على الطنافس وفي سبحات العطور والبخور . وهو يتحدث اليهن
ويداعبن ، وهن يتملقنه ويسعين وراءه ، ويقدن له سواهن في
عشرات من الأقنعة والصفات المنتحلة . ولا أحد يدرى من أين
جئن ، ولا هو يسأل عن حقيقتهم ، ففى وسعهن أن يكذبن اذا
سئلن ، وهو لا يجب الكذب .

أما اذا أحس أن واحدة منهن تريد أن تتعلق به تعلق الزوجة
بالزوج ، فهو مسرّح لها السراح الجميل . وحجته أنه شاعر ،
وأنه صانع لحن ، وأنه جوّاب آفاق وراء الملذات . واذا كان حتى
هذه السن لا يزال موضع ترحيب في دوائر الخلافة والوزارة ،
فليس يبعد أن يأتى الغد الذى يرى نفسه فيه مطرودا مغلوبا على
أمره .

ومع ذلك فقد تزوج ، وكان زواجه اذا صح سياسيا . غير
أننا لا ندرى كيف تم زواجه من زوجته ، وان كنا نعلم أن
أبا العباس أحمد بن بسطام صهره كان يلى أعمالا من قبل الموفق .
ان أى انسان يقدم للأمراء اخلاصه وتفانيه ، لا شك واصل
منهم الى ما يريد . لا سيما اذا كان عربيا ، أو اذا كان سنداً لهم

(١) الأغاني ١٠ : ٢٧٨ ، ٢٧٩

(٢) ربما يكون كنى بشر وبثنة وسليمي ممن لم يشأ فضحهن

في صراعهم مع الأتراك الذين توغلوا في أمور الدولة وسيطروا على الجيش وملكوا الثغور والأطراف . في هذه الحال لا يجد الأمير بأساً من أن يساط دم أسرته بدم غير دمها النبيل ، وعن هذه الطريق تمكن أبو العباس من أن يقتنص ابن المعتز — تحت حاجته الملحة الى عطاء الموفق — لابنته التي راح يغمزها في شعره :

دست بنية بسطام عقاربها
نحوى ونامت على الأضغان والحنق
حتى كأني قد فزعت والدها

في المهد فانقلبت عيناه من فرق
ويبدو أنه عجز حتى عن أن يهادنها ، وصرح بأنه لم يهنأ قط الا بعد أن « نقب عرسه » بالطلاق . على أننا لا ندرى أنجب منها ولدا سماه العباس — وهو يلقب بأبي العباس في الكتب — أم أن ذلك جاء حملاً عليه (١) .

المهم أن بقاء ابن المعتز تحت سلطان بنت بسطام لم يطل ، والظاهر أن قلق نفسه كان من العوامل الأساسية في هربه . ولكن ماذا عساه يفعل بعد ذلك ؟ انه يتمنى أن يصبح أميراً للمؤمنين — لأن هذا حقه — ولكن الظروف لا تزال تبعده عن هذه المهنة . وكان استعداداه العلمي رائعا ، الا أن شبقه يجذبه

(١) يرى محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه ابن المعتز (ص ٣٤ ط . الحسين التجارية) أنه أعقب أبا العباس وعبد الواحد وبنتا رثاها ، مع أن أبا الفرج يقول في أغانيه ١٠ : ٢٧٥ ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه !

الى المجون بالقدر الذى يجذبه جده . وفى بعض الأحيان يفرى
على المسامرة شيئا ، ثم يكتشف فجأة أنه أمير لا ينبغى أن يشارك
فى بعض قدرات العامة .

ولكن بما أنه أصبح شابا قوى الارادة جدا بسبب التعارض
المتكافى ، ويعتقد بأن كل ما يستحق أن يعمل سوف يعمل فى
الوقت المناسب ، فقد غدا صبورا يضرب به المثل فى طول الترقب
والانتظار . وكان يتقاضى نظير صبره المال من القصر أحيانا ومن
الضالعين مع القصر أحيانا أخرى .

فإذا التفتنا الى خلسائه بعد ذلك — وهم غير من يخالطهم
فى ساعات الجد والتحصيل — نرى خليطا عجيبا من الشباب ،
فيهم الشاعر وفيهم الكاتب وفيهم المغنى وصانع الألحان ثم فيهم
المتهتك المغامر الخليع الذى يطلق العنان لمجونه فلا ندرى أهو
إنسان أم شيطان !

هذا هو أبو الطيب القاسم بن محمد بن عبيد الله النميرى
خدينة وأحد أقطاب مجلسه ، يلهو ويقصف فاذا أذن للصلاة
حرص على أن يتجه الى الله . ويروى عنه جعفر بن قدامة
— الشاعر الكاتب وزميل الشراب الدائب — أنه قد صلى الصلاة
الخفيفة ويطيل مع ذلك السجود ، وفى إحدى المرات أطال سجده
حتى استثقله جميع من حضر ، فلم يجد ابن المعتز بدا من أن
ينشده (١) :

(١) الأغاني ١٠ : ٢٨٣ ، ٢٨٤

صلاتك بين الوري نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة كما ختم المزود الفارغ
وهذا أبو أحمد يحيى بن على بن يحيى المنجم الذى اضطر
ابن المعتز الى مقاطعته ، مع أنه كان يعجب بذكائه وشعره واطلاعه
الواسع على علوم العرب والعجم . لقد اكتشف أنه شعوبى
فهجاه ، ورد عليه هو متهما اياه فى أخلاقه وعلمه (١) .

وهذا ابن حمدون أبو عبد الله محمد ، النديم الطريف وقريب
على بن منصور بن بسام الشاعر الذى خاصمه ابن المعتز ،
فلما مات كان أحد القلة التى رثته وتفجعت عليه .

ثم هذا جحظة البرمكى ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى
الكاتب الناقد وخير من يلعب الشطرنج ، وأبو بكر أحمد بن
أبى العلاء الذى هجاه البحرى وكتب الى ابن المعتز يناشده أن
يجعل منه نديما ومغنيا ، فعتب عليه لأنه هجر دكانه الذى اعتاد
أن يجتمع فيه بأصحابه كلما قصد الى سامرا (٢) .

وهناك غير هؤلاء ممن يعيشون متطفلين على قصور الملوك ،
ومن المهرجين والأفاكين الذين يتواطؤون على المنادة بحياة
لا ترتبط بعمل الا عمل الاتم ، ولا تبتز الا كل حرمة تحت أى
شعار زائف براق .

(١) الديوان ١٨٠ (ط . بيروت) وتاريخ بغداد ١٠ : ٩٦
ومعجم الشعراء للمرزبانى ٤٦١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٦ .

(٢) الأوراق ١٤٣ وسنرى قصيدة فيها صفحات ساخرة
يطالعا بها ابن المعتز على نوع الحياة التى كان يتعشقها ويحن
اليها برغم ما فيها من خسة وسوء .

لقد استبدلوا بقيم الشرف بديهة حاضرة ونكتة ماجنة ،
وبالتدبير الرشيد حلاوة الكلام وتهوّر الشباب وسعة الحيلة
بحيث لا تتشابه أساليبهم ولا مسالكهم ، على الرغم من أنهم
جميعا قاعمون ، تزين أصابعهم الخواتم وشعورهم مرجلة
وملابسهم أنيقة .

يقدمون على الفسق بوجوه طليقة ، وبلا ادعاء للاحتشام ،
وبدلاقتهم يقنعون أى عيَّاب بطبيعة ما يفعلون .. بل بضرورته !
وقد كانت لهم جاذبية آسرة ، فاستطاعوا أن يسيطروا على
الخاصة تماما ويسوقونهم الى هذا المصير الذى أطيح فيه بأغلبهم .
وكان القرن الثالث الهجرى هو قرنهم بحق ، ويعتبر ابن المعتز
أشدّهم جاذبية وأكثرهم تمكنا من فنون العبث مع اختلاف
المستوى ومحافظة منه على الخير ومظهره .

وإذا كانت حياتهم لم تدم طويلا ، فإن حياة ابن المعتز كانت
أقلهم دواما .

كانوا يبحثون عن أى شيء .. فى السياسة .. فى الدين ..
فى الأدب ، وبحث هو عن شيء صرع فى سبيله ، الا أنه كان هو
الطريق الذى قدر له !

الفصل الخامس ترفع الأمراء

لم يحاول ابن المعتز أن ينكر في كل كتبه وكل رسائله أنه كان انسانا مغامرا ، بل على العكس يبدو كما لو كان فخورا بهذه الصفة ، ولا نستطيع مهما نحاول أن نتصور بعده أنه ضيّع في مغامراته ترفع الأمراء ، كلا .. فهو الأبى حتى وهو يمدح تحت وطأة الحاجة ، حتى وهو يقصد لسليمان بن وهب وزير المعتمد ، والى أن نيف على الثلاثين .

انه يقول لهذا وذاك أهون ما يقال أو أقرب ما يخطر على البال ، دون أن يتعمق على المعنى الطريف . وهو اذا قصد غيرهما — وسيقصد في المستقبل — يحرص على ألا يتورط في ذكر الأسماء ، وعلى ألا يغلو الغلو الذي يحيد به عن جادة الصدق . ولعل الذين يحاولون أن يقارنوه بشاعر عصره — البحتري — يظلمونه ولا يسلمون بأن غايته الوحيدة لم تكن الا قضاء حاجته بأيسر سبيل ، ودون أى خسارة في رصيد كبره .

وذلك جوهر الفنان عنده !

وهو فى انتاجه الغزير حريص دائما على ارتداء أنيق الثياب ، كلما اضطر الى الاعتراف بالعوز . وربما اذا لم تواته الظروف

قنع بالقليل ودعا الى الزهد — وهذه نعمة ستقوى عنده في كهولته
 المبكرة — وقام بالعمل وحده دون قهرمائه أو دون مواليه .
 يروى أبو الفرج أن عبد الله بن موسى الكاتب — صديقه —
 دخل عليه وفي داره طبقات من الصناعات وهو يعينهم على بناء
 داره وتبييضها ، فقال له :
 — ما هذه الغرامة الحادثة ؟

فأجاب :

— ذلك السيل الذي جاء مذ ليال أحدث في دارى ما أحوج
 الى الغرامة والكلفة :

ألا من لنفس وأحزانها ودار تداعى بحيطانها
 أطل نهارى فى شمسها شقيا معنى بينيانها
 أسود وجهى بتبييضها وأهدم كيسى بعمرانها
 وهو يمضى على هذا دائما ، فان اضطر الى أن يفتخر أو الى
 ايجاد تبرير فلسفى لترفعه صدر عن حقائق تاريخية دقيقة ، فهو
 فضلا عن أنه صاحب العرش الشرعى فان رهطه الأذنين قاتلوا
 بنى أمية وغلّبوهم ^(١) وهم صانعو الحضارة والنبي منهم ^(٢) ،

(١) يقول :

قتلنا أمية فى دارها ونحن أحق بأسلابها
 كما يقول :

جزيننا الأمويين ودناهم كما دانوا
 وذاقوا ثمير البقى وخنأهم كما خانوا
 (٢) يقول فى هذا المعنى :
 أليس محمد منا فحسبى به فخرا وما فيه فريد
 به طلعت نجوم الحق سعلدا وبينت الشرائع والحدود

فليس لأحد أن يساميهـم . ومن هنا كان لابد أن يعلن خصومته
للطالبين الذين يظنون أن رهطه سلبوهم الخلافة ، وهى خصومة
صريحة تستند فيما تستند الى أن أبا طالب وآله — باستثناء
على — لا يقاسون بالعباس وأبنائه .

انى من القوم الذين بهم فخرت قريش على بنى كعب
صبر اذا ما الدهر عضهم وأكثهم خضر لدى الجذب
ولهم وراثة كل مكرمة وبهم تعلق دعوة الكرب

ان الرجل فى نظر ابن المعتز ليس عليه من واجب أخلاقى فى
هذه الحياة الدنيا الا أن يرتفع الى عليين . واذا تورط فى تقيصة
فلا بأس من تبريرها ، والا فهى ضرورة . اللهم الا اذا كان لابد
من كتمانها ، وفى هذه الحال تكون سرا يمنع عن الجميع :

فاكتم السر حبيبا وعدوا فهو من هذا وهذاك يشيع
ومع الصبر وكتمان السر يحسن الحلم ، وكل هذه من
سمات الترفع . وهكذا لا تكون الحياة مجرد مغامرة طائشة
لا جدوى وراءها ، وانما تكون تمرسا صادقا على بلائها . ولو قد
تبعنا ابن المعتز وناقشناه فيما صدر عنه رأينا لا يغضب قط ،
لأن الغضب بدايته العصيان ، والعصيان يقتضى أن يعدل عن
التقية — سلوكه العام — وهو نفسه يقول : الغضب يبدأ
بالعصيان ، يعظم ذنبه ويقبح صورته ويعمل بذمه (١) .

وقد عرضت له المرة بعد المرة فرص التمرد والثورة ، الا أنه كان يرفضها ، ولديه دائما أسباب قوية للرفض بما بينه وبين ساليه حقه . فهم في الحقيقة ليسوا مدفوعين الى التستر عليه والى مده بما يميزه عن غيره من أمراء العباسيين ، أما وأنهم يميزونه فمعنى هذا أنهم يسترضونه ، وفي هذا الكفاية .

هو ليس كالمغامرين البائسين المضطرين الى اراقة ماء وجههم أو الى اعلان تمردهم ، وأما شقيقه الذى يصغره فقد لقن منه هذه الفلسفة ، بل لعله ظل يصدر عنها حتى آخر نفس له فى الحياة .

ان هذا الفنان العاشق للحرية المغامر المترفع لا يريد المال الا ليومه ، ومن ثم ينبغي ألا يشغل نفسه بطلب الضمان لدوام الحال . بل انه حين يجد كل شىء متاحا طرحه جانبا وكأنه يرفض أن يقف فوق المكان المطمئن أو أن ينتهى عند النقطة التى يقال له فيها : هنا يجب أن تستريح !

وكأنما كان شعاره : الرحلة دائما والقليل يكفى ، أما الشىء الذى يتخم النفس فلا ضرورة له ، وان يكن لا ضير على الاطلاق من أن يفيض على صحبه بما يملك :

وأوثر صاحبى بفضل زادى وأحى النفس بالوشل القليل وهو من هنا أو فى آخر الأمر وفى حدود الصبر والحلم والترفع وكتمان السر وقلة المال يقبل أن يكون أسير ما يأتى ، أو عبدا للصدفة ، لأنها روح المغامرة واثارة الفنان الحقيقية ومجال

لظهور مبدأ التعارض المتكافئ الذى يحقق كل شئ يقع بين طرفي
الخير والشر :

تعالوا فسقوا أتقسا قبل موتها

ليأتى ما يأتى وهن رواء

نبادر أيام السرور فانها

سراع وأيام الهموم بطاء

فان لم يكن كذلك فصيده الأكبر فى أعماق الغيب ، يسرقه فى
ليلة أو على قبلة أو فى معاقرة هائلة :

يا ليلة سرقتها من دهرى

ما كنت الا غرة فى عمرى

أما وريق بارد فى ثغرى

شييا بطعم غسل ومر

ما الموت الا الهجر أو كالهجر

وهكذا ، يجعل فلسفته أو يضعها وهو بعد فى الحلقة الثالثة ،
دون أن يحاول قط أن يتحصن من الكوارث ، ودون أن يعلن أنه
شقى بما يأتیه :

فيا نفس ان الرزق نحوك قاصد

فلا تتعبى حسبى من الرزق اتعابا

الفصل السادس

الأمير الرحيم

يمكن أن نقول بعد ذلك ان القاعدة التي اتخذها ابن المعتز أساسا للحياة الاجتماعية هي : عش ودع غيرك يعيش !
وليس من شك في أن هذا قد يبدو لأول وهلة موقفا سلبيا ، غير أنه في حقيقته ضرورة لسلوك التقية من ناحية ولبدء اللذة من ناحية أخرى . ولم يعن هذا قط أنه لم يشغل نفسه بقضايا عصره ، وانما يعنى أن هذه القضايا كانت بالنسبة له جزءا من بناء قائم ولا تحتاج الا الى تأكيدها .
وقد كان كتابه « الفصول القصار » الذي وضعه في وقت مبكر من حياته — ربما قبل سنة ٢٧٤ — ينم عن هذا الاتجاه . فالملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى ، ولا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الأمور عليه فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حال سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحه واضطراب أمواجه ؟ والدنيا تهين من أكرمت وتأكل من أطعمت ، والفرصة سريعة الفوت بطيئة العود ، والتواضع سلم الشرف ، وغضب الجاهل في قوله ، ومن جرى في عنان أمله عثر بأجله .

ويبدو من هذه الأقوال ونحوها مشاركته الايجابية ، وان
يكن يحرص دائما على أن يجعلها من قبيل النصح حتى كأنه
حكيم . ولعله أن يكون قد تأثر ابن المقفع في أدبيه الصغير
والكبير ، ولعله أن يكون قد تعمق تجارب الحياة في هذه السن
المبكرة فرصد تجاربها ليذيعها بين الناس كي تنفق في سوق
الحكمة عندهم .

لسنا ندري ، وانما كان على كل حال يفسح الطريق للناس
حتى يمسروا بشرط أن يسمعوا لصوته ، ولهم أن يفعلوا
ما يريدون .

ان القانون الأخلاقي الذي يقرره لم يكن له قوة التنفيذ ،
ولم يحاول هو أن يلتزم به واقع الأمر . فكأنه قوال لا فعال ،
وكأنه لا يريد الا أن يتقمص لقمان حتى اذا قضى الله سلخه عنه
ليعيش الساعة التي هو فيها . وان أكبر جريمة يقتربها التهاون
في الاستمتاع بهذه الساعة كائنة ما كانت ، والا فالويل له .

يا من يفندني في اللهو والطرب

دع ما تراه وخذ رأيي فحسبك بي

ويبدو من ارتباط اللهو بالفرصة المتاحة عنده معنى حياته
كلها ، على الأقل في هذه المرحلة التي تنتهي بأولى ثلاثياته .
وهو معنى شهواني أساسه الأول المرأة ، وتناخر الخمر الى
مرحلة ثانية من حياته .

ان هذا الشاب الوسيم الأسمر القوى البنية الأنيق ، قطع
الطريق بين سامرا وبغداد مئات المرات من أجل المرأة . وهو قد

يحارب وقد يخرج للقص ، غير أن صورة المرأة لم تكن تبارح خياله قط . وانه ليصل به الأمر في بعض الأحيان حد الخروج عن المألوف ، وهذا النميرى صديقه يحكى أنه عكف ذات يوم على جارية قبيحة للغاية فقال له :

— أيها الأمير ، سألتك بالله أتعشق هذه التى ما رأيت قط أقبح منها ؟

فقال عبد الله وهو يضحك :

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغى ويرحم القبح فيهواه (١)

ولكن أعجب ما فى علاقته بالمرأة أن نسمعه يؤكد أن « القلب لا يجمع ثنتين » مع أنه يرفض ذلك حتى ليقول :

وما العيش الا لمستهتر تظل عواذله فى شغب
يهيم الى كل ما يشتهى وان رده العذل لم ينجذب

ولندعه مثلاً يلح جارية أو يشهد فى الطريق مركبا لاحدى
المحصات داخل قبتها ذات الستر المسدلة ، انه يتجه نحوها
بغريزة تنقد حتى لتنتفض أعراقه ويفقد عقله ، وهو على أى حال
لا يخل من ذلك ، بل يصرح به فى وقاحة فادرة :

جعلت عقلى لشهوتى عبدا وصار غيى عند الهوى رشدا
فاذا أخفق فى الوصول ، وعجز عن اطفاء هذه النار التى
اجتاحت حشاه ، صاح :

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٤

يا هلالا يدور في فلك النـا ورد (١) رفقا بأعين النظارة
قف لنا في الطريق ان لم تزرنا وقفة في الطريق نصف الزيارة
ولذا نراه طوال حكم المعتمد أسير جوع عارم ، ونهب طمع
لا يشفيه الا البذل دون ما ارتباط عاطفى حقيقى . وكأنها المغامرة
وحدها ولا شىء الا المغامرة ، على أن تتنوع بتنوع النساء ، وعلى
ألا يكون ثمة أمر الا اللذة :

فان أردت وصـالا فاقبلى صلتى

منى ، والا فهجران بهجران
ومتى قضى وطره التفت الى أخرى فى ظمأ وعرامة ، وكان
هذه لم تملأ خواء نفسه وأنشأ يقول :
ألا من لقلب فى الهوى غير منته
وفى الغى مطواع وفى الرشد مكره
أشـاوره فى توبة فيقول : لا
فان قلت تأتى غية قال : أين هى (٢)

مثل هذا الأمير الرجيم الذى يبيح للحب أن يشيع بين الناس
ما كان نزوة عارضة ، لا بد أن يفقد حيويته فى وقت مبكر ولا بد
أن يصل سريعا الى النقطة التى تصبح فيها المغامرات النسائية
عبئا يريد أن يتخلص منه اما بالخمـر والموسيقى ، واما بالرحلة
والحرب ، واما بالتأليف والكتابة .

(١) هذه رواية الأوراق ٢٢٩ والناورد فارسية معناها جولان
الخيـل والقتال ، وفى الديوان الماورد !
(٢) هذه رواية الأوراق ٢٠٦ وفى البيت الأول اقواء .

أما متى حدث ذلك فلا نعرف تماماً ، ولكننا نقرأ أنه شاخ
في الثلاثين و ابيض شعره قبل هذه السن فخضبه ^(١) ، ودب اليه
الهم والسأم طوال أيام المعتضد مع أنه كان يشاركه رحلاته وكانت
ثقيلة مخيفة كشخصيته .

(١) من أشعاره عندما أدركه الشيب قوله :

ومشى الشيب قبل عقد الثلاثين فلما انتهى إليها أغذا
وقد ألح على ستره حتى أنه ليقول لواحدة من صاحباته :
يا هند ما شاب الفتى وانما شباب الشعر

الفصل السابع

ولكنه أحبّ

في الأخبار أن النميري تحدث للناس عن علاقة ابن المعتز بنشر أو شر أو شرير أو شريرة ، فاعتبره خائناً وجفاه . ونشر هذه هي التي تحدث عن حب الأمير لها جعفر بن قدامة ، وذكر أنه كان بداره معه في أحد أيام الربيع ، وبينما هما جالسان خرجت هي عليهما من صدر البستان واضعة غلالة معصفرة وتقول:

— يا سيدي تلعب معي جنابي ؟

فقال على البديهة غير متوقف ولا متفكر :

فديت من مرّ يمشى في معصفرة

عشية فسقاني ، ثم حياني

وقال : تلعب جنابي ؟ فقلت له

من جاد بالوصل لم يلعب بهجران

ودعا بهزار فغنت في قوله هذا من الرمل المطلق على ما يقرر

أبو الفرج ^(١) والظاهر أنه على رغم هوايته بالنساء تقوى منه

(١) الأغاني ١٠ : ٢٨٠ والجنابي والجناباء لعبة للصبيان

يتجانب الفلامان فيها فيعتصم كل واحد من الآخر ، وفي الأصل « وفي يديها جنابي باكورة باقلا » وقد وردت في معاهد التنصيص

(ص ١٩٤ ط . بولاق سنة ١٢٧٤) جنابي من باكورة باقلاء .

فحولته الشابة كان يولى هذه التى خاصم من أجلها النميرى حبا صادقا . وكأنما كانت الطبيعة التى عهدناها لاتسلمه الى أية امرأة ، تأبى الا أن تربطه بهذه حتى لتسمو به الى نوع من التعلق أو العشق يبدو عجيبا فى حياته ، وليس أعجب من أن يقول وقد رآها ذات يوم تعبة تضع يدها على عينيها فى هبة غبار :

رأيتـه يتمشى متعبا ضجرا

كمثل غصن تقا فى الروض أملود

ليت الغبار الذى يؤذيه لى كحل

وليتنى جاره فى زحمة العيد

وكان من عادة المبرد أن يزور جاره — جار الأمير —

اسماعيل بن اسحاق القاضى ، فيعرج عليه ويذاكره الأشعار وتشبيهاتها بصفة خاصة وما هو بسبيله فى الكتاب الذى أتمه باسم « فصول التماثيل فى تباشير السرور » (١) . وقد دخل عليه ذات مرة فرآه مكتئبا مهموما يشكو هجر نشر أو شر وسوء ظنهما فيه وعدم ردها على كتاب بعث به اليها ، وأنشد :

حدثينى يا هم سؤلى ونفسى

من دهانى فى الحب أو من وشى بى

(١) المقصود بالتماثيل التشبيهات ، وبتبشير السرور ما يتصل بالخمر من أسباب ، ويرى عبد العزيز سيد الأهل فى كتابه عبد الله ابن المعتز (ص ٢٥ ط . بيروت سنة ١٩٥١) أن المبرد هو الذى وجه ابن المعتز للتشبيه .

لا ومن قدر الشقاء على الع
شاق ما خنت ساعة في حسابي

ليت أن الرسول كان يؤدي
لحظ عيني كما يؤدي كتابي

فأرى شر كل يوم ويشفى
سقم نفسي وحسرتي واكتسابي

ولم يستطع المبرد ازاء هذا إلا أن يقول :
— والله أيها الأمير لا يراك المرء وأنت في طلب المثل السائر
والشعر المرصوف حتى يقول هذا حكيم أمته ، فالام تدافع عن
هذا بهين أنت لا تخلص منه أبدا ؟

قال ابن المعتز :
— لقد استوحشت منها حتى لا أرانى قادرا على شيء ، ولعن
الله الشعر ما دام مفرقا بيني وبينها .

فتساءل الشيخ قائلا :
— وكيف أيها الأمير ؟

أجاب :

— انها أبيات قلتها ، فزعم الزاعمون أنى لا آنس بها إلا بما
تحمله ، وهل أنا الذى يسمح بما يجب كتمانها ؟ هو شيطان الشعر
وأين منه المهرب ؟

من معينى على السهر	وعلى الهم والذكر
وابلائى من شادن	كبر الحب اذ كبر
قام كالغصن فى النقا	يمزج الشمس بالقمر

شاطرى مقطب فاسق الفعل والنظر
قد سقانى المدام والى ليل بالصبح مؤتزر

ولم يكن المبرد يجهل طبيعة هذا الشاعر ، ولا كان غافلا عن الشر الذى يتورط فيه أينما كان وفى أية ساعة . وتكفى هبة ريح من جانب امرأة لا تاره غرائزه والهباب أحشائه ، ولكنه دهش عندما رآه يقيم على عشق واحدة بعينها فهل بدأ يتغير ؟ أتراه أصبح فى حاجة فعلية الى الحب ؟ انه لا يدرى ، ولهذا قال كالمستأئل :

— انى والله لأعجب لك ، ولكن لما كانت الأشياء تجلب الى أسواقها بحسب نفاقها فأظنك هديت الى ما ترجو نفاقه على هذه التى أبكتك .

وسكت يتطلع الى غراس البستان وطرقاته المفروشة بالحصباء الملونة ، بينما عقب الزهور يضوع من كل مكان ومن ثوبه هو بصفة خاصة . ولأول مرة يلحظ أنه فى قميص المنادمة وعلى رأسه كلوته خفيفة بنفسجية (١) ، فعاد يقول :

— ولكن الحزين مع ذلك لا يلهو أيها الأمير
قال ابن المعتز فى أسى :

— اننى هنا وفى مكانى هذا من أمس ، وقد حجبت الزوار حتى أقوم على حزنى المقيم .

(١) الكلوة بتضعيف اللام فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضرب بالحرير أو القطن .

ولكن عيني الشيخ لم يفتهما طينية الذهب وفوقها الجوز
واللوز ، ومن قريب كأس فارغة وزق مفتوح .

— وهل تستعين على حزنك المقيم بمثل هذا ؟

وتبين ابن المعتز النكرة لما يسمع منه ، فخشى أن يخرجه
بمزيد مما يكرهه ويستنكره ، فقال باقتضاب :

— أيها الشيخ الجليل .. لقد كانت هنا خزامى وهذا طعامها
وشرايها النبيذ ، ولكنى ودعتها قبل أن يتقدم الليل ، لقد كنت
أريد أن أفرغ لطيف شر البديع .

ما رأيـنا بشـرير قط في الناس شـبيها
وهنا قام المبرد وهو يقول :

— انى لأستعفيك من هذا كله فهو ديدنك ، وأنا عجوز
لا أقدر الا على أن أراسلك بما يجرى الأمر فيه على علمك
وفضلك ومع ذلك فانى ذاكر قولك فى شر هذه :

وقلت تعـالى يا شريرة نمتزج

كمثل امتزاج الماء والخمر نصفين

الفصل الثامن

المهرجور

كانت دار ابن المعتز في هذه الليلة قد أضيئت بالشموع الملوثة ، وتسلفت الأنوار من النوافذ على مغارس الحديقة . وفي الجانب الأيسر منها كان الفناء الواسع قد فرشت أرضه بالبسط الفاخرة ، وألقيت الوسائد والنمازق حول سباط مستدير . وفي الصدر سرير من الأبنوس مموه بالذهب ، وملتصق بحائط زخرف بالنقوش البديعة .

وثمة باب من الأبواب مفتوح دلف منه ابن المعتز وعليه القباء الأسود والقلنسوة الطويلة ، ثم عاد وقد غير هندامه وجلس الى المائدة فاذا عليها الأباريق الفضة والبللور ، وتراوحت الأقداح على مختلف أشكالها بين أطباق الفاكهة والجوز والبندق ومزاهر الأزهار .

كان الجالسون ، هذه الفئة الضائعة المغامرة التي لا يعنيتها الا أن تملأ بطونها وعيونها ، وقد حيوا الأمير أجمل تحية فراح يتقبل تحيتهم بوجوم ، حتى اذا صفق خرج قهرمانه متعجلا فقال باقتضاب :

لقد تحسنت حال أبي أحمد الموافق بوضع رجله في الثلج
وزاره اليوم أمير المؤمنين ، فالينا بالمغنيات .. أهنأك من الجوارى
الجديدات شيء ؟

وسرت هممة استحسان بين الحضور وكانوا يعرفون مكانة
الموفق في نفس أميرهم ، فمضوا يعلنون عن غبطتهم بإشارات
مختلفة ، بينما أجاب القهرمان بخشوع :
— لا يا مولاي ولكن عندنا خزامى وبنت الكراعة وهزار .
قال :

— أما خزامى فمند فارقتنا شريرة وهي تدعى النسك ، فقيم
وجودها وهؤلاء لا يسكرهم الشراب وحده ؟
وتضاحك في ملل ، فضحك الجالسون . واندفع جحظة قائما
على قدميه وهو يدفع بوجهه القبيح ناحية الأمير ويقول :
— أتذكر سكر الشراب جعلنا الله فداك وتسكت عن
الطعام ؟

وكان جحظة هو الوحيد الذى يجرؤ على أن يتكلم عن مثل
هذا ، مستشفعا بما وضع من كتب في صنوف الأكل ، وربما ذكره
في أماليه التى لم يشك أحد فى خطرها . فقد كان جحظة مهما
تختلف الآراء فى تهتكه وخسوف دينه عالما جليلا ، فضلا عن
مهارته فى الضرب على الطنبور ، فلما سمع الأمير منه ذلك قال
برفق :

— يا خنياكر (١) .. أيش تقول فى قطائف تأتيك ؟

فتلوى كالأفعوان وهدر :

— اذا كانت بجوز أتخمتنى واذا كانت بلوز أبشمتنى !

فضحك الحضور متماجنين ، وقال ابن المعتز :

— اذن ففى دارك من صنوف السكباچ ما يريحنا من عواء

بطنك وصراخ وجهك .

قال جحظة :

— والله ان بيتى لأفرغ من فؤاد أم موسى وأنا أفلس من

طنبور بلا وتر !

وعاد المكان يضح بالضحك ، فقال هو مستطردا :

— ولو كان هذا بالأمس لقت من هنا فجعلتك تتفضل

ببسط العذر لعبدك ان شاء الله .

قال عبد الله وقد سرى عنه بعض الشيء :

— اذن ما رأيك فى طباهجة بلبود ؟

أجاب مبادرا :

— فان حليتها بمعتقة اليهود طاب أمامها السجود .

وهنا انبرى أبو الحسن الأموى وقد جاء رسولا من قبل

النميرى يطلب صفح الأمير عنه ، وقال :

— لقد صرفنا جحظة أيها الأمير عما كنا نذكر به خزامى ،

فهلا حدثتنا حديثها أيها الأمير !

(١) ذكر ياقوت فى معجم الأدباء ١ : ٢٩٤ أنه لا يعرف معناها

وقيل انها فارسية بمعنى المغنى سماه بها الخليفة المعتمد .

أحس ابن المعتز كأنه بوغت ، فأطرق بعض الشيء مفكرا ،
وعندما رفع رأسه كان يقول :

— وما جدواه يا أبا الحسن ! فأنا إذا كنت لا أعتمد العنت
فأننى لا أقصد قصد من اذا عورض بشيء أذاعه ، غير أننى أرغب
الى الناظر أن يتأمل فيم تجفونا وقد عبت عليها بشعر لى أن تترك
النبيد ؟

وهنا تدخل نطاحة أحمد بن اسماعيل فسأل :
— وهل أجابت ؟
فقال :

— بيتى شعر أو ثلاثة !
فأنشد نطاحة على البديهة وقد كان شاعرا رقيقا :
خير الكلام قليل على كثير دليل
والعى معنى قصير يحويه لفظ طويل
وفى الكلام عيون وفيه قال وقيل
وللبليغ فصول وللعبي فضول

واضطرب المكان بين معجب ومنكر ، وان كان الشعور العام
أن ينشدهم ابن المعتز ما قالت خزامى . وعندما طولب بذلك قال :
— وهل يقبل نطاحة من بعد شعره شعرا ؟
قال نطاحة :

— أنا لا أخاف يا سيدى !
قال ابن المعتز :

— فليكن ولتأمل بعين الانصاف لا الانحراف قولها فאלله
راحم كل من يقهر هواه ، اسمعها تقول :

أتانى قريض يا أميرى محبر
حكى لى نظم الدر فصل بالشذر
أأكرت يابن الأكرمين انابتى

وقد أفصحت ألسن الدهر بالزجر
وآذنتى شرح الشبَاب بيّنة
فيا ليت شعرى بعد ذلك ما عذرى

انها تتحدث عن المشيب سامحها الله ولا ترانا !
وقبل أن يستطرد أقبلت جارية كأنها الغزال ، عليها قميص
يشف عن أثوابها جميعا وفوقه قرطق مفروج ، وقد أشرق وجهها
وجعلت شعرها طرة أسبلتها على جبينها ، وتعصبت بعصابة
نقش عليها بالذهب بيت من أبيات الشعر . وكانت هذه الجارية
تحمل مروحة عريضة من ريش النعام ، تقبض عليها بكف فوقه
الدمالج توسوس ، وراحت تقول :

— عفو مولاي لخزامى جارية الضبط فقد جاءتك فان شئت
حكيت حكاية تلك الأبيات أو اكتفيت بحمل المروحة مع سائر
الوصائف !

وكان نقر من الجوارى قد دخل ، وهن لا يختلفن كثيرا عن
خزامى ، وتطل من وجوههن عيون دعج تقوست حواجبها فى
سحر أسر . ولقد ملأن الفناء حياة فارتفعت الصيحات ، ولكن
صوتا رقيقا انبعث من الناحية البعيدة لجارية يبدو من طلعتها

وهندامها أنها رومية . عليها دراعة مصبوغة بلون الورد ؛ وتهذلت
خصل شعرها من تحت تاج تبرق لآله ، وأخذت تقول :

— وهل نسي مولاي بنت كراة ؟ أترأه ما عاد يذكر ما بعث
به اليّ في يوم من خوالي الأيام وقد غاب عنه صوتي دهرا ؟
ليت شعري بمن تشاغلتي بعدى

وهو لا شك جاهل مغرور
هكذا كنت مثله في سرور

وغدا في الهموم مثلى يصير

ليس هناك أحد يا أميري ، ولكنها الحرفة وصنعة اللحن ،
فان شئت غنيتك هذين البيتين بما لم تغنه جارية قط حتى
ولا عريب المأمونية ، ولخزامي أن تقدر ما تراه ان لم تشأ أنت
أن تنظر !

وحبذ المتسامرون فكرتها ، ولكن الأمير ظل واجما ، كان
ثمة شريط من الأمس يعبر خاطره ، فهذه الحمراء وهذه البيضاء
وهذه السمراء ، وهذه وهذه وهذه .. كلهن في عنفوان الصبا
ولكنه عاد يتجاهلهن ، فأى نعمة من طيبات الحياة يجحدها بعد ؟
أيخبرهن ، أم ترى تولت هذا الأمر خزامى وجاءت لتمكر به ؟
منذ متى ؟

انه لا يذكر . فقد يكون من العام الماضي ، وقد يكون منذ
أيام . فالدهاية أكبر من أن تحتمل ، وهو لا يستطيع أن يتصور
أنه وهو في قمة نجاحه — نجاح فحولته بطبيعة الحال — ينزل
القدر عليه بضربته القاصمة . لم ينزل بهامة واحدة حتى لكانما

هذا عطف لا يعترف به ، وانما نزل شيئا شيئا وفي تقسيط للعذاب مع مخيلة بإمكان الشفاء .

ولا يزال الى هذه الساعة يتعذب ، ولا يزال يطمع في البرء أو في العنقوان حتى لا يقال عنه غدا أو اليوم : انه .. انه لم يعد يقدر على امرأه !

ومتى يأتيه العقم الكامل ؟

— دعونا من الغناء اليوم .. فالأمير مريض وقد سمعته الساعة يقول قد اشتمل ديوانى على مائة ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالا منى .

وكان صادقا فيما يقول ؛ فان عمه الموفق يعاني داء الفيل بعد أن ظن أنه النقرس ، وقد اشتد عليه في رحلته الى واسط حتى أفزعه الى بغداد . وفي يوم الاثنين الماضى دخل داره ، ولم يبرح فراشه قط . وعلى الرغم من أن كثيرين من الحضور كانوا يكرهون الموفق لحزمه وشدته فانهم آثروا السكوت . وقد انسحبت الجوارى كأنما شعرن بأنه لا مكان لهن في هذا الجو ، ولم يبق الا الخصيان ينتظرون ما يؤمرون به ، وان هى الا لحظات حتى قال ابن المعتز :

— من بالباب من الشعراء ؟

قال القهرمان :

— أبو عبادة وابن بسام و ..

فقاطعه ابن المعتز :

— أبعد البحترى شاعر أيها المأفون .. علينا به !

ولم يقدر للشاعر أن يدخل ، اذ دوى في الفناء فجأة صوت
نذير في صورة فارس جاء من قبل أبي العباس أحمد بن الموفق
يقول :

— لقد مات أبو أحمد .. رحمه الله !

وكان اليوم هو الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة ٢٧٨ من
الهجرة ^(١) ، وفي اليوم التالي جلس للناس ابن المعتز مع
أبي العباس لتقبل العزاء .

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٦ ، ١٥٨

الفصل التاسع حسرة

انتهى ابن المعتز بعد ذلك الى الاقتناع بأن ما يحسن عمله
انما هو الكتابة ومحاسبة أبى الصقر اسماعيل بن بلبل قهرمان
الموفق وصهره ثم وزير المعتمد بعد موته (١) . وشرع يخطط
بالقلم على الكاغد دون أن يسجل شيئا واضحا ، اذ شغله أمر
جديد هو أن أمير المؤمنين لم يعد يوليه أى اهتمام ؛ فقد أغلق
قصره الحسنى عليه وعلى جواريه ولهوه وكأنما خشى أن يشاركه
هذا الأمير الرجيم فيفشى سره .
لكن ماذا يكون ابن بلبل ؟

(١) تروى الروايات أن الموفق مكنه من بيوت المال فأسرف
فيها ، وظلم الناس مطالبا اياهم بخراج سنة مبهمه ، ولما رفع نسبه
الى بنى شيبان وذكرهم ابن المعتز فى مجالسه تكلم هو فى حقه
عند الموفق ثم عمل على انقاص ماله والتضييق عليه . وكان
قد اتخذ عيسى بن الفاسى كاتبه برغم وجود على بن محمد بن الفرات
وأخيه أحمد على رأس المتقدمين من كتاب العصر - راجع ابن الأبار
فى أعتاب الكتاب ١٧٠ ، ١٨٠ (ط . مجمع اللغة العربية بدمشق
سنة ١٩٦١) .

وماذا يكون كل ما يكتب وهو لا يجد الفرصة للانطلاق من
شبح الخوف الذى يتهده ؟

خوف غامض ، مدمر ، يدفعه دائما الى أن يتجاوز بنظره
الساعة الراهنة الى المستقبل الذى تتعلق به حياته !
لقد شاخ مبكرا ، وعليه أن يقدر ويوازن ويدبر . وليس ينفع
والحال تلك أن يركن الى الهزيمة وهى تصل صليلا لا ينقطع
حواله . هذا الصليل يكبل ساقيه حتى ليجعله أسيرا عاجزا وهو
الذى عاش أعوامه السابقة طليق القدم ، طليق القلب ، طليق
الضمير . يمضى كالنحلة متنقلا بين النساء يجتنى لذتهن فى أية
أرض وفى أى وقت ، مرتفعا الى عليين حيناً وهابطا الى الدرك
الأسفل حيناً آخر .

ألا ما أكثر اللحظات التى يتمنى فيها كل انسان أن يكون
ابن المعتز أكثر مما يتمنى أن يكون الخليفة نفسه أو وزيره
أو ابن جرير الطبرى عالم عصره ! على أننا مهما هفونا له ونحن
نقلب صفحاته حتى تلك اللحظة من حياته ثم حسدناه — وقديما
كان فى الناس الحسد — فائنا لا نكاد نصل الى موت الموفق
أو الى ما بعد موته بقليل حتى نحس نحوه بالرثاء .

ومن حسن الحظ أنه يشفيينا بسرعة من هذا الرثاء وكأنه
لا يستحقه ، أو كأنه يرفضه ولا يريده ، فلقد وجد مخرجا ولو
الى حين . اذ هرع الى عمه الآخر أبى عيسى بن المتوكل ، ووافق
محضره هوام لما كان يدور فى مجالسه من نغم وعلم وأدب

وشراب . ومن ناحية أخرى أنشأ يجرب الطريق غير السوى للرجل الكامل .

كان عنيدا حيث لا يجدى العناد ، ولو اعترف بالقصور وسلم به لتغير كل شيء . ولسنا ندرى كيف لم يعرف أن تهتكه الطويل الذى أقيم على حواسه الشابة العارمة ، كان يجب أن ينتهى بوهن هذه الحواس فتكف شعلة الحياة عن الالتقاذ أو تكاد ؟ أجل كيف غاب عنه أن الخط البيانى لرجل مثله يهبط دائما كلما تقدمت به الأيام ؟

لقد أصبح واحدا من الذين بددوا امكانيات المرء الذى توصله الى الخمسين ولا تقول الستين ، وأمامه أبو الصقر بن بلبل — يا للعجب — أكبر منه سنا ولكنه يمشى بقسط . يأكل كثيرا ويفعل كل ما يكبح نفسه ليدخر على الدوام حيويته ! وحتى حينما تبرد دماء مثل هذا الرجل بحكم السن ، فسوف يتسنى له أن ينهض الى عمل آخر يعوض فيه اتزانته كل ضمور يصيب غرائزه .

لقد كانت حياة ابن المعتز حفلا ثائرا ، لعله كان أشد حقول بغداد فى النيروز أو فى السعائين صخباً وتبذلاً . ولكن هذا الحفل انتهى قبل الأوان ، تماما كما ينتهى الشهاب الساقط من قبة السماء .

وتتراءى لعيوننا الظلال السود وهى تتجمع أمامه فى تناقل وتكاسل ، فيبدو ضائعا غريبا يحاول فى « الطرد » أن يجنى بعض ما كان يجنى مثله فى « القنص » الآخر الذى طالما عرف به . وحتى

في هذا الميدان كانت انتصاراته هزيلة ضئيلة ، بل تكثر مرات
 الاخفاق التي يسجلها له تاريخه . ويضاعف ألمه ارتباط اسمه
 فجأة بـ غلام اسمه نشوان ، يروي الرواة أنه احتل في قلبه مكانة
 شرير أو نشر . ثم يطالعنا هذا التاريخ في الوقت نفسه بمتاعب
 تتعلق بطلبات العطاء مع ردود قاسية تأتيه من أبي الصقر وابن
 الفرات ، وتقل زيارته لقصور العظماء حتى لكان الناس شاركوا
 المعتمد في التنكر له .

وفجأة يضطر الى أن يتسلل هاربا من بغداد متواريا بالظلام
 الكثيف لسبب مجهول ، وان يكن ثمة من يزعم أنه اتصل بأحد
 ثوار الزنج مستشيرا في علاجه فلهج به أتراك القصر . وفي
 سر من رأى وجد كارثة في انتظاره ، إذ أن أخاه استولى على داره
 وبنى بها ، فأخرج منها مطاردا أو كالمطارد حتى قبل أن يلج بقبر
 أبيه ، وكان هذا قد تهدم فيما تهدم من عمران المدينة ^(١) وقضى
 في البصرة أربعين يوما هائما بين بيت صديق ومساجدها التي كانت
 لا تزال عامرة بطلاب العلم والشعر والكلام . وما ان حل بواسط
 حتى سلمته سلطاتها كتابا بخلع جعفر المفض من ولاية العهد
 — وكان المعتمد مريضا — واحلال أبي العباس أحمد بن الموفق

(١) يروي ياقوت في معجم البلدان ٥ : ١٧ ط . مصر
 سنة ١٩٠٦ أنه أنشد :

قد أفقرت سر من را	ومما لشيء دوام
فالنقص يحمل منها	كانهـا آجام
ماتت كما مات فيل	تسل منه العظام

محلّه (١) . ولم يكن في الكوفة بأحسن حالا على الرغم من استشهاده الأمان بولاية صديقه أبى القاسم عبيد الله بن سليمان أبى وهب الوزارة بعد الايقاع بابن بلبل ، وكان قد تصرم من العام التالى نصفه عندما استدعى الى بغداد فلم يكد يصل اليها حتى قبض عليه الأتراك ، وسمع منهم أن الخليفة مات بداء بطنه (٢) .

وبعد أن أخذ أبو القاسم البيعة بالخلافة لأبى العباس أحمد أطلقه معتذرا له ، وخلع عليه ، غير أنه لم يكد يدخل بيته حتى يرى فيه معالم الخراب بادية . فكل شئ محطم ، وماء دجلة قد تسرب الى أفنائه وهاجمت الأرضة دفاتره التى كان يعتز بها فأكلتها ، وهنا أنشأ يقول :

لم أبلك ربعا مقفراً ولا طلل
ولا شبابا حان منه مرتحل
ولا حببياً قطع الوصل ومل
لكن لعظم حادث بى قد نزل

(١) ورد فى اعتاب الكتاب ١٧٥ لما تقلد أبو العباس أحمد ولاية العهد يوم الأربعاء لثمان بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين أقر أبا الصقر اسماعيل بن بلبل على ما كان عليه من الوزارة والتدبير الى يوم الاثنين بعد ، ثم قبض عليه وعلى أبنائه وحاشيته وانتهبت منازلهم ، وطلب ابن الفرات فاستتر . وبعث الى أبى القاسم عبيد الله بن سليمان يأمره بالبكور الى القصر ، وبكر من الغد اليه فخلع عليه ، وانصرف وبين يديه جميع القواد والفلمان .

(٢) كان ذلك كما يقول الطبرى ٨ : ١٦٤ لاحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

كنت امرءاً من الأنام معتزل
على ستر دون دمي منسدل
على الذى يملك رزقى متكل
لا راجياً لعطفه من الدول
ولا أخاف أجلاً على أمل

وراحت عيناه تبعثان بأدمع حارة ، وأصابعه الراحشة تقلب
فى الأوراق المبعثرة . وعندما دق عليه الباب جاره ابن البصرى
وكان فى صحبته جاره الآخر اسماعيل بن اسحاق القاضى ، تماسك
وأقبل نحوهما يرحب بهما وهو يسألهما عن الأصحاب والرفاق .
وأخبره القاضى أن المبرد وقد علم بأمر حبسه استصحب أبا بكر
الصولى الشطرنجى الى القاسم وكلمه فى الأمر والانصاف .
ولم يطل بقاءهما ؛ فقد أحسا أن الأمير المنكوب يحاول أن
يخلو الى نفسه . ولما خرجا ، عاد الى ما كان فيه ، ممسكاً بقلمه
ليكتب :

شغلى اذا ما كان للناس شغل
دفتر فقه أو حديث أو غزل
لا عابنى ولا رأى منى زلل
وان مللت قربه منى اعتزل

وابتسم .. أترى كذلك كان أم كذلك يريد أن يكون ؟ انه
لا ينكر أنه كان يلهو ، ولكن المؤكد أنه كان يقرأ كثيراً ، ويكتب
كثيراً . أليس هذا الكتاب « فصول التماثيل » الذى رعت فيه
الأرضة وتلفع بالماء والطين برهان جده ؟ والكتاب الآخر الذى

خصصه للسرقات وأضحى مزقا ، أليس دليلا آخر على جده المنكور ؟ والثالث والرابع ثم الكتب الأخرى التى يقتنيها ، ألا تقدم الجانب الرزين الذى يكمل صورته الحقيقية ؟ وعادت عيناه تدمعان ، ولكنه ما لبث أن كفكف دموعه . فلقد تذكر نشوان فجأة ؛ فراح يكتب له وهو لا يدري من يقوم بحمل رسالته ، وكان احساسه اذ ذاك احساس من عثر على ضالته ، بعد طول بحث وتنقيب ، وسجل فيما سجل قوله « .. انى لآسف على كل يوم فارغ منك وكل لحظة لا تؤنسها رؤيتك » وسقيا لدهر كان موسوما بالاجتماع معك معمورا بلقائك ، جمع الله شمل سرورى بك وعمر بلقائى بالنظر اليك » . ووقعه ، ثم .. ثم أحس بغضة ومهانة ، الى هذا يكون انحداره ؟ وهل يتسنى له بعْدُ أن يصور نفسه كما صورها قبل فارسا غزلا ظريفا خفيفا ؟ لقد انتهت الأيام التى كان يجعل فيها آية سيدة تصله ، وصار لزاما عليه اليوم اما أن يهجره النساء واما أن يشتري رضاءهن بشعره ، وكلا الشئين بغيض بغيض !

الفصل العاشر أيام النخزي الأخيرة

تلك الأحداث الأخيرة لا نجد كلمة واحدة عنها في كتابات ابن المعتز ، ولا يحدث أصحابه فيها الا من خلال أشعار لا ندرى متى كان يقولها ! ولكنه يحرص على أن يتوسل الى المعتضد ، وقد كان معجبا به ويخاف بأسه في ذات الوقت ، وفي أول مناسبة هياها له أبو القاسم الوزير ، تقدم بقصيدة يمدحه فيها ويتزلف اليه ، حتى ليقول (١) :

يا أمير المؤمنين المرجى قد أقر الله فيك العيونا
ودعينا نحو بيعة حق فسعينا نحوها مسرعينا
قر في كفسك خاتم ملك لك صاغته الخلافة حينا

ويمكن أن نسمى هذه الفترة من حياته بأيام التوجس

(١) يرى عبد العزيز سيد الأهل في كتابه عبد الله بن المعتز ص ١١٣ أنه هنا بقصيدته التي يقول فيها :

أما ترى ملك بني هاشم عاد عزيزا بعد ما ذللا
ومطلعها فيما ورد في ديوانه وفي أوراق الصولى :
يا راميسا لم يخط لى مقتلا خد من فؤادى سهمك الأول

والقلق ، وفيها لا يقر نفسه بأنه صار مأجورا وقد انحط الى ما يناقض مستوى صدر أيامه .

ويقضى شهورا قارئاً باحثاً ، وقد ترهل بعض الشيء وزالت عنه أناقته . ثم هو يحاول أن يتصل بأصدقائه القدماء ، ويرد على مكاتبات البعيدين منهم ولا سيما على ابن مهدي الكسروي الذي ارتحل الى أصبهان . ومن ناحية أخرى عمل على أن يتقرب من أصدقاء المعتضد وبخاصة الصولي الشطرنجي ومؤنس الخادم وأحمد بن حمدون خال ابن بسام الشاعر الذي لم يسلم أحد من لسانه (١) .

وكانت بنت الكراعة هي المرأة الوحيدة التي دأبت على التردد عليه ويجفوها ، في حين لم تسأل عنه شريعة الا بعد أن أرسل اليها يقول :

صدت شرير فلم تكلمني كم ذا التجنى على المحب كم
تعاونت في دمي محاسنها لكن خذوا سحر عينها بدمي
دعت خلايلها ذوائبها فجئن من رأسها الى القدم
ومن قبل التمس دارها التي أثثها لها ، وهياً لها فيها كل أسباب
الاستقرار ، وقد سجل زيارته لها في بيتين رقيقين هما :

(١) يروي أن أباه أبتنى لنفسه دارا فقال يهجو :

شدت دارا خلقتها مكرمة سلط الله عليها الغرقا
وأرانيك صريعا وسطها وأرائنيها صعيدا زلقا

هاتيك دار شرير لا يغيرها
كرّ الخطوب وطول العهد والقدم
تخرج الدهر لا يمحو معالمها

وان تغنى بها الارواح والديم

وكان هو يعلم عبث مثل هاتيك المحاولات سلفا ، ويرى أن
تسقط السمع عنها لا يزيده الا عذايا ، وانما حسبه أن يرتاد
حانات بغداد يرقب الشاربين ويشرب معهم كى يكتب فى المساء
ما يريد أن يكتب ، ولينسى ما يريد أن ينساه .

وأما نشوان فقد أعاد اليه بعض ما كان يرجوه ، واستطاع
بصوته وغنائه أن يخفف من آلامه شيئا . ولما جدر جزع عليه
جزعا شديدا ، وتحدث لصديقه جعفر بن قدامة بهواجسه ،
فكان هذا يطمئنه على سلامته . فلما عوفى — دون أن يؤثر
الجدرى فى وجهه أثرا — لم تكد الدنيا تسع غبطته حتى أرسل
لجعفر يقول له « قد عوفى نشوان بعدك وخرج أحسن مما كان » .
وقدم جعفر يشاركه سروره ، فأخبره بأنه تعهده بالعلاج
الدقيق ، وقال فى برئه بيتين تطوعت زرياب بالغناء فيهما رملا
ظريفا :

لى قبر جدر لما استوى فزاده حسنا فزادت هموم
أظنه غنى لشمس الضحى فنقطته طربا بالنجوم
وقد راح ينشد شعره ذاك انشادا حسنا ، وكان صوته
لا يزال عميقا آسرا . فلما فرغ ، هتف جعفر صائحا وقد ملكه
الاعجاب :

— أحسنت والله أيها الأمير !

ولكن ابن المعتز يهز رأسه بعنف ، ثم يقول :

— لو سمعته من زرياب لكنت أشد استحسانا له !

وأشار ، فخرجت زرياب فغنت في الرمل أحسن غناء ، ثم راحا يشربان عليه عامة يومهما (١) .

ويمكن أن نقول ان هذا الأمير — على الرغم من انحداره — سيظل حتى نهاية سنواته اللاهية المتهتك وان اختلف اللهو والتهتك . لكنه فيما يظهر فقد في أعماقه تلك الثقة الظافرة التي يستمدّها المرء عادة من حرارة الشباب . ولأول مرة يحس بأنه أصبح هو الطالب وقد كان مطلوبا ، وبأنه يريد فعلا أن يوطد علاقاته بمن حوله .

فإذا استخلف مؤنس الخادم على شرطة بغداد محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يرسل له مستصوبا رأيته ومؤيدا اياه ، ويهنيء عبيد الله بشعره من ناحية أخرى . ويعمل على أن يستزيه محمد ، وحين يرى أنه لم يزره الا مرة واحدة يكتب اليه يقول :

قد جئتنا مرة ولم تعد ولم تزر بعدها ولم تعد
واذا قدم الحسين بن عبد الله بن الجصاص الجوهري رسولا
من خمارويه الى المعتضد ، يرحب به أيما ترحيب ويفتح له بيته
حتى ليثير حوله القيل والقال ويلهج به ابن بسام في مجالسه .

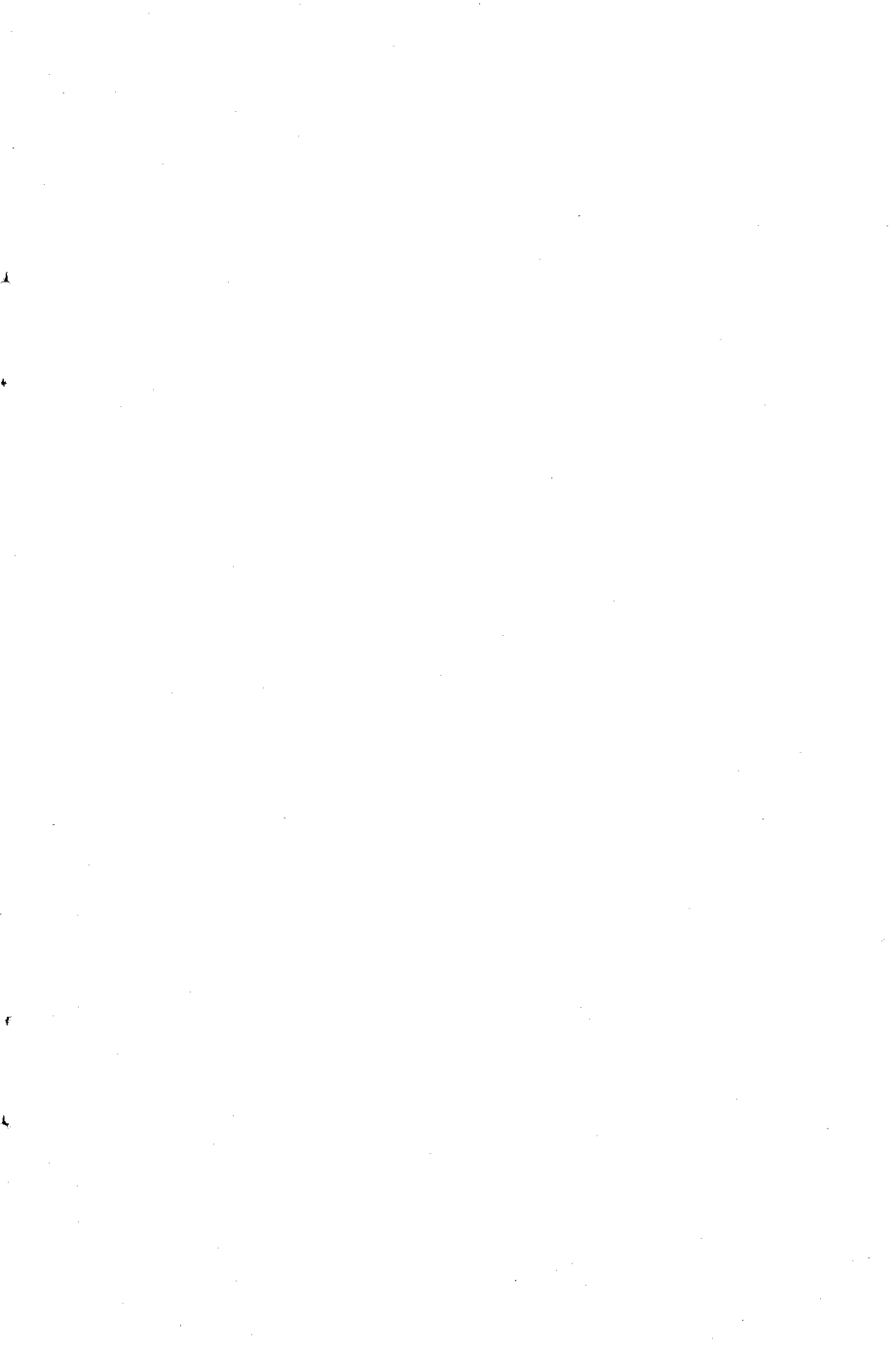
ولا تأتيه رسالة من الكسرى — وقد كان على علاقة طيبة
ببدر خادم المعتضد — فيرسل له من شعره قائلا :

وما نازح بالصين أدنى محله
يقصر عنه كل ماش وطائر
محا اليأس منه كل ذكر فلم تكذب
تصوره للقلب أيدي الخواطر
بأبعد عندي من أناس وان دنوا
وما البعد الا مثل طول التهاجر
ويشغل عني القصف والراح بعضهم
مباركها أو ممسـيا كمبارك
إذا طار بين العود والنأي طيره

فليس لـاخيوان الصفاء بذاكر

أجل أصبح طالبا ، والطلعة التي كانت فتنة بغداد وسر من رأى
صار شغلها شاغل اليوم أن تكتب وتراسل وتصافح من
يرى في قربهم نفعا ، الى أن سئمت عامة القلوب من مسلكه .
ونعلم في آخر الأمر أنه عاهد المعتضد على أن يكون يده على
الأعداء ، كما أن هناك ما يدل على أن هذا الخليفة طلب إليه أن
يكون أكثر اتزاناً وصبراً وعملاً على توطيد ملك بنى العباس .

الباب الثاني
رجل العلم والتياسه



الفصل الأول طبقات الشعراء

ابن المعتز الآن في الثالثة والثلاثين ، والسنة ثمانون ومائتان
وقد مات المخلوع جعفر بن المعتمد الذي لقب يوما بالمفوض .
فتصور أنه اقترب من عرش أبيه خطوة ، مع أنه كان للمعتضد
ابن اسمه على أبو محمد وولد سنة أربع وستين ومائتين (١) .

وكان أبا القاسم كان يعرف ما يدور بخلده ، فتحايل عليه
بالصبر والحزم خشية أن تحدثه نفسه بشر لا يرضاه له لأنه يحبه .
وقد استطاع حتى سنة ٢٨٨ — أى الى أن مات — أن يمسك
بزمameه ويكبحه وينظم أموره على نحو مرض كما نظم أمور
الدولة تماما . وبوجوده في منصب الوزارة خرج ابن المعتز الى
النور مرة أخرى ، وأمسى يذكرنا بعض الشيء بالأمير الرقيم .
ومن ورائه الوزير الطيب يدافع عنه كثيرا ، ويضطر هو الى
الاعتراف بفضله ويشيد به وبابنه القاسم — على غلظته —
بشعر فخم .

(١) العقد الفريد ٥ : ١٢٦ (ط . لجنة التأليف والترجمة
والنشر سنة ١٩٤٦)

ومن المؤكد أن ابن المعتز كان يشغل بغداد إذ ذاك بضرب جديد من الحياة ، ففي حين كان رجال البلاط — وهم بدر المعتضدى ونصر القشورى ومؤنس الخادم وخفيف السمرقندى وصالح الأمين وموسى بن بغا وسوسن التركى — يحصون عليه خطواته متوجسين وهو فى صحبة أمير المؤمنين غازيا حينا (١) أو منادما حينا آخر ، يكون هو خلصة مشغولا بالخمير والغناء وظاهرا بالتأليف والانشاء . وقد أشاع فى صحبه ، وأخبر أساتذته الذين كان معظمهم على قيد الحياة كالدمشقى والبلاذرى والمبرد وثعلب أنه يريد أن يخالفهم فى تعصبهم للقديم وفى أن يكون كالناس اهتماما بأشعار المحدثين وأخبارهم فيضع كتابا فى ذلك لم يسبقه الى مثله — على نحو ما — سوى ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ باسم « الشعر والشعراء » (٢) .

(١) فى سنة ٢٨١ خرج معه الى ماردين ، وذكر فى شعره أنه اشترك فى أكثر من معركة ، ومما قاله فأعجب به النقاد :
وجررت الجيش أسحبه لعدو كان من شأنى
ومثله قوله الذى يدل على تيه كبير :

أنا جيش اذا غدت وحيدا ووحيد فى الجحفل الجرار
(٢) هذا هو الشائع وأما « طبقات فحول الشعراء » الذى وضعه ابن سلام قبله فمقصود على القديم تماما ككتابى أبى عبيدة معمر بن المثنى ودعبل فى الشعر والشعراء . ولكن الأخبار تؤكد أن أبا دعامة العيسى وضع كتابا تحدث فيه عن المحدثين على ما يروى ياقوت ، وكذلك فعل كل من أحمد بن أبى طاهر الذى مات سنة ٢٨٠ ويحيى بن على آل المنجم ومحمد بن داود الجراح .

وفي الوقت نفسه كان يعيد نسخ كتابيه المشهورين « فصول التماثيل » الذي أكلته الأرضة وكتاب « البديع » الذي كان قد انتهى منه منذ خمس سنوات أو ست تقريبا ولم يقرأه لأحد .
وعندما سمع بالنبا أبو بكر محمد بن يحيى الصولى خف اليه تاركا الشطرنج الذى برع فيه ، فوجده عاكفا على أوراقه وقد أعاد اصلاح داره ومكتبته ، ومد الستور المعصفرة على الأبواب والنوافذ وفرش الأرض بالبسط المزركشة . فلم يفته ذلك ، وقال بعد أن استقر فى مقعده :

— لعل الأمير اليوم فى خير حال هادىء البال .

فقال ابن المعتز مبادرا :

— الفضل لله تعالى وللإمام ووزيره الهمام .

قال الصولى كالمترلف عارضا للوزير وهو يعلم مكاتته

عنده :

— والله لقد شغل نفسه بأخلاق الملكة والنظر فى العلوفة

والحطيطة من أرزاق الناس وقد وردوا فيما يعلم الله على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد .

فقال ابن المعتز :

— هذا عمله ، يعرف طساييح السواد وأيها أجل ، وكم

رستاقا فى كل طسوج ، وماذا فى بيت مال الخاصة وبيت مال العامة ، وهو بعد يستعين بابنى الفرات أبى العباس أحمد بن محمد وأبى الحسن على أخيه .

قال أبو بكر الصولى :

— والله لا أدري ماذا أقول ؟ فهو وان يكن رجل سياسة ودهاء فانه بعيد العهد بالعمل ، ولعلك مخبره بوجوه الأموال وضمان السقى وعندك من علم ذاك ما يحتاج اليهما فيه فيقدر على الضبط ويمنع الأيدي من الظلم .

وأطرق ابن المعتز قليلا وقد توجس ، فهل لذلك أتى هذا الرجل ؟ أفيريد أن يجتمع عليه ليفسد بينه وبين الامام ؟ لماذا ؟ أم هو حقا يعرف عنده وجهها يقدر على أن يعين به ؟ ومع ذلك فلم يكن بالذى يريد أن يظهر مهتما بشيء من هذا ، ومن ثم قال له فى أنفة كالمستائل :

— وابنه القاسم .. ألا يشتغل له ؟ انه والله ما يجب اضاءة

مثله !

أجاب الصولى :

— بل استكتبه لبدر المعتضدى فمنع أهل سقى الفرات من مواطأة العمال والمهندسين على ظلمهم وكتمان ما عندهم . انه أكثر القوم تصحيحا للمال على ما تقرر من أوقاته مستقبلا به فى المياومة يومه وفى المشاهرة غده .

قال ابن المعتز :

— نعم الرجل يا أبا بكر ، وان يكن الحديث عنه فيما أرى هذه الساعة كالحديث عن أصحاب الدواوين ومشايخ العلماء وقضاة الحضرة لا يغنى فيما أنا فيه !

وكانما هياً الأمير للصولى ما يريد أو فوق ما يريد ، فانبرى

صائحا :

— وفيم أنت أعزك الله أيها الأمير ؟

أجاب ابن المعتز :

— كتاب في طبقات الشعراء الذين مدحوا الخلفاء والوزراء
والأمراء من بنى العباس ليكون مذكورا عند الناس (١) .

قال الصولي متسائلا :

— كلهم ؟

أجاب :

— سوى من تخطئني اياه ذاكرتى ، وأما غيرهم فمذكورون
ان شاء الله من سفلى منهم ومن ارتفع منذ ابتدأت دولتنا والى
اليوم ، حتى لأذكر من شعراء يومنا الشيرازى محمد بن
عروس (٢) .

وعاد الصولى يقول :

(١) فى ديوان أبى نواس رواية حمزة الأصفهاني صفحة ١٠ ط . اسكندر آصاف بالقاهرة سنة ١٨٩٨ فقرة صغيرة نقلها
من هذا الكتاب وان يكن سماه « الاختيار من شعر المحدثين » ولم
يفعل ذلك سواء . وللكتاب مختصر صنعه أبو البركات المبارك
ابن أحمد الاربلى المتوفى سنة ٦٣٧ بداه بقوله « هذه أوراق أتيت
فيها بما اخترته من كتاب طبقات الشعراء لأبى العباس عبد الله
بن المعتز » .

(٢) فى فوات الوفيات وتاريخ بغداد أنه مات سنة ٢٨٠ وهذا فى
حد ذاته دليل على أن ابن المعتز شرع عام ٢٨٠ فى تأليف كتاب
الطبقات ، مع أن بعض الباحثين على ما سجل الأستاذ عبد الستار
أحمد فراج يرون غير ذلك . وجاء خبر هذا الشاعر قبل أخبار
الجوارى الشواعر فى نهاية الكتاب (راجع صفحة ٤١٩ من الكتاب
الذى طبعته فى سلسلة الذخائر دار المعارف) .

— والبحتى ؟

قال ابن المعتز :

— بدأت يا أبا بكر بآبن هرة وسأتهى بالشيرازى وبينهما
الطائيان ولعلك جئتى لواحد منهما .

وفرك الصولى كفيه وقد داخله شىء من الاطمئنان ، ذلك
أنه كان قد ترامى اليه أن الأمير يتحامل على أبى تمام وينكر
فضله وهو — أى الصولى — من محبيه ويخشى لو أنه غمط
حقه أو تعرض له بغير ما يحتشد له فى كتابه الذى يزعم اخراجه
عنه قريبا . ولما سمع ما سمع لم يعد لديه أدنى شك فى حسن نية
الأمير ، غير أنه لم يكن يرضيه أن يكشف عن دخيلته على ذلك
النحو ومن ثم عاد الى دورانه من جديد مستمسكا بما يعرف عن
علاقات الأمير بسائر شعراء عصره فقال :

— ولعلك ذاكر ابن بسام وابن الرومى ، فكلاهما شاعر
مجيد .

وبوغت ابن المعتز ، غير أنه تماسك ثم قال بهدوء وترفع :

— لست أدري بم تسفر عنه الأيام يا أبا بكر ؟ غير أنى
أحس أن الأول متقطع الأنفاس مع فصاحته وكثيرا ما تبجح
بشعر ينحله الثانى خشية وتقية ، ألا تذكر ؟ والثانى شعوبى
لنيم هتك أبى ولعنه وهو ميت ، فماذا تريدنى أقول ، والنفس
بالسوء أمارة وقؤول ؟ والله لمصعب الموسوس عندى أو جحشويه

أبرّ منهما وأخلق بالذكر ، وقد جمعت أخبارهما في ورقاتي
وسجلت شعرهما وفيه كما يجب أن تعلم جيد كثير (١) .

قال الصولي :

— ولو علم بنيتك أحمد بن حمدون خال ابن بسام وهو
نديم الامام لنقض عليك وكاد لك ، وهذا ما أريد أن تنجو
منه . ووالله لو كان في هذه المسألة مجال للتخير لكان الواجب
الأخذ بالأفضل وترك الصغار مما لا يلحق بك ضررا ، وحتى اذا
رد أمر الناس الى اعتماد أفعال السلف لقلت انظر ماذا كان عمك
العباس أو عليّ الامام يفعل في مثل موضعك فافعل مثله
والصفح من شيم الكرام .

وهنا قال ابن المعتز وقد ساءه كلام الصولي بعض السوء :
— حسبك أبا بكر فاني لو نظرت هذه النظرة لكنت في غير
هذا المقام ، وانما أنت ذكرت حاجة لا فصلها الله بالنجاح ولا يسر
بابها لانفتاح !

قال الصولي :

— الأمر لك أيها الأمير وما جئت والله لهذا وكان خيرا منه
لو تذاكرنا الشعر والأدب الا اذا رأيت أن أبرح الآن لأتركك الى
كتابك الجديد .

(١) ورد ذكر مصعب في صفحة ٣٨٦ من الكتاب المطبوع وفيه
نفي عن ابن بسام بعض أبيات يرى أن مصعبا قائلها ، وأما جحشويه
فذكر في صفحة ٣٨٨ وذكر أنه كان من ألوط الناس مع أنه ينسب
نفسه الى البغاء .

ونهض ابن المعتز يأمر بالشراب ، ثم عاد حتى اقترب من الصولى واضعا يده على كتفه وهو يقول :

— سأظفرك اليوم أبا بكر بما يمكن أن تضيفه الى أوراقك .
فلقد جاءنى أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فاحتبسته ، فأقام عندى فجرى ذكر أبى تمام فلم يوفه حقه . وكان فى المجلس — اكتب يا رجل — رجل من الكتاب نعمانى ما رأيت أحدا أحفظ لشعر الطائي منه فقال له « يا أبا العباس ضع فى نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر ، أيعحسن أن يقول مثل ما قاله أبو تمام لأبى المغيث موسى بن ابراهيم الراققى يعتذر اليه :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى

ومحت كما محت وشائع من برد

وأنجدتم من بعد اتهام داركم

فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

ثم مر فيها حتى بلغ الى قوله فى الاعتذار :

أتانى مع الركبان ظن ظننته

لففت له رأسى حياء من المجد

لقد نكب الغدر الوفاء بساحتى

اذن ، وسرحت الذم فى مسرح الحمد

ججلت اذن كم من يد لك شاكلت

يد القرب أعدت مستهما على البعد

ومن زمن ألبستني كآته

إذا ذكرت أيامه زمن الورد

وكيف وما أخلت بعدك بالحجي
وأنت فلم تخل بمكرمة بعدي
أسربل هجر القول من لو هجوته
أذن لهجاني عنه معروفة عندي
كريم متى أمدحه أمدحه والورى
معى ، ومتى ما لمته لمته وحدي
فان يك جرم عنه أو تك هفوة
على خطأ منى فعذرى على عمد

فقال أبو العباس محمد بن يزيد : ما سمعت أحسن من هذا
قط ، ما يهضم هذا الرجل حقه الا أحد رجلين ؛ اما جاهل بعلم
الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه .
وتوقف الأمير قليلا ناظرا فى صفحة أبى بكر بين يديه ، ثم
استطرد قائلا :

— وما أدري هل يموت وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله ،
مقر بفضل أبى تمام واحسانه . أما قوله « أسربل هجر القول .. »
فهو منقول من شعر حسن لا يفضل شعر (١) .
قال الصولى :

— الحق أنه كان يتصرف فيما يأخذ ، فهل ذكرت ذلك فى
أوراقك أعزك الله .

قال ابن المعتز وقد أخرج من بين الكاغد صفحة نشرها وراح
ينظر فيها :

(١) راجع اخبار أبى تمام للصولى ٢٠٢ وما بعدها .

— لو كنت استقصيت كل أخباره لما أوفيت على النهاية ، بل لو استقصيت ذكر أوائل قصائده الجياد التى هى عيون شعره لشغلنا قطعة ضخمة من كتابنا وان لم نذكر منها الا مصراعا ، لأن الرجل كثير الشعر جدا يقال ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة . وأكثر ما له جيد والردى الذى له انما هو شئ يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون فى شعره شئ يخلو من المعانى اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا . وقد أنصف البحرى لما سئل عنه وعن نفسه فقال « جيد خير من جيدى وردئى خير من ردئه » (١) لا تكتب هذا يا أبا بكر ، فعندى خير منه ان شئت جئتنى فى يوم آخر فحدثك به !

وانه ليقول ذلك ، اذا جعفر بن قدامة يدخل عليه وهو مقطب ويهمس فى أذنه بشئ ثم ينفلت ، فيهب بغتة وقد اتسعت حدقتاه وانقلبت سحنته . ثم يغادر داره شاقا طريقه مسرعا فوق الشوارع المتربة التى تقطعها البراذين والجمال والحمير والناس ، وبين البيوت المتراصة ذات القباب المرفوعة فوق العمد الدقيقة والزجاج الملون على دائر الأبواب والقمریات . ومن خلفه الصولى يحاول ألا يلحق به لأن البريق الذى رآه ينبعث من عينيه كان يخيفه الى حد بعيد .

فماذا حدث ؟

وبم أخبره هذا الصديق التعس ؟

(١) النص منقول بتمامه من طبقات الشعراء ٢٨٦ .

الفصل الثانى

الجامع فى الغناء

لقد تقدم ابن البقال المغنى يطلب شريفة .. ملهمته وحببته
والانسان الذى يظل يهفوا اليه برغم علتة التى جرب فيها
— ولا يزال يجرب — كل حيل الحكماء والمنجمين والسودان .
ان مجنون بنى عامر وقيس لبنى ومن قبلهما مضاض الجرهمى
والمرقش الأكبر لتهون عاطفتهم — فى نظره — اذا قورنوا به
فيما اعتراه . وهذا بالضبط هو موضوع المأساة الأبدية فى حياة
كل أديب لا يحتكم الى المنطق كى لا يضحى بأهم ما يربطه
بالحياة . حتى اذا انغمس فى غير ما يريد ، صار همه أن يخلع عليه
شحوبه وأساه وفجيئته .

أترى كتب عليه أن يشقى بهذا الضرب العنيف من الحرمان ؟
هو يريد ما ، وهى من غير شك تريده . ولكن ما أشبهه
بالحمل يريد أن يصرع السبع بضربة واحدة من حافره !

ولئن كان من الظلم أن يعلقها به بلا جدوى — وهى فى ذلك
تختلف عن بنت الكراعة التى تريد أن تملكه برغم كل شىء —
فمن الظلم أيضا أن تتركه هى الى واحد كابن البقال .. الفنان

البائس الذى لا يملك ربع ما يملكه هو من صنعة وبراعة وحذق !
لقد اجتمع معه عند عمه أبى عيسى بن المتوكل وناقشه ، كما
ناقشه عمه العجوز الفنان ، ولم يثبت لهما . بل ان عمه استطاع
أن يجمع له صنعة لا تقل عن ثلاثمائة صوت منها الجيد الصنعة
ومنها المتوسط ، ولم يؤثر عنه هو نصف هذا العدد .

فكيف أدار رأسها وأسرها ؟

أم هى الحظوظ شاءت أن يكون ابن البقال غريمه ، وهو
الذى كان غريم كل رجل ؟

ان هذا الأمير الذى شاء أن يطوى آلام قلبه يتحداه غر
ليكشف عنها ، وقد كان بوده أن يعيش الى النهاية مع علته تحرمه
كل شئ الا الذكرى واجترار لحظات الشهوة الماضية .
وكما ذهب الى دارها عاد وقد أدرك شيئا جديدا . ان الشاعر
والرجل ضدان !

الشاعر يملكه الخيال ويملك الخيال ، والرجل يعرف الطريق
الصحيح الى الهدف ، وكان ابن البقال فى هذه الفترة بالذات
قد اقترب من الهدف . وهكذا تتسع الهوة بينه وبين شريكه ،
وبينه وبين النساء بعامه ، ثم هكذا يمكن لأى انسان أن يتفوق
عليه .

ومن يدرى فلعل فى غد من ييزه فيما يجيد من فنون . ولعل
أن يكون ابن بسام واحدا من هؤلاء . ولعل النميرى الذى لعب
دورا فى هذه الكارثة — شاء أم لم يشأ — يقول فى يوم قادم :
— لقد نصحناه ولكنه شاء أن يتلغ الحياة .

مفارقة عجيبة !

السوقة والطفيليون ينجحون ويصلون ، وهو ومن في مثل حالته عاجزون الا عن الكلمة ، وعلى هذه أيضا تتصارع القوى . ولكن ..

ولكنه يستطيع أن يبهر شريرة وصاحبها قبل أن يعقدا عقدهما . وقد شرع من توه في استخراج أوراقه وجلس يكتب تاركا طبقات الشعراء جانبا الى حين . وكان من يراه في جلسته والقلم بين يديه والكاغد أمامه ليحس تلك المرارة التي تدفعه الى التدقيق والاحاطة بقوانين الموسيقى وتاريخ الألحان .

كان يكتب عن اللحن فينسبه الى صاحبه ، وكان يقدم فكرته هو مازجا بين الأنغام والأصوات في براعة وحذق . واعتاد بين الحين والحين أن يرجع الى كتاب صديقه الشاعر المفضل بن سلمة « العدد والملاهي » والى رسائل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وكتابات لقوم من بنى حمدون أقرباء ابن بسام .

ولقد كانت لديه صورة من كتاب بعث به الى ابن حمدون نفسه فرجع اليه ، ودعم ما به من رأى يقرر في جرأة أن من المستحسن أن يغيّر الانسان بعض النغم القديم ويعدل به الى ما يحسن في حلقه ومذهبه . ثم أضاف أن أى صوت يغنى بلحنين يجب أن يسقط أحدهما ، وفي الغالب يشهر الدون . ألم يلحن كل من اسحاق بن ابراهيم الموصلي والخليفة الواثق قول الاعرابي :

لقد بخلت حتى لو انى سألتها
قذى العين من سافى التراب لضنت

فشاع لحن الواثق على قصوره ، ولم يردد لحن اسحاق
الا العجائز أو من كثرت روايته ؟

ولم ينس هيئة السماع وأقسامه ، بل حرص على أن يبسط
كل ما أثار دهشة أصحابه من تاريخ ووصف للمجالس وارشادات
الى أدوات الطرب ولمحات عن عريب المأمونية والموصلين وأولاد
الخلفاء المغنين ومن لهم صنعة فى الأصوات .

كل ذلك وهو ييكنى ويشرب ، ويلعن ابن البقال ويتوسل
الى الضائع من شبابه . ثم يحدث فى ذلك الوقت — والمصائب
لا تأتى فرادى — أن يغضب عليه نشوان فى أثناء امتحان صوته
فيولى نافرا ، وعشا حاول هو أن يترضاه . وتطول الفرقة حتى
يأتى جعفر بن قدامة ، فلا يكاد يسأله عن كتابه حتى يقول :

— أى كتاب تعنى والأمر على ما ترى من سوء ؟ أفأظل مطلوبا
من الدهر دائما فى حاجة الى مال أو الى أمان أو الى ساعة رضى
من نشوان ؟

دبت فى الهجر والغضب	بأبى أنت قد تما
دك يوما من العجب	واضطبارى على صدو
هك فى العيش من أرب	ليس لى ان فقدت وج
ن على الصلح واحتسب	رحم الله من أعسا

فقال جعفر بن قدامة :

— ومن هو يا أميري فأعين على صلحه وأحتسب ؟

أجاب ابن المعتز :

— نشوان !

فلم يكن الا قليل حتى هب الى الغلام ، ولم يزل يداريه ويرفق به حتى ترضاه . فكم فرح الأمير ، وكم غنى وهو حسن الصوت جدا ، وكم راح يقرأ مما كتب حتى أقبلت هزار فغنت في ذلك الشعر رملا عجيبا (١) .

وفي مختم يومهم ينفض المجلس ، ولكن قبل أن يطوى الطريق ابن قدامة سأل :

— ولكن ما اسم الكتاب الذي أمتعتنا ببعض ما فيه أيها الأمير ؟

قال ابن المعتز :

— الجامع في الغناء .

ودخل الى حجرته وهو يرفع صوته بلحن هزار ، وانه ليعيد رسائله الى صندوقها يعثر برقعة من عبيد الله بن عبد الله وكان قد بعث بها اليه عقب قراءته رسالته لابن حمدون وفيها يقول :

« قرأت أيدك الله الرسالة الفاضلة البارعة الموفقة . فأنا والله أقرؤها الى آخرها ثم أعود الى أولها مبتهجا ، وأتأمل وأدعو مبتهلا وعين الله التي لا تنام عليك وعلى نعمه عندك ، فانها علم الله النعمة المعدومة المثل ، ولقد تمثلت وأنا أكرر نظري فيها قول القائل في سيدنا وابن سيدنا عبد الله بن العباس :

(١) الأغاني ١٠ : ٢٨١ ، ٢٨٢

كفى وشفى ما فى النفوس ولم يدع
لذى اربة فى القول جدا ولا هزلا

ولا والله ما رأيت جدا فى هزل ، ولا هزلا فى جد يشبه هذا
الكلام فى بلاغته وفصاحته وبيانه واناة برهانه وجزالة ألفاظه .
ولقد خيل الىّ ان لسان جدك العباس عليه السلام ينقسم على
أجزائه ، فلك أعزك الله نصفها والنصف الآخر مقسوم بين
أبى جعفر المنصور والمأمون رحمة الله عليهما . ولو أن هذه
الرسالة جبهت الابراهيمين — ابراهيم بن المهدي وابراهيم
الموصلى — وابنه اسحاق وهم مجتمعون لبهت منهم الناظر
وأخرس الناطق ، ولأقروا لك بالفضل فى السبق وظهور حجة
الصدق ، ثم كان قولك لهم فرقا بين الحق والباطل والخطأ
والصواب . ووالله ما تأخذ فى فن من الفنون الا برزت فيه تبرز
الجواد الرائع ، المغبر فى وجه كل حصان تابع . عضد الله الشرف
ببقائك ، وأحيا الأدب بحياتك ، وجمل الدنيا وأهلها بطول
عمرك » (١) .

الفصل الثالث

مزاحم جديد

وطلبه الامام على غير انتظار وفي وقت غير مناسب — فقد كان الشهر رمضان — فأعد له قصيدة وقصد الى قصر الحسنى على بغلته المظهمة ، فاذا جمهور الجند فى الميدان الصغير الذى فيه دار الأزج والأربعينى والمقاصير والسجون . وجلس المعتضد بوجهه الأسمر ولحيته الطويلة جلسة الأمان ومن حوله الأمراء وأبو القاسم وبدر وابنا الفرات والقضاة والقواد . ورأى من خلفه ابنه أبا محمد على ، أسمر مثله ولكنه ربعة عريض اللحية أسودها .

وحالما دخل أغلقت أبواب البستان فى الصحن وسعى القواد والغلمان جيئة وذهوبا ، فى حين جلس كتاب العطاء — ويعرف هو فيهم ابنى الجراح — أسفل لا يظهرن للخليفة اذا مد عينيه . وانحنى للامام وقبل أطراف أصابعه ثم قال بصوته العميق :

— السمع والطاعة لمولانا الامام .

فشد المعتضد قامته النخيلة ، وقال :

— خذ مكانك يا أبا العباس مع أمراء بيتنا ، فقد مَنَّ الله علينا بابن ثان سميته أبا الفضل جعفرا ^(١) ونريد أن نحتفل به ، واليوم والى أن نقرر نشترك فيما يخفف حرَّ العطش وعضة الجوع .

ولم يدر ابن المعتز كيف ذهب الى حيث أُعِدَّ مقعده ، فقد شغله المولود ذلك المزاحم الجديد . كذلك لم يدر بماذا أجاب عن سؤالات الأمراء ، الا أنه كان يشير لهم أن يشهدوا العرض حتى كأنه يريد ألا يشاركه أحد في أفكاره . وكان القائد قد تقدم ومعه جريدة بأسماء أصحابه وحساب أرزاقهم ، فأخذها عامل منه وصعد بها الى المعتضد فأخذها منه وسلمها الى وزيره فرفع صوته مناديا صاحب أول اسم فيها .

وانبرى على التوشاب لم يحاول ابن المعتز أن يتفرس فيه ، فتوسط الميدان على برجاسة ^(٢) ، ثم تتابع الرجال . وكانت العادة أن يمتحنوا فيما امتحن فيه الشاب الأول « فان كان الواحد منهم يرمى رميا جيدا وهو متمكن من نفسه ومستقر في سرجه ومصيب أو مقارب في رميه علَّم — أى الخليفة — على اسمه (ج) وهى علامة الجيد ، ومن كان دون ذلك علَّم على اسمه (ط) وهى علامة المتوسط ، ومن كان متخلفا لا يحسن أن يركب فرسه

(١) هو المقتدر الذى ولى العرش سنة ٢٩٥ وكان ولد لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٢ على ما يروى ابن عبد ربه (العقد الفريد ٥ : ١٢٧) .

(٢) فى الأصل البرجاص وهو نوع من السرج المشوة توضع على ظهور الدواب المقرونة المقودة بأرسنتها .

أو يرمى هدفه علكم على اسمه (د) وهى علامة الدون ، ثم يحمل بعض العرض والامتحان الى كتاب الجيش ليتأملوا حليته ويقابلوا بها ما عندهم من صفته لئلا يكون دخيلا أو بديلا ، فاذا تكامل عرض أصحاب القائد رفعت جريدته التى فيها العلامات بخط المعتضد بالله الى عبيد الله بن سليمان ليدفعها من وقتها الى الكاتب ، ويميز ما فيها من أرباب العلامات ويفرد لكل صنف منهم جريدة « (١) .

كان ابن المعتز يعلم ذلك ، ويعلم أن المتوسطين سيضمون الى بدر ليكونوا فى شحنة (٢) طريق خراسان والأنبار وراذان ودقوقا وخاينجار حيث يكونون عسكر الخدمة . وأما الدون فيأمر الوزير بأن يبعثوا الى أعمال الخراج ، للاستحثاث على حمل الأموال . والممتازون لهم الصدارة ، وقد يستخلصون لمواكب الخليفة أو ملازمة داره والدخول أوقات جلوسه والمقام بين يديه من أول النهار الى آخره .

شئ ممل حقا ..

ولكن هل يرضى المعتضد بأن يكون مصير ولديه كمصيره هو ومصير أخيه ؟

لا شأن للأمير المؤمنين بأصحاب الحقوق ، لأنه برغم ما يظهره من سطوة وبأس ضعيف أمام رجال البلاط . هل يقاومهم ؟ هؤلاء

(١) راجع هذا بالتفصيل فى « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » للصائى صفحة ١٣ ط . بيروت سنة ١٩٠٤
(٢) المقصود قوات الأمن فى الجهة .

بيض الوجوه أصحاب الأقبية البنفسجية وقلانس الخز ، ومنهم من ضيّع أباه وهو في ريعان الشباب . ألم يقتله صالح بن وصيف التركي بعد حكم لم يستمر أكثر من أربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوما (١) .

انه يحفظ التاريخ جيدا ، ولعل المعتضد يحفظه أيضا لأنه شئ ينبغي ألا ينسى .
وتغيّر المنظر ..

هذا هو الجيش الذى يرهب به الامام أعداءه ، وفيهم أصحاب النوبة من الرجالة ومن برسمهم من البوايين ، والممالك الناصرية والبغائية والمرزقة بزى الشرط . ثم أهل السجون — وفيهم البريء — يقاتلون عراة كما هم الآن يمرون ، وفي أوساطهم التباين والمآزر (٢) وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ وورقا من الخوص قد قيرت وحشيت بالرمل .

يا لأبهة الخلافة !

على كل عشرة جنود عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة ثقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . وهكذا ، وكل له درجته — وقد جعل الله الناس درجات — ليعرف الواحد ماذا يقول وكيف يتحرك ومتى تفتح الأبواب أو توصل في

(١) العقدة الفريدة ٥ : ١٢٤

(٢) التباين جمع تبان وهى سراويل صغيرة تستر العورة فقط ، والمآزر جمع مئزر وهو الملحفة .

وجهه . ويوم تطبق الوحدة عليه سيكى ما كان له ، الا اياه
فلن يجد ما يبكى عليه ، الا اذا كان القلب فى طاقته أن يحمل
الذكرى الحزينة حتى ساعة البكاء .

والموكب يتتابع وكل مخلوق فيه — حتى الحمير — له
رزقه المضمون وعلوفته وان اختلف الشهر طولا وقصرا . فهو
أحيانا تسعون يوما ، وأحيانا مائة وعشرون ، ولا يكون ثلاثين
يوما الا عند سبعة عشر صنفا من المرسومين بخدمة القصر
والرسائل الخاصة والقراء وأصحاب الأخبار والمؤذنين والمنجمين
والأنصار والشيعة (١) .

حتى الشيعة يطمئنون الى رزقهم .. هؤلاء الذين يخشاهم
المعتضد ويتظاهر بحبهم ، انه هو لا يكرههم ولكنه يكره طمعهم
فى عرش أبيه .. يعنى عرش عمه وأولاد عمه !

وبلغ ضجره مبلغه فراح — التماسا للتسلية — يدير فى ذهنه
الآيات التى أعدها للمعتضد . أترأه يضيف بيتا أو بيتين يهنئه
فيهما بالمولود أو بالمزاحم الجديد ؟ وماذا يقول وليس فى ذهنه
أى شئ يقال فى هذه المناسبة الا اذا كان يقصد به أن يسوء ؟
ولكن ما ينبغى هو أن لا يجعل لاعتبارات الخلافة بصدد ولاية
العهد أن تثيره هذه الاثارة ، وبذلك يعيش كما يعيش هؤلاء
الذين يمرون أمامه . ويرضى عنه رجال البلاط وخصيان القصر ،
وترضى عنه جوارى الخليفة بحيث يضمن له المال والعقار .

(١) راجع تحفة الأمراء ١٥

واذا نحن أردنا أن نلخص وجهة نظره التي كونها قبل أن يقوم للافطار على مائدة المعتضد لاخترنا من كلامه ما قاله :
الأماني تعمى الأبصار والبصائر ، والحظ يأتي من لا يأتيه ، وربما طاب وعاء حشوه المتالف ، وأشقى الناس جسم تعب ونفس خائفة ودين يتشلم . ولئن كان البحر كثير الماء ، انه لبعيد المهوى . ومن شارك السلطان في عز الدنيا قاربه في ذل الآخرة ، كما أن أقرب الأشياء الى النار أسرعها احتراقا (١) .

الفصل الرابع صريع الكأس

أصبحت الخمر ملاذه ، وعرف ذلك فيه الناس قاطبة . بل بدا
كما لو كان مسوقا وراء شيطانها لا تعنيه مجريات الأمور ؛
فاشتداد شوكة القرامطة ^(١) ومنع الناس عما كانوا يعملون في
النيروز الفارسي ^(٢) وزواج المعتضد بقطر الندى ابنة خمارويه
وما ترتب عليه من نزولها بدار صاعد بن مخلد ثم نقلها الى
الحسنى بعد اتخاذ اجراءات مشددة ^(٣) وموت كل من البحرى
(١) في تاريخ الطبرى ٨ : ١٥٩ أن بدء ظهورهم كان بالكوفة

سنة ٢٧٨

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٠ وكان الناس في هذا العيد يزینون
دورهم ويصبون الماء ويرفعون النيران ، ولقد اضطر ابن المعتز فيما
بعد أن ينشد في سماجة هذا الاحتفال أشعارا منها :
اشرب غداة النيروز صافية أيامها في السرور ساعات
قد ظهر الجن في النهار لنا منهم صفوف ودستبندات
تميل في رقصهم قدودهم كما تشتت في الريح سروات
وركب القبح فوق جسمهم وفي سماجاتهم سماحات
(٣) أغلقت أبواب الدروب المؤدية الى دار صاعد على دجلة ،
ومنع الناس من أن يفتحوا نوافذهم المطلة على تلك الدروب ،
وكانت قطر الندى قد أحدثت مساء في حراقة خاصة تحت حراسة
دقيقة . أما صاعد المذكور ، فقد وزر للمعتضد قبل أبى الصقر
اسماعيل بن بلبل .

وابن الرومى ^(١) فى الوقت الذى أبيع للناس فيه أن يهجو معاوية وآله ثم أمروا بالكف حتى لا يتناول العلوية .. نقول كل أولئك لم يكن ليصرفه عن الكأس والابريق ولا عن جمع صحبة الأشرار لمنادمته فى اباحة وفى هزء بأوضاع الجماعة .

بيد أن الجدير بالعجب فى هذا أنه كان يحرص على اتمام كتابيه الجامع والطبقات ، وكذلك راح يشغل نفسه باعادة تدبيح فصول التماثيل وتأليف غيره ، وكان ثمة أكثر من شىء فى هذه تربطه بأزمته المتشعبة .

ان ابن المعتز لا يريد أن يفرغ لأحزان حبه برغم ما اعتاد أن يلهج به كأن يقول :

قد جاءنا العيد يا معذبتى لا تجعليه همًا وأحزانًا
قومى فضحى بالهجر فيه لنا وصيريه يا شر قربانا
ولا يريد أيضا أن يعرف الاحساس المزعج بالمسئولية
— وكان قد أعلن رضاه بعبء يومى قدره ثلاثة وثلاثون ديناراً —
وكذلك لم يشأ أن يحمل عبء التفكير فيما يفكر فيه عامة الناس .
كلا ..

انه يرفض أن يعيش الليالى المؤرقة التى لا يزور النوم فيها عينيهِ ، حتى اذا طلع النهار انقضت ساعاته فى سأم وملل .
لقد قرر أن يكون صانع مصيره ، ومن ثم كان ما خلفه

(١) كلاهما مات سنة ٢٨٣ وقيل ان البحتري قضى عام ٢٨٤

— وهو ديوان شعر واثناعشر كتابا وكومة كبيرة من النشر الأنيق —
يحتوى ما يشفى عن ارادة حديدية ، مع سخرية تحمل طابع الرجل
الذى قدر له أن يفلسف الحرمان .

ان الذى جعل من ابن المعتز أدبيا مشهورا ليس هو — على
ما يعتقد الناس — الوصف الذى برع فيه فهو له مدح وهجاء
ورثاء وعتاب رائع ^(١) ، وليس هو صوغ الألحان فمن قبله
ومن بعده كبار من أصحاب الصنعة ، وليس هو ترسله وبلاغته
وعرضه للبديع فقد سبقه ابن المقفع والجاحظ وفى عهده كتب
ابن الفرات وابن الجراح والصولى .

ليس هذا ما جعل من ابن المعتز أدبيا مشهورا — وكان الأدب
اذ ذاك حرفة يتكسب بها — وانما الذى جعله كذلك هو ارادته .
ولقد كان من الممكن أن يشغل بأى شىء آخر فى ظروفه تلك
وظروف القصر الذى يتصل به عادة وكله أتراك لا يفهمون
ما يقول ، الا أنه رفض وشفع رفضه بتثقيف عفيف كان من آثاره
غلبة روح العالم عليه واستمداده العلم الاغريقى عن طريق
أرسطو .

ثم ماذا تقول فى نظمة التاريخ ؟

(١) أفرد الصولى فى أوراقه بابا لمعاتبات الشاعر ، وفى صفحة
١١٣ من الكتاب نفسه يسجل رأى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر
وفيه يقول « هو أشعر قريش لأنه ليس فيهم من له مثل فنونه ،
لأنه قال فى الخمر والنظر والغزل والمديح والهجاء والمذكر والمؤنث
والمعاتبات والزهد والأوصاف والمراثى ، فأحسن فى جميعها . وهو
حسن التشبيه ، مليح الألفاظ ، واسع الفكر » .

واذا أخذ بشربه الخمر نظم في ذم الصبوح ، وهو الذى كتب
« فصول التماثيل » يعرض فيه للتشبيهات التى أتت بها العرب
في الراح وما يتعلق بها .

ثم اذا عوتت بشأن أبى تمام كتب فيه رسالة قوامها النقد
النزيه ، وقدم كتابه في البديع مبوبا أبوابا لم يتعب في التماس
الشواهد لها .

ولا نذكر كتاب الطبقات ، لأنه جهد شاركه فيه غيره !

ولو قد أضفنا الى هذا المضايقات التى جابهته — وهى عادة
معوق أكيد — وعكوفه على المرأة أولا ثم الخمر ثانية ، أمكن
أن نرى كيف لعبت ارادته فيما شاء أن يكون . وأمكن أن نقول
ان هذه الارادة ذاتها كانت المصنع التى جعلت من حياته القصيرة
عملا فنيا علميا عجيبا . ولا نزعم في هذه الحالة أنه كان يصور
نفسه ، فتصوير النفس عنده — فيما يبدو — ليس الا مرآة
ساذجة ، وانما كان يصور انطباعات هذه النفس وترديها في شتى
الحاجات وتصديها لمختلف التيارات .

وهنا تكمن عظمتة ...

هو لم يقتصر على الوصف الواقعى ولا على الوصف الفنى ،
ولكنه اهتم بالحالة كما يريد أن يراها غيره !

ان ما كان على أكبر الأدباء أن يجهدوا قرائحهم في تصويره
بدقة ، لم يكن عليه الا أن يخضعه لارادته وذوقه ليحقق منه

غايته (١) . وليختلف القوم بعد ذلك في تفسيره وتقييمه ، أفلم يجدوا فيه حشدا من المواقف المثيرة ؟

ولقد يقال انه كان فاترا أحيانا ، ثم قد يقال انه تورط من أجل ذلك في شيء من السخف ، فهل يمنع هذا وذاك من أن يتبوأ في عصره مركز الصدارة ؟

الحقيقة أن ابن المعتز كان مهياً لهذا الصراع ولهذا التصدع ، وإن تكن اللغة التي كتب بها تبدو متماسكة متآزررة التأليف . ومن هنا كان علينا أن نراه في أشد حالات ضيقه جالسا الى وراقه أو الى أوراقه تماما كما يجلس الى ساقيه أو الى كئوسه ، منصرفا عن كل شيء ، جامعا بين الفكرة السامية والشهوة الدنية ! انه يبدو دائما جريئا مشوقا ..

ويأمر به المعتضد فلا يرعوى الا ريشما تخمد الفورة ثم يعود الى ما كان فيه ، ويطلب بيوت الخمر مؤثرا — في هذه المرة — تلك الدساكر البعيدة المنفعة بالقصف والريية والمبثوثة في سواد بغداد . يرتادها في غبش المساء أو قد يطرقها مع الخلعاء ليلا ،

(١) الى نحو هذا فطن الدكتور محمد نجيب البهيتي في كتابه « تاريخ الشعر العربي » صفحة ٥١٠ ط . دار الكتب سنة ١٩٥٠ يقول : لا يكاد ينتهي عهد أبي تمام والبحترى حتى يكون هيكلا الشعر العربي الضخم قد تم بناؤه واستكمل صورته وأداته ... حتى اذا جاء ابن المعتز وجده تاما ثابتا قد شادته أجيال من العبقريات تمتد آجالها في كبد الزمن وتغيب في قلب الأبد العميق ، فلم يجد ما يزيد عليه الا بعض الحلبي الأنيقة » وفي صفحة ٥١٧ من الكتاب نفسه يقول « فاذا جئنا الى عصر ابن المعتز وقعنا على التأثيرات الفردية وعلى نتاج العبقرية الخاصة » .

كما كان أبو نواس يطرق الأديرة والخوانيت المغلقة :

لو شئت زرنا عروس حانوت

بطيزنا باذ أو قـرى هيت

وشادن أقطع المـلاحـة في

وجه من العاشـقين منحوت

يمج ابريقه المـدام كما انقـ

ض شـهاب في اثر عفريت

ولقد تكون الليلة حالكة لا يطلع لها نجم ، وقد تكون ذات

بدر كامل ، فهو لا يعنيه الا النسيان والتماس الراحة ، ومن ثم لا يحق للمفندين أن يأخذوه بشيء :

يا من يفندنى فى اللهـو والطرب

دع ما تراه وخذ رأيى فحسبك بى

وقد يياكرنى الساقى فأشربها

راحا تريخ من الأحزان والكرب

وربما التقى بمن يلفته ويأسره .. كاعب حلوة أو عروس مزينة

أو قائلة : متى يفنى هواه ؟ ليقول : اذا فنى الملاح ! وربما أنشد

حتى لنحس فيه قلبا طليقا لا تثقله الهموم ، غير أن هذا كان

لا يدوم ، فضلا عن اقترانه بلوعة الذكريات :

من معينى على السهر وعلى الهم والذكر

وابلائى من شـادن كبر الحب اذ كبر

قام كالغصن فى النقا يمزج الشمس بالقمر

شـاطرنى مقطب فاسق الفعل والنظر

قد سقاني المدام واللـ سـيل بالصبح مؤتزر
والثريا كنسور غصـ ن على الغرب قد ثر
عندئذ فقط وقد ألحت على صريع الكأس شهوته الجديدة
دون سأم ولا ضجر ، ونأى عن عذابات الهوى ، وعما يلقاه من
اهمال شريفة له .. يحس بالراحة وبالانتصار معا ، أفلم يختلس
ذلك المتاع كله من زمان حاول اصلاحه فأصلح :

خل الزمان اذا تقاعس أو جمح
واشك الهموم الى المدامة والقده
واضمم فؤادك ان شربت ثلاثة
واحذر عليه أن يطير من الفرح
هذا دواء للهموم مجرب
فاقبل مشورة ناصح لك ان نصح
ودع الزمان فكم رفيق حازم
قد رام اصلاح الزمان فما صلح
ومكمل بالأس بعـد وطية
نظمت مخائقه الخواصر من بلح
قد بات ينطق عوده في كفه
غردا كقمرى الحمام اذا صدح
واذا أبى الا اقتراح غنائـه
جاوزته وطلبت مالم أقترح
واذا تمادى فى السرور قطعـها
بالضم والتقييل حتى يصطلح

الفصل الخامس حديث الأدب

دخل عليه يمن مولاه وقهرمانه واستأذن لابن الجصاص أن يدخل ، وكان هذا قد قدم بقطر الندى من مصر ، ولما أراد الرجوع محملاً بهدايا المعتضد لخمarioه بلغه نبأ مصرعه فاتخذ بغداد مقاما وفتح داره في المخزم — ولم تكن تبعد عن دار آل سليمان ابن وهب — لعلية القوم . وأثر ابن المعتز بحبه ، كما جمع حوله جماعة من الأصدقاء اختلفت مشاربهم — للعجب — عما يأخذ به نفسه من جمع للجواهر ونقد لها .

وعلى رأس هؤلاء أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح كاتب الوزير أبي القاسم عبيد الله وزوج ابنته ، وقد قلده ديوان المشرق بعد الزواج ثم ديوان الأشراف .

وكذلك أبو أحمد العباسي بن الحسن المتقلد لديوان زمام الخراج والضياع السلطانية منذ أعوام . وكان واحدا ممن اعتاد ابن المعتز أن يطلب منه عطاءه — قبل أن ينتظم بثلاثة وثلاثين دينارا أيام المعتضد — فيرفض ويأمر بعماله فيصفعون وكلاء الأمير.

واذا كان ابن المعتز قد تعود منه ذلك ، فانه لم يكن ليطلق أن يرى هامته الكظة وعينية الكابتين اللتين لا تمان عن شيء واضح .
ثم ابن حمدان .. القائد الذي يقضى كل وقته في الميدان متعقبا القرامطة ، وكان يلزمه دائما وصيف بن صوار تكين .
وأخيرا أبو المثني وأبو عمر القاضيان ، وكان ابن المعتز قد وطد علاقته بهما منذ شيع معهما جثمان جاره القاضي أبي اسحاق اسماعيل وكان توفي عام ٢٨٢

خليط عجيب متناقض حمل ابن الجصاص صورته وهو يدخل على ابن المعتز . غير أنه تلقاه بترحاب كبير ، وكان قد صرف لساعته بنت الكراعة — كالمطرودة — ليكتب في شريعة وابن البقال ما اعتاد أن يكتبه من سباب ، ثم ليكتب لصديقه الكسروي قصيدته التي يقول فيها :

يا باخلا بكتابه ورسوله

أأردت تجعل في الفراق فراقا

ان العهد تموت ان لم تحيها

والنأى يحدث للفتى أخلاقا

ولم يكن الا قليل حتى راح الصديقان يخوضان في حديث عادي لم يكن يهتم به ابن المعتز كثيرا . ولكنه تنقل معه من حكاية لعن معاوية ، الى لعن الطالبين كخصوم له ، الى السخرية بالمنجمين الذين تبأوا بفيضانات مدمرة فانقطعت الأمطار حتى استسقى الناس مرات ، وهكذا ...

والرجل كالبله يسأل ويستنصر — فلم يكن في الحقيقة يعرف

أكثر من الاتجار بالجواهر — ويحكى حكاية غريبة يزعم فيها أنه انتهى لكثرة ماله أن يخسر، حتى لقد اشترى تمرا من الكوفة ليبيعه في البصرة بلد البلح ، فلم يحمل نخيل البصرة سنتها ثمرة واحدة ، وازاء هذا باع فيها وتضاعف ربحه !

وكان من الممكن أن يطول الأمر على هذا النحو لولا أن دخل يمن ثانية يستأذن للصولي وهارون بن المنجم وابن حمدون نديم المقتدر وجحظة أو خنياكر، واتسع المجلس وأديرت أكواب الشراب وكان ابن المعتز يعلم أن لكل واحد من هؤلاء هوى ، وتأيد هذا عندما بدأ ابن المنجم فأعلن أنه يريد أن ينسخ من « كتاب البديع » نسخة فلما أبدى ابن المعتز موافقته قال له ابن المنجم :

— فهل لك أيها الأمير في أن تصفح عن أخى يحيى ؟

فتدخل ابن الجصاص قائلا :

— والنميرى ...

وصاح ابن حمدون :

— ولماذا تنسون ابن بسام ؟

قال ابن المعتز برفق :

— لعمرى ماذا يكون الصفح وفي النفس ما فيها أيها

الاخوان ، أما النميرى فويلي منه وويله منى ، وابن بسام لا يحفظ لسانه وأمره لغده ، في حين أشقاني أبو أحمد يحيى بما أشقاني ابن الرومى . وفي الوقت نفسه يرمينى بالتصحييف والتحريف ، ويهجوني بقصيدته :

أبعد البين صبر أو هجود أبى ذاك التفكير والشهود

فأهجوه حتى أوجعه بقولي :

أتسمو للفخار وأنت قرد وما بالمجد يفتخر القرو
فخرت بفارس سفها وجهلا كأنك من مرازبها تليد
ثم يوجعني باعتزاله وما يدير في مجلسه من طعن على دين الله
وعلى آل محمد !

وبهت ابن المنجم ، فآثر أن يسكت حتى لا تمتد ثورة الأمير
إليه فيسحب موافقته على أن ينسخ البديع . وهنا تقدم لحظة
بجراته المعروفة ولطفه معا ، فقال :

— وأما أنا فليس لى الا أن أسأل طباهجة الأمير .

وتبسم ابن المعتز ثم قال :

— والله ما أهون الطلب يا خنياكر الحبيب ، ولكن لعل
عندى من القطائف ما لا تحب .

وكان ابن المعتز يعرف ضيق لحظة بالقطائف فشاء مداعبته ،
ولكن هذا صاح على غير ما توقع أحد :

— فايكن ، ولتخمني بجوزها ان كانت بجوز أو فلتبشمنى
بلوزها ان أمرت بها بلوز !

وضج الحضور بالضحك ، وصفق ابن المعتز ، وهنا قال
الصولى بعد أن ظل ساكتا طوال الوقت :

— الحمد لله أهل النعمة أن تكون له يا خنياكر ، فان تركتنا
سهل الله لك طريقها وجعل كل ما تقع عليه عينك طباهجة . ولكننا
فى غير هذا المقام يا رجل ، نريد أن نوفى حق الكبار فى الكلام
ونعطيهم موضعهم من الرتبة .

قال ابن المنجم :

— من هم يا أبا بكر ؟

أجاب ابن المعتز عن الصولى :

— يريد أبا تمام فهو شغله الشاغل .

قال الصولى :

— والبحترى أعزك الله أيها الأمير !

فقال ابن المعتز :

— الحق أنى لم أجعل له فى طبقاتى الا ورقة .. لا علم عندى

بسبب ذلك ، ولكننى رأيت من سرورى أن أثبت له نادرة

رواها لى علان بن محمد .

صاح الجميع حتى جحظة :

— وما تكون ؟

أجاب ابن المعتز وقد أخرج كتاب الطبقات ونظر فيه (١) :

— هجا البحترى أبا الفضل بن الحسن بن سهل ، فتركه

أياما وأظهر قلة المبالاة والاهمال لهجائه ، ولم يظهر الموجدة

بذلك . وحضره يوما فقال له « يا أبا عبادة ، تبغنى غلامك

نسيما ؟ » فقال « كيف أبيعك من لو فارقتك ساعة فارقتنى

روحى ؟ » فقال : « أعطيك به رغبة » فقال « وكم تعطينى ؟ » قال

« أعطيك ألف دينار » قال « لا أفعل » قال « أعطيك ألفى دينار »

فقال له « أحضر المال » فباعه ، وتسلمه أبو الفضل . فما مرّ

(١) راجع طبقات الشعراء له ٣٩٤

للبحترى يوم حتى قامت قيامته وندم ، فواصل غدوه برواحه الى
باب الفضل يسأله الاقالة وهو يأبى عليه ، فلما عيل صبره كتب
اليه :

أبا الفضل فى تسع وتسعين نعمة

غنى لك عن ظبى بساحتنا فرد

أتأخذ منى وقد أخذ الهوى

فؤادى له فيما أسر وما أبدى

وتغدو عليه صبوتى وصبابتى

ولم يعده وجدى ولم ياله جهدى

وقلت : اسل عنه والمنيسة دونه

وكيف سلو ابن المفرغ عن برد

وابن المفرغ شاعر كان له غلام اسمه برد فباعه وندم ، وله فيه

أشعار كثيرة ، فقال أبو الفضل « أبيعك بجميع ما تملك » فقال

له « أفعل » فباعه بجميع ملكه ، وأشهد عليه ، ورد الغلام اليه .

فلما كان من الغد رد عليه الكتاب وأقاله من جميع ذلك ، وحمل

اليه صله وقال له « اياك أن تهجو الأحرار فان لهم مكائد يضل

فيها هجوك ومدحك » .

وهنا التفت الأمير الى ابن المنجم ومضى مستطردا :

— قل ليحىي قوله ابن سهل اياك أن تهجو الأحرار فان لهم

مكائد يضل فيها هجوك ومدحك !

وضحك فضحك أصحابه ، ولكنه كان قد أخذته حماسة

العالم فقال وهو ينقل بصره الى الصولى :

— يا أبا بكر ، لقد وعدت بأن أحدثك عن شاعرك ، وهأنذا أعطيك شيئاً عنه وعن أبي عبادة معا . فقد جاءني أستاذنا المبرد يوماً فأفصنا في ذكر أبي تمام ^(١) وسألته عنه وعن البحترى فقال « لأبي تمام استخرجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحترى وهو صحيح خاطر حسن الانتزاع ، وشعر البحترى أحسن استواء . وأبو تمام يقول النادر والبارد ، وهو المذهب الذي كان أعجب الى الأصمعى . وما أشبه أبا تمام الا بغائص يخرج الدر والمخشلبة » ^(٢) ثم قال « والله ان لأبي تمام والبحترى من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله » . وسكت الأمير ، فقال الصولى :

— ألا ترى أيها الأمير أن قول المبرد « ما أشبه أبا تمام الا بغائص » انما أخذه من قول الأصمعى فى النابغة الجعدى « تجد فى شعره مطرفا بآلاف وكساء بواف » ^(٣) . قال ابن المعتز :

— كلنا عالة على المقدمين من أهل العلم ننظر اليهم ونتتبعهم طارئين اليهم حتى وان كان قصدنا أن نبين سقطهم ، أفلا ترى الى ابن المدبر وهو يريد أن يحط من قدر الطائى انما يرفعه حتى ليتساوى فى ذلك بصعودا الذى لا يسلك معه مسلكه ؟

-
- (١) أخبار أبى تمام ٩٦ ، ٩٧
 (٢) المخشلبة : خرز أبيض يشبه اللؤلؤ ولكنه زهيد الثمن .
 (٣) المطرف : رداء من خز ذو أعلام ، الوافى : درهم وأربعة دوانق ، يريد أن فى شعره تفاوتا فبعضه جيد رفيع وبعضه الآخر ردىء ساقط .

قال الصولى متسائلا :

— وكيف كان ذلك ؟

قال ابن المعتز :

— حدثنى صعودا عن الطائى قال « خرجت يوما الى سر من رأى حين ولى الواثق ، فلقينى أعرابى وقد قربت منها . فأردت أن أسأله عن شىء من أخبار الناس بها ، فخطبته فاذا أفصح الناس وأفطنهم ، فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بنى عامر ! قلت : كيف علمك بأمر المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى العاصية وقمع العارياة ، وعدل فى الرعية ، وأرعف كل ذى قلم خيائته ^(١) ! قلت : فما تقول فى أحمد بن دؤاد ^(٢) ؟ قال : هضبة لا ترام وجندلة لا تضام ، تشخذ له المدى وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى اذا قيل كأن قد ، وثب وثبة الذئب وختل وختل الضب ! قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الدانى شره وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يثرى فيه أثر ناب ولا ندب مخلب ! قلت : فما تقول فى عمرو بن فرج الكاتب ؟ قال : ضخم

(١) الخبر فى « أخبار أبى تمام » صفحة ٨٩ وما بعدها ، وفى هذه العبارة غموض واضح ، وهى فى مروج الذهب ٧ : ١٤٧ ط . باريس سنة ١٨٦١ ورغب عن كل ذى جنابة .

(٢) أحد الفصحاء من المعتزلة ، شغب على الامام حنبل وأفتى بقتله ، وكان مقدما عند المأمون والمعتصم ونشب بينه وبين ابن الزيات شر عظيم ، مات سنة ٢٤٠ بالبصرة .

لهم (١) مستعذب للذم ! قلت : فما تقول في الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه ، قال : ذاك رجل نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفنة الموتى ! قلت : فما تقول في أبي الوزير ؟ قال : كبش الزنادقة الذي تعرف ، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنح ورتع ، فاذا هزه أمطر فأمرع ؟ قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم فذرق ذرقة بشم ! قلت : فما تقول في إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون (٢) . قلت : فما تقول في أحمد بن إسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى قلقل (٣) ! غرس في منابت الكرم حتى اذا اهتز لهم حصدوه ! قلت : فما تقول في إبراهيم بن رياح ؟ قال : أوبقه (٤) كرمه وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ورب لا يخذله وخليفة لا يظلمه ! قلت : فما تقول في نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ومدرك ثار ! يتلهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل نعمًا وتحل نقما ! قلت : يا أعرابي ، أين منزلك ؟ قال : اللهم غفرا ، اذا اشتمل الظلام فحيثما أدركنى الرقاد رقدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهى بمسألتهم أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائى الذى قد ملأ الدنيا شعره :

وما أبالى وخير القول أصدقه

حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمي

(١) اللهم : الجواد العظيم الكفاية (٢) من سورة النحل ٢١

(٣) القلقل : المعوان سريع التقلقل أى التحرك .

(٤) أوبقه : أوثقه .

قلت : فأنا الطائي قائل هذا الشعر ! فدنا مبادرا فعانقني
وقال : لله أبوك ! ألسنت الذي يقول :

ما جود كفك ان جادت وان بخلت

من ماء وجهي اذا أخلفته عوض

قلت : نعم ! قال : أنت والله أشعر أهل الزمان . فرجعت
بالأعرابي معي الى ابن أبي دؤاد وحدثته بحديثه ، فأدخله الى
الواثق ، فسأله عن خبره معي فأخبره به ، فأمر له بمال وأحسن
اليه ، ووهب له أحمد بن أبي دؤاد ، فكان يقول لى : قد عظم
الله بركتك على » (١) .

وسكت ابن المعتز ، فقام ابن الجصاص معانقا الأمير واستأذن
في الانصراف ، في حين مثد السماط ووضعت عليه من صنوف
الأطعمة ما جعل لعاب جحظة يسيل ، غير أنه أهاب بفلول عزمه
أن تعينه على الجوع الذي يفري أحشائه ، وود لو أن القوم
أخذوا الأمور مأخذه ولكن ظنه خاب عندما انبرى الصولى يقول
متسائلا :

— وحكاية ابن المدبر ؟

قال ابن المعتز :

— لقد حدثته بحديث حديثه أبو عمرو بن أبي الحسن
الطوسي بعد أن رأيته يستجيد شعر أبي تمام ولا يوفيه مع ذلك
حقه ، فجعلت هذا الحديث مثلا له ، قال « وجه بى أبى

(١) أخبار أبى تمام ٩٣

الى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعارا وكنت معجبا بشعر أبي تمام ،
فقرأت عليه من أشعار هذيل ، ، ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على
أنها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عدلته في عدله فظن أني جاهل من جهله
حتى أتممتها ، فقال : أكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت :
أحسنه هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قلت : انها لأبي تمام !
فقال : خرّق خرّق ! « (١) .

وأطرق ابن المعتز قليلا ، فظن جحظة أن كل شيء قد أذن
للطعام ولكن شقاءه بلغ أقصاه عندما راح يستطرد في هدوء :

— هذا الفعل من العلماء مفرط القبح لأنه يجب ألا يدفع
احسان محسن عدوا كان أو صديقا ، وأن تؤخذ الفائدة من
الرفيع والوضيع . فانه روى عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب
صلوات الله عليه أنه قال « الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك
ولو من أهل الشرك » .

قال ابن المنجم :

— الحق أن الرجل كان علما وجمعت له مع البحتري في
كتابي « اختيار شعر المحدثين » وسأروى له في « اختيار الشعراء
الكبير » جيد أشعاره .

قال ابن المعتز :

— من عاب مثل هذه الأشعار التي ترتاح لها القلوب وتجذل

(١) أخبار أبي تمام ١٧٦

بها النفوس وتصغى اليها الأسماع وتشحذ بها الأذهان ، فانما
غض من نفسه وطعن على معرفته واختياره ، اكتب يا أبا بكر ،
وقد روى عن عبد الله بن العباس رحمه الله أنه قال « الهوى اله
معبود » واحتج بقول الله عز وجل « أفرأيت من اتخذ الهه
هواه » .

وهنا صاحب جحظة وقد طفتح كي له :

— وما رأيكم فيمن استبدل بذلك الطعام ؟

وأشار الى السماط ثم انقض عليه انقضا الصقر ، وتبعه
الأمير فابن حمدان ، ثم ابن المنجم والصولى ، وانقطع بذلك
حديث الأدب .

الفصل السادس

غضبة الإمام

راح يقرأ قصيدة الكسروى اليه .. قافية يردّ بها على قافيته ^(١) ويعلنه فيها أنه لا يزال على عهده ولم يتبدل بعد النأى أخلاقا ! ودمعت عيناه ، لأنه تذكر في هذه اللحظة شريرة وارتحالها الى حيث يطيب لقاءها بابن البقال . ولقد كان يرجو أن يرسل لها بأخر ما كتب ، وقد صفت نفسه ولم يعد فيها مكان لغل ولا لحقد ، وانما حب خالص مبرأ من الهوى :

فكيف بها لا الدار منها قريبة

ولا أنت عنها آخر الدهر صابر

أين لى فقد بانت لها غربة النوى

أأنت على شئ سوى الهم قادر

نعم أن يزول القلب عن مستقره

خفوقا وتنهل الدموع البوادر

وأحيا حياة بعد شر مريضة

لها عاذل في حب شر وعاذر

(١) أثبتتها ياقوت في معجم الأدباء ٥ : ٤٣٠

ألا يا بنى العباس هذا أخوكم

قتيل ، فهل منكم له اليوم نائر
نعم هو صادق ؛ فالدنيا حظوظ . وحظه أن يكون فى الجانب
الخاسر !

وهو يريد أن يكتب للكسرى بذلك ، ويعتب عليه . ثم
يسأله فيم غيبته هذه الطويلة عنه ، والأمر العظيم يحق به بحيث
لا يجد من أحد عوناً ؟

أبا حسن أنت ابن مهدى فارس

فرفقا بنا لست ابن مهدى هاشم
وأنت أخ فى يوم لهو ولذة

ولست أخا عند الأمور العظام
سيئنى بها ابن البقال ، وسيتحدث الجميع عن سعادتهما
وشقائهما هو . وسيكون على الحفنة اللعينة من الموالى أن
تشاركهما الفرح ، وتنظر اليه فى رثاء أو شماتة !

أجل .. والكسرى بعيد عنه ، ونشوان هجره أيضا .
ولا شىء الا الكتابة وزيارة الحانات والديارات ومنازل الأصحاب
والبساتين ، ثم الطرد مع جماعة يوشك أن يمل صحبتهم لأنهم :
أمسوا جوى فى القلب يقة تله وأحزانا وشجوا
وفجأة يبعث الوزير اليه بانبه القاسم يحذره من غلبة
الامام ، ويقفه على رأيه فى تماجنه ذلك الذى شوّه صورته .
وقد انتهى اللقاء بشىء واحد هو ضرورة أن يمثل لرغبة الخليفة
وليكن عزوف عن المواخير ومجالس الكأس واللهو والطرب ..

ونهانى الامام عن سفه الكأ س فردت على السقاة المدام
عفتها مكرها ، ولذات عيش قام بينى وبينهن الامام
ولكن بقى للخمر — مع ذلك — سلطانها عليه ، ولعله راح
يشربها سرا . ومن المؤكد أنه نشر فى هذه الفترة « فصول
التمثيل » وراح ينشد فى كل مكان أرجوزة لطيفة فى ذم
الصباح .

أما « فصول التمثيل » (١) فرحلة ذهنية وراء الراح للراحة ،
وعرض لجملة آداب الشراب وشرائط المندامة عند ذوى الرئاسة
ومن دونهم ، وبيان لأعرف الأمم — ويعنى الروم — مذهباً فى
استعمالها ، وحاجة الناس كافة إليها . وعرف بأسمائها وصفاتها (٢)
وآنيتها (٣) وسقاتها (٤) وطريقة صنعها . والأهم من ذلك كله

(١) طبع الكتاب بانقاهرة عام ١٩٢٥ محيى الدين الكردى ،
وفى فهرست ابن النديم أن لحمزة الأصفهاني كتاباً بالاسم نفسه .
وهذا مما دعا فريقاً من الباحثين كالـدكتور محمد سيد العزيز
الكفراوى الى الشك فى نسبته لابن المعتز ، ولكننا نجد فيه أدلة
كثيرة تثبت أنه صاحبه . وان كنا نميل أنه بتكوينه الحالى بعيد
بعض البعد عن صورته الأولى ، لأن يد التحريف امتدت اليه على
مدى الأيام .

(٢) سميت الخمر لأنها خمرت فى انائها ، والشمول لأنها تشتمل
على العقل ، والقرقف لأن شاربها يصاب برعدة منها ، والعقار لأنها
تعاقر الدن ، والقهوة لأنها تقهى عن الطعام أى تصد عنه ، والراح
لأنها تريح من الفم .

(٣) الدنان والأباريق والجامات والـكيزان والـكاسات والأقداح
والقناني والأرطال .

(٤) اشترط فيهم حسن الوجوه واعتدال القامة وسهولة
الخلق وجمال الزى وسرعة تلبية الطلب .

ذكر التشبيهات الرائعة التي وردت عند العرب في الخمریات .
وقد رأى أن يشرح للناس كيف يصنع النبيذ ، وماذا يضاف
اليه ليعجل بالسكر أو يبطيء به أو يحد منه . كما رأى أن
يصف لهم حركة السكر في الأجسام وصنيعه بها وزينغ أبصارها
واختلاف الطعوم في أفواهاها . وفي ذلك كله كان يسأل ويتطوع
بالاجابة ، وفي اجابته يعلن استحسانه أو استقباحه ، ويحرص على
ازجاء النصيح وسوق الحكمة وتقديم نواذر الظرفاء وأقوالهم .

وأما الأرجوزة (١) فقد قدّم فيها صديقا له ينكر عليه شرب
الخمر في المساء وقال له « ألا تشرب في ضياء الفجر والأسحار
حيث ترى البستان كيف نورّ ونشر المنتور زهرا أصفر » ..
وضحك الورد الى الشقائق واعتنق القطر اعتناق وامق
في روضة كحلل العروس وحزم كهامة الظاؤوس
وياسمين في ذرى الأغصان منتظم كقطع العقيان

قل لى فهذا حسن بالليل ويلي مما يشتهى وعسولى
ولقد قال له ابن المعتز بعد أن أكثر من الأوصاف « قد
جنبتك الخلاف ، فان شئت فبت عندنا حتى يسفر الصباح » ولكن
الصديق أبى الا أن يوعده بالبكور ، وأتى فعلا ولكن بعد أن
يئس ابن المعتز وصحبه من حضوره فأخذوا في شربهم ولهوهم .
اذ ذاك بدا خجلان بارد التبسم ، واقتتح القول بعى وحصر :

(١) هى من المزدوج وقد أثبتها الصولى فى الأوراق كاملة
(راجع صفحة ٢٥١ وما بعدها)

وقال يا قوم اسمعوا كلامى لا تسرعوا ظلما الى ملامى
وجاء بقصة كذابة ثم قال « يا قوم اشربوا » فقالوا « أتيتنا
ونحن قد سكرنا » فلم يزل من شأنه منفردا يشرب وحده والقوم
بين نشوان ونعسان ، وكلهم واهن خامل . وهنا ينتهز ابن المعتز
الفرصة ليدلى ببيانه ويعرض حججه داما الصبوح ، وقد ظهر
للعيان سوء ما يخلفه .

ففى الشتاء ينطوى شرب الخمر فجرا على شر كبير لأنه
يعرض المرء للبرد فى الوقت الذى يحتاج فيه الى الدفء ، والساقى
يكون بدوره مكرها على الحركة حتى ليلعن المولى اذا دعاه .
وان طُرد البرد بالنار فقد يتطاير شررها ليحرق ثياب الشارين ،
وربما أصاب الجلود والعيون ، أو ربما ترك على البساط الأنيق
نقطا سودا كجلد الفهدة .

ومن يدرى بعد ذلك ، فقد يدق عليهم الباب واحد من
أصحاب الفقه والاحتشام . وهنا تسرع الأيدي الى اخطاء
الكؤوس ، وتجبر النفوس على مجالسته .

فاذا كان الصيف فما يصطحب القوم — وقد انكسر الحر
وانهزم البق ، ولذ للعيون أن تنام بعد سهر مضن خوفا من عقرب
أو حية أو فأرة — حتى يسلم الصبح سيف اللهب من جديد .
واذا الشراب يسخن ، ويسخن معه المزاج فيكثر الخلاف
والحجاج . وقد يستشعرون الجوع ، فاذا أكلوا أخذتهم سنة

من النوم ، أو عرقوا حتى يصير ريحانهم كالقت ، وربما لو عربدوا
أساء بعضهم الى بعض ..

ومن أدام للشقاء هذا	من فعله والتذه التذاذا
لم يلف الا دنس الأثواب	مهوسا مهوس الأصحاب
يزداد سهرًا وضني وسقما	ولا تراه الدهر الا فدما
هذا كذا وما تركت أكثر	فجربوا ما قلته وفكروا

الفصل السابع

نفى وعفو

أيا سيدى ان ابن مهدي فارس
فداء ومن يهوى لمهدى هاشم
بلوت أخا فى كل أمر تحبه
ولم تبـله عند الأمور العظام
وانك لو نبهتـــــــــــــــــه للممة

لأنساك صولات الأسود الضراغم
وأين هو الآن ؟ أين الكسروى .. لقد أتاه نعيه مع الرسول
الذى حمل اليه القصيدة ، ولم ينكر ابن المعتز فى يوم من الأيام
أنه كان مثله انسانا مغامرا وألوفاً . ولهذا أحبه ، وكان يرى فيه
الرجل العنيد الباحث عن فرصته والمناضل من أجل أن يبقى حتى
ولو ارتحل الى الصين .

وقد أحب مثله يوما وخانه حبيبه ، فلم يقل أكثر من « ويل هذا
القلب الذى وضع أنفى فى الرغام » ثم قام من كبوته أشد ضراوة
واقداما . ولعله فى هذه فقط يخالف صاحبه الأمير ، لأن هذا
كان لا يزال يطمع فى أن يعيد شريرة الى دفنه العقيم برغم كل
ما يصل اليه من أنباء سيئة .

وبكى ..

وعندما قام يمشى فى جوانب بستانه كانت قامته الهرقلية تهتز ، وراه يمن من بعيد يمزق مخمل سترته بأصابع متشنجة غير أنه لم يجرؤ على الاقتراب منه ، ولاحظ سائر الخدم أنه أmaal كتفيه ، وأحنى عوده وترك شففيه الطريتين تتدليان .

انه حتى هذه اللحظة لم يشرب الكأس حتى الشمالة ، لأن صديقه جعفر بن قدامة عندما دخل عليه ليحمل نبأ زواج شريرة خاف هول الموقف فأثر السكوت . وانزوى فى مكان قصيّ بالشرفة ، يرجو أن يلححه الأمير ، ولكن حدث فجأة أن ارتفع صوت من وراء سور البستان ، واذ ذاك استدار الأمير وقد اتسعت حدقتاه ، وكان الصوت يقول :

— بشارك يا أمير .. لقد زفت الحبيبة الى ابن البقال !

واضطربت الدار ، فى حين ظل ابن المعتز جامدا يمد رقبته الى أمام وكأنه لا يصدق ، وعندما وقعت عيناه على صديقه صاح :
— ويلى من النميرى .. انه صوته ، هل تنكر ؟ ولكن ..
ولكن لعله يكذب !

وعدل جعفر عما اعتزمه أولا مؤثرا أن ينتهى كل شىء بسرعة ، فقال :

— بل هو صادق ، وقد جئت لأقول لك ذلك ثم لأضيف
أنهما ارتحلا عن بغداد الى الأبد !
صاح :

— واغوثاه .. واغوثاه ! ولكن لئن فجعت بفقدها لقد
أمنت الفتنة بها !

ودخل مطأطئ الهامة فجلس ساعة صامتا ، ولما رفع وجهه
نادى بالطعام فأكل مصدود النفس ، ثم قام فأحضر الكاغد وطلب
الى صديقه أن يكتب قائلا :

— لا بد أن أصطنع الحكمة يا حبيبي . فالحكمة شجرة تنبت
فى القلب وتثمر من اللسان ، ومن الحكمة أن أقول ما أريد أن
أقول ، فاكتبه بارك الله فيك :

صاح ماذا ترى من رأى قل لى
أطرق الدهر ثم جاء بصل
زوّجوا ويحهم شريرة بالبقـ

ال يا حسننها ويا قبح بعل
سبح الناس اذ رأوا درة المسـ
ك مع البيض عند صاحب بقل
وعزيز على من ذاك ما ها

ن عليهم وليت أتى ومن لى
ان تكونى على الرضا أو على السخـ
ط فلا بالرفا ولا بالتملى
ان عندى رأيا نصحتك فيه

فاحذرى أن تخالفى رأى مثلى
وخذى رأى من نصيح بشكر
ليس بعلا زوجت لكن يغلـ

فاركبيه طوعا وكـرها الينا
واربطيه يا شر في غير ظل
وأطـيـلى قـرونه كيفما شئت

ت فما ان يحس منها بثقل
ولما انتهى من املائه أمسك بالصحيفة يعيد قراءتها وقد
أخذت عيناه تتقدان ، ثم همس بعد أن انتهى :

— الآن استرحت فالى العمل .. انشر هذه فى الناس وقل
انها شغلتنى عن رثاء الكسروى ، ولكنى لن أقعد ها هنا ، ألا ترى
أن مكانى مع الامام فى آمد ؟

وكان يشير بذلك الى خروج المعتضد بالله سنة خمس وثمانين
ومائتين الى أحمد بن عيسى بن الشيخ صاحب البلد لحربه . وفعلا
أعد من ساعته سلاحه وارتحل يريد اللحاق بالجيش الغازى ،
ولكنه لم يصل الا بعد أن افتتح الخليفة آمد بالأمان ^(١) .

وليلة رحلة الجيش الى قنسرين نـمى الى الخليفة أن
ابن المعتز عاقر الخمر شيئا ، فاصطنع كل صرامة أبـيه فى القسوة
عليه وتعنيفه . ثم طلب منه فراقه ، ونصحه بأن يترك بغداد .
وهكذا توالى عليه المصائب ، وأصبح ذات يوم منفيا عن الأهل
والأصحاب .

ولكن أين قصد ؟

فكر أول الأمر فى سر من رأى ، ولكن الوزير نصحه بتركها

(١) راجع تاريخ أبى الفداء ٢ : ٦١ .

حتى لا يظن الخليفة أنه يتحداه بقصر أبيه ناحية قصر الصوامع .
وكان هذا الى جانب قطع عطائه وانصراف اخوانه عنه أهم
الأسباب التي أشعرته بالوحشة والغربة ، وأنشد مرة :

مرّ عيش علىّ قد كان لذّا ودهتنى الأيام فيه وحذا
واثنى عنى الشباب وغودر ت فريدا من الأجبة فذا
بضمير لا لهو فيه وقلب وقذته قوارع الدهر وقذا
ولم يكن ينقطع فى الوقت نفسه من مراسلة الخليفة
مستعظفا ، ومن اشاد الشعر فيه ، حتى ليقول :

قد طال عهدى بالامام وأخلفت
أسباب ود كاد يدرس ذكره
ظلت تحاربنى العوائق دونه
وتمدّ لى أمدا طويلا صبره
كما قال فى قصيدة أخرى :

لعمرى لئن أمسى الامام ببلدة
وأنت بأخرى شائق القلب نازع
لقد رمت ما يديك منه وانما
أتى قدر والله معط وممانع
وانى كالعطشان طال به الصدى
اليك ولكن ما الذى أنا صانع
أيذهب عمرى والعوائق دونه
على ما أرى انى الى الله راجع

وما أنا في الدنيا بشيء أناله
سوى أن أرى وجه الخليفة ، قانع
وأخيرا سمح له المعتضد بأن يعود الى بيته بالصرقة ، فكان
فرحه بالعودة طاغيا ، وأنشد هائيته التي يقول في مطلعها :
دعاني الامام الى قربه
فأهلا بذاك وسهلا به
يقصر جهدي عن شكره
ولست أقصر عن مدحه
وعوقني الدهر عن قربه
زمانا فقد تاب من ذنبه

الفصل الثامن

الطالبيون

كان الثمن الذى طلبه المعتضد من ابن المعتز نظير العفو عنه ، أن يقف الى جانبه فى الرد على الطالبيين بنى عمه الذين استشرى شرمهم مع القرامطة ؛ وكان هذا هو آخر ما اعتاد أن يمنعه عن الاشتغال بالسياسة . حقا كان يفتخر أحيانا فيتعرض لبعض الأوضاع العامة ، غير أن هذا كان لا ينم عن أكثر من أنه لا يفتأ يسبح فى أحلام الملك .

ولقد كان هو فى الحقيقة — ككل بنى العباس — يحرص على أن يظل الملك فيهم ، بغض النظر عن تسلط الأتراك فى ذلك عليهم . ولما كان الطالبيون من أقوى المنافسين لهم فقد رأى ابن المعتز — بتفويض من الامام — أن يناقشهم ويوجعهم . واشباعا لنزعة العالم الفنان فيه شرع فى عمل أرجوزة يسجل فيها تاريخ أسرته ، جاعلا المعتضد محورها . ومن هنا نجد أن موقفه السياسى كان معقدا ، ويبلغ تعقده الغاية اذا جوبهنا بجانب من شعره السياسى يخالطه العتاب العنيف والشكوى الممضة . ومع ذلك فقد نرى ثمة قصائد يخرج بها عن الغاية التى دفعه

اليها الامام ، وهى التى تقد فيها الأوضاع وحمل على الأتراك
بشجاعة غريبة ، حتى ليقول فى بعض الولاة منهم :

أفما ترى بلدا أقمت به أعلى مساكن أهله خص
وولاته نبط زنادقة ملأى البطون وأهله خمص
ولهم مسالح يسلحون بها لا يتقى سطواتها اللص
غلبت خيانتهم أمانتهم وطفى على تقواهم الحرص
ويرون رخص السعر أغبط فى الـ بلوى وليس بدرهم رخص

وفى الجانب الآخر يناقش العلويين مناقشة منطقية ، حتى
ليسألهم مقارنا بين أبى طالب وأبى الفضل العباس جده الأعلى :

أبو طالب كمثّل أبى الفضـ ل أما منكم بهذا عليم
سائلوا مالكا ورضوان عن ذا أين هذا ؟ وأين ذاك مقيم
فدعوا الملك نحن بالملك أولى قد أقرت لنا بهذا الخصوم
وعزيز علىّ أن يصبغ الأر ض دم منكم علىّ كريم

ولقد آلم هذا فريقا من أصحابه على رأسهم المبرد الذى سأله
الرفق بآل على ، قبل أن يموت ^(١) حتى لا يستغل القرامطة موقعه
ضده ، وكان هؤلاء قد امتد سلطانهم الى البحرين . كذلك كان
من أكثر العاتيين عليه جاره أبو الحسين محمد بن الحسن العلوى ،
وحاول هو أن يشرح موقفه له زاعما أن أعداءه يناقضونه الشعر .
فقد تمرّ له أبيات يتأوّل فيها شيئا ، فيتناول هؤلاء الأعداء غير
ذلك وشعره يحتمل المعنيين .

(١) كان ذلك سنة ٢٨٦ للهجرة .

ويؤكد الصولي (١) أنه وجد عنده أشعارا يتكذب فيها على العباس وعلى أفاضل ولده وعلى الخلفاء — فهو اذن مستهتر لا يعنيه أحد — وروى أنه كان يقول « من عذيري من الناس ، تأتيني مثل هذه الأشعار فأجيب بتعريض عن مائة كلمة قد صرح بها كلمة ، فأنسب الى ما أنسب اليه » .

ولكن يروى (٢) أن جاره المذكور اعتاد أن يؤكد أن ابن المعتز قبل أن يموت كان يحلف لئن ملك من هذا الأمر شيئا ليجعلن البطينين بطنا واحدا ، وليزوجن هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء وقال « لا أدع طالبيا يتزوج بغير عباسية ، ولا عباسيا بغير طالبية حتى يصيروا شيئا واحدا . وأجرى على كل رجل منهم عشرة دنائير في الشهر ، وعلى كل امرأة خمسة دنائير ، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك » .

فهل بدأ يفكر في الملك تفكيراً جدياً ايجابياً ؟

نحن لا نعثر في إنتاجه ولا في أخباره على أكثر من هذه العبارة التي يحتمل أن تكون موضوعة أو مدسوسة ، الا أننا نعثر على نقد لاذع للطالبيين ، بل نرى منه تطاولاً عليهم ، فيهجوهم قائلاً :

عذلت بنى عمى وطاب بهم عذلى
لعلهم يوماً يفيقون من جهل

(١) راجع الأوراق ١٠٨

(٢) الأوراق ١٠٩

معافين الا من عقول مريضة

وكم من صحيح الجسم خلو من العقل
ويخلع عليهم كل ما يستشعر من حقد كان يكتمه ، حتى
ليعلن أن أبناء عمه لا يستحقون أن يوصلوا ما كانت فيهم
ضعينة ، وهذه الضعينة تظهر على رغمهم مهما يبلغ كتمانهم لها :

فسبحان ربى ما لقوم أرى لهم
كوامن أضغان عقاربها تسرى
إذا ما اجتمعنا فى الندى تضاءلوا

كما خفيت مرضى الكواكب فى الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والأذى

وأعوان دهرى ان تظلمت من دهرى
وفى خمس بقين من شوال سنة سبع وثمانين ومائتين ، ورد
الخبر بأن محمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان قتل (١)
فاشتدت الحملة سعارا ، وانطلق يقول منددا بالطالبيين على أساس
أنهم ليسوا من العصبة :

ولما أبى الله أن يملـكوا نهضنا اليها وقمنا بها
لكم رحم يا بنى بنتـه ولكن بنو العم أولى بها
وأقسم أنكم تعلمـون بأننا لها خير أربابها
فلما عوتب على ما أشاع عنه القرامطة من هجو لعلى ردده

(١) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٤ وكان يطمع فى امتلاك خراسان
لما بلغه من أسر الصفار على أيدي السامانيين ، فقتلوه وأسروا
ابنه زيدا .

بعض أهله ، أقسم أنه لا يكنّ لابن عم رسول الله الا كل محبة
وتقدير ، وأنشد في تيه كبير :

قل لقريش دعى الاسراف واقتصدى

ان عليا وعباسا يدى يدى

ان تسخطوهم تروا أسيفنا معهم

انا واياهم روحان فى جسد

كما قال من أبيات :

زعمت بأنى يا مبغض مبغض

عليا فما فخرى اذن فى المحافل

أأكل من لحمى وأشرب من دمي

كذبت لحاك الله يا شر واغل

على وعباس يدان كلاهما

يمين سواء فى العلى والفضائل

فهذا أبو هذا وهذاكم ابن ذا

فهل بين هذين اتساع لداخل

ومع كل ذلك ، فقد تطور اللجاج . واستحال هذا الخصام

على الأيام خصاما شخصيا دمر الكثير مما كان ينبغى أن يظل

مقاما ، وأتى على بعض ما عرف عن الأمير من ترفع وابعاء .

الفصل التاسع

الأرجوزة التاريخية

فى عام ٢٨٨ فقد أكبر سند طالما حامى عنه ، ووقف فى صفه أمام الدسائس والمكائد^(١) .. فقد أبا القاسم الوزير الذى استطاع بتقربه الى بدر مولى المعتضد وصديق مؤنس الخادم أن يهيم له رغدا من العيش لم يكن ليتاح له مع وجود أمثال ابن الفرات وخفيف السمرقندى وأبو أحمد العباس بن الحسن . وقد حزن المعتضد عليه وقال لابنه « عند الله أحسب أبا القاسم وایاه أسأل أن يغفر له » ثم أمره بأن يتقلد الوزارة بدلا منه ويجرى الأمور على ما كان الوزير الراحل يجريها عليه وقال « ثق بمالك عندى فان الثقة بذلك توفى على المصيبة وان عظمت »^(٢) .

ويبدو أن ابن المعتز اطمأن الى الوزير الجديد مثلما اطمأن

(١) من أوقع شعره الذى قاله فى ذلك :

رب ليل نمته وابن وهب ساهر يطرد عنى الخطوبا
وفيه قال ميمته المشهورة التى مطلعها :

ألا حى ربعا بالمطيرة أعجما فلو كلمت أرضا أذن لتكلما

(٢) اعتاب الكتاب ١٨٣

الى آبيه ، وقد أسرع اليه يدفعه ما بينهما من ودّ بقصيدة يتمدحه فيها ، ويذكر فطنته وقدرته وأباه فيقول عارضا لقلمه :

قلم ما أراه أم فلك يجـ رى بما شاء قاسم ويسير
خاشع في يديه يلثم قرطا سا كما قبل البساط شكور
ولطيف المعنى جليل نحيف وكبير الأفعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حـ ف وعيش تضم تلك السطور
نقشت بالدجى نهارا فما أد رى أخط فيهن أم تصوير
هكذا من أبوه مثل عبيد الـ ٤ ينمى الى العلا ويصير
ويبدو أيضا أن قاسما هذا برغم قسوته وجهه لسفك الدماء
لم يكن غنيفا مع الأمير ، بل كان يحنو عليه ٥ ويوليه عنايته ،
ويوفر له ما يحتاج اليه من مال لأنه قال :

وقد حكى الأمطار نائل قاسم ويا ربما شحت وليس له شح
ومن أشهر ما مدحه به قصيدته التى يقول فيها :

يا ثالث الوزراء كم من حلقة للكرب والأحزان قد فرجتها (١)
ولسنا ندري كم كان ابن المعتز صادقا مع نفسه فى هذا كله
فالأمر الذى لا شك فيه أن هذا التصرف لم يكن يتفق وتخلق
الأمراء . أجل ، هوّن الأتراك من شأن كل أمير بتملكهم زمام
الحكم من صاحب الحكم ، الا أن صنيع ابن المعتز كان فوق
التصوير المألوف . وهو على أى حال قد أفاد شيئا واحدا — على
الأقل — بموقفه هذا ، أفاد الوصول الى حضرة المعتضد فى أى

(١) أما الاثنان الآخران فهما أبوه وجده سليمان بن وهب .

وقت . وترتب على هذا تقديمه واکرامه حتى لقد تعود في نهاية أيام هذا الخليفة أن يركب ومعه الحجاب والغلمان .

ومن الناحية الفنية تمكن في جوّ من الأمان والثقة أن يكتب أرجوزته التي مثلت شطرا مهما من نشاطه في ميادين السياسة ، والتي أرخ فيها — في المحل الأول — لأعمال المعتضد وإنجازاته الهائلة ^(١) . ولقد مات المعتضد قبل أن تتم ، وقبل أن يموت استسلم للمرض في سهولة عجيبة وهو الذي كان يضرب الضربة فيصرع الأسد كما يقال . الا أن ابن المعتز لم يحاول أن يتقاعس أو يتوانى فيها على الرغم من أن ثمة قوما أنشأوا يرجفون

(١) هناك ذكر متأن للمعتمد ، وكان من رأى ابن المعتز أنه شارك المعتضد في استرداد بنى العباس لسلطانهم . وإذا كانت الأرجوزة تنسب الى المعتضد ، فلأنه هو الذي أوحى بنظمها كما يذكر الصولى . وقد لاحظ الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر » صفحة ٢٨٧ ط . الصاوى سنة ١٩٣٦ اضطرابا أرجعه الى أن الشاعر كان ينظم ثم يضيف الى ما نظم اضافات مختلفة . ونذكر نحن أن من أسباب هذا الاضطراب أيضا اطلاق لقب « أبى العباس » على كل من المعتمد والمعتضد ، ويحتمل أن يكون المعتمد — على هذا الأساس — هو المقصود بأول لقب ، والدليل على ذلك ذكره للفتن التي كثرت في عهده ومجاربته للزنج مستعينا بأخيه الموفق ، ثم يخلص الى هجاء أبى الصقر اسماعيل بن بلبل . وهذا والأرجوزة أربعمئة بيت ونيف يتضمنها ديوانه ، ولكنها لأهميتها التاريخية طبعت وحدها بمصر عام ١٩١٣ وعنى بها جماعة من المستشرقين على رأسهم لوث ولانج .

بضرورة تحويل الخلافة اليه . وكان ولي العهد في هذه الأيام خارج بغداد ، وقيل كان يغزو القرامطة فقال فيه ابن المعتز :
قل للقرامط أبشروا بمخنث رخو رباطه
قالوا الأمير .. نعم أمير ر طبل عسكره ضراطه
وخصيان القصر ونسأؤه يتحركون ، ومن ورائهم نصر وبدر
ومؤنس خفيف وابن صوارتكين . كل له مطمعه ، وكل يريد
الفرصة التي تمكنه من عصر ضرع الخزانة ولو لوقت قصير .
بدأها باسم الله وحمده ، ثم بذكر نبيه أحمد ذي الشفاعة الذي
مضى وأبقى لبنى العباس ملكا ثابت الأساس ، ثم ينتهي من هؤلاء
الى الخليفة قائلا :

هذا كتاب سيرة الامام مهذبا من جوهر الكلام
أعنى أبا العباس خير الخلق للملك ، قوله عالم للحق
وقد حرص على أن يبرز فيها أربعة أشياء : أولها ربط
الحديث عن المعتضد بنهاية ابن بلبل كبداية لعهد جديد ، وكان
المعتضد يكرهه كراهية الشاعر له ، وقد دعت هذه الكراهية الى
التعريض به تعريضا ساخرا مريرا ، وثانيها خص العسكر من
الترك وغيرهم من المرتزقة بالذم لطغيانهم واعتدائهم على الناس ،
وتخريبهم الكرخ والتل والجوسق والقطائع « حتى غدت من
فعلهم بلاقع » . ولما كان يكره آل طولون فقد شملهم بسبابه مع
الرافضة والقرامطة والزنج والصفارية والأكراد والخارجية
بالنواحي والأطراف .

وأما الشيء الثالث فعن الكوفة ، وهو قد خصها بالذم لتلونها

وغيها وكثرة أديانها وتعدد زعمائها المارقين منذ بختنصر ، يقول :
 واستمع الآن حديث الكوفة مدينة بغيها معروفه
 كثيرة الأديان والأئمة وهمها تشيت أمر الأمه
 مصنوعة بكفر بختنصر وكفر نمرود امام الكفر
 وعشش الشر بها وفرخا ثم بنى بأرضها ورسخا
 وغرق العالم من تنورها جزاء شر كان من شرورها
 وأما الشيء الرابع فهو مدح المعتضد بما شيّد ونجد ، وذكر
 خصاله وحسن سياسته وقوة تديره ورقفه بالريّة ، وتغييره
 موعد النيروز الفارسي — وكنا رأينا الأمير لا يعبأ به في وقته —
 وتأخير الخراج حتى يسهل على الناس جمع المال ، واستعانته
 بالقاسم العظيم والقضاة العدول . وكان من رأيه أن تلك الأعمال
 كلها — ولا سيما ما يتصل منها بالعمارة — إنما هي وسيلة لاعلاء
 شأن الاسلام :

وبالزيادات ولن نساها قرة عين كل من رآها
 أبنية فيها جنان الخلد لكل ذي زهد وغير زهد
 كانت على ساكنها دليلا جليلة قد وصفت جليلا
 ومظاهرات قوة الاسلام على أعاديّه من الأنام
 تخبر عن عز وعن تمكين وحكمة مقرونة بالدين
 وكذلك كان ، فظفر الأمير بما أحيا وأبقى ، وبدا كما لو كان
 أمن قلب الزمان . ولكن الحقيقة أنه لم ينل الحظوة عند رجال
 البلاط ، بل أثارهم وأثار معهم فريقا من الحرم وطائفة الكتاب
 المنتفعة بسوء الوضع . لا يعنينا عذاب الجباية ، والتنكيل الذي

كانت توضع فيه أطسات الجمر على البطون ، وتغرس أطراف
القصب في الأظافر ، وتضرب الرؤوس بالدبابيس .
قال أصحابه :

— لعهدنا بأبي العباس عبد الله بن المعتز قد قال المعتضدية
وهو يحمل نفسه في الأمر على أن ينفخ في نار الفتنة ، ويجرك
الغلمان الخاصة والحجرية وخلفاء الأستاذين !

الفصل العاشر

مجالس من المجالس

وعندما مرض الامام مرضة الموت ، جزع عليه ابن المعتز جزعا شديدا .

ان مكاتته باعتباره المطالب الأول بالعرش محل خلاف وتساؤل ، ولكن من حوله كانوا يتفقون على أنه أخلص كل الاخلاص للخليفة البطل ، كان يحبه على الرغم من تصديه له أكثر من مرة ، والأشعار الكثيرة التي كتبها تحت شتى الظروف انما كانت لتأكيد احساسه هذا الصادق .

والحق الذي لا مرية فيه أن ابن المعتز — وفيه روح الفنان — لم يكن ليرضى مطلقا أن يعرض اليد التي امتدت اليه بحسن الصنيع ، وقد استطاع بخلقه هذا أن يعيش شطرا من حياته مرموقا ، ولفظ آخر أنفاسه وهو غير راض تماما عن مؤامراته التي دفع اليها .

وأهم من ذلك كله ، أن ذلك الأمير الذي ما كان ليستحق مصيرا أسوأ مما استحقه — والمسئولون وحدهم هم الأتراك — قد استطاع ظله الحبيب أن يرفرف على الخلفاء ، فيوسعون له

فى أغلب الأحيان . ويوم رأى دم المعتضد يسيل أمامه اضطرب ،
ثم عاد الى داره بالصراة وأنشد فى أصحابه :

يا دما سال من ذراع الامام أنت أزكى من عنبر ومثدام
قد ظنناك اذ جريت الى الط ست دموعا من مقلتي مستهام
انما غرّق الطبيب شبا المبع ضع فى نفس مهجة الاسلام
وبالرغم من أن المعتضد كان فى هذه الفترة — ربيع الأول
من عام ٢٨٩ — قد أمر باقامة عدد من المطامير لأهل الجرائم ودار
بياب الشماسية فترتب على هذا انتزاع عدة دور وحوانيت من
الناس ، فان ابن المعتز الذى كان من عادته أن ينقد فاسد
الأوضاع رفض أن يعلق بشيء . بل أنشد قصيدة نبّه فيها الى
ضرورة مساندة الامام ، ولم تخل من ولولة عليه :

طار قلبى بجناح الوجيب جزعا من حادثات الخطوب
وحذارا أن يشاك بسوء أسد الملك وسيف الحروب
ومضى شهر حتى أوفى ربيع الثانى من العام نفسه على
الانصرام ، وقد تعود الناس أن يقصدوا دار الأمير لتسقط
الأخبار . ولم يكن ابن المعتز يفصح عن شيء كثير ، ألم يكن من
عادته الكتمان ؟ وراح يتذاكر معهم كل شيء يبعدهم عن مشكلات
القصر . وكان فى مجلسه اذ ذاك الصولى والحسين بن حمدان
وابن حمدون وجحظة وأبو الحسن بن العلاف الضير سمي
المعتضد وخفيف السمرقندى وغيرهم . كلهم يأكل ، ويشرب
النبىذ المطبوخ — فقد كان هذا مما لا يحرمه الامام — ويتناشد
الأشعار الردىء منها وغير الردىء ، الرفيع والوضيع ، ويناقش

المتون الشعرية التي عرضها ابن المعتز في رسالة يكتبها عن محاسن شعر أبي تمام ومساوئه .

وقرأ عليهم ابن المعتز — للتسلية والتلهية — شعرا لمتوج ابن محمود بن مروان الأصغر بن أبي الجنوب بن مروان الأكبر ، وكان شعرا رديئا جدا فقال (١) :

— أشبه لكم شعر آل أبي حفصة وتناقضه حالا بعد حال ؟
صاحوا :

— ان شاء الأمير !

فقال :

— كأنه ماء سخن لقليل في قدح ، ثم استغنى عنه فكان أيام شعر مروان الأكبر على حرارته ، ثم انتهى الى عبد الله بن السبط وقد برد قليلا ، ثم الى ادريس بن ادريس وقد زاد برده ، والى أبي الجنوب كذلك ، والى مروان الأصغر وقد اشتد برده ، والى أبي متوج وقد ثخن لبرده ، والى متوج هذا وقد جمد ، فلم يبق بعد الجمود شيء !

وارتفعت التعليقات ، واشتجرت الآراء وتفرعت . واذا الشعراء والكتاب يمرون على خاطر ، وتروى آثارهم . وكان من رأى المتنادمين أن عهد الشعر العظيم قد انتهى ، بينما أصر الصولي على أن في ابن المعتز خيرا كثيرا . ثم انبرى ابن حمدون

(١) الخبر بالكامل في الأوراق ١١٦

— كعادته — فدافع عن ابن بسام دفاعا حارا ، وروى بالمناسبة حكاية طريفة (١) .

— كنت ألاعب أمير المؤمنين المعتضد الشطرنج ، فدخل الوزير القاسم بن عبد الله وهو ينشد من قول ابن بسام :
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب (٢)
وجعل يكرر البيت وأمير المؤمنين مشغول باللعب ، ثم التفت إليه فجأة قائلا « يا أبا الحسن لم لا تقطع لسان هذا الماجن وتدفع شره عنك ؟ » فانصرف القاسم فقلت « ما قلت يا أمير المؤمنين ؟
القاسم بن عبيد الله لا يصطلي بناره ، وكأني به وقد قطع لسان البسامي حنقا عليه وهو أحد النبلاء الشعراء فيكون ذلك سبة على أمير المؤمنين » .

فأمر باحضار القاسم ، وسأله عما فعله في ابن بسام فقال « قد تقدمت الى مؤنس باحضاره لأقطع لسانه » فقال « يا أبا الحسن اننا أمرناك أن تقطع لسانه بالبر والصلة والتكرمة ليعدل عن هجائك الى مدحك » فقال « يا أمير المؤمنين لو عرفته حق المعرفة وعلمت ما قاله لاستخرت قطع رأسه » عرض بما قاله في الامام ووزيره (٣) ، فتبسّم المعتضد وقال « يا أبا الحسن ، انما

(١) راجع الخبر في معجم الأدباء ٥ : ٣٢٢

(٢) لبّيت من قصيدة كان يهجو فيها أبا القاسم لما مات ابنه أبو محمد الحسين الذي رثاه ابن المعتز .

(٣) كان المعتضد قد أمر بانشاء بحيرة تكلفت ستين ألف دينار ، ليخلو فيها مع جواريه ولا سيما دريرة فقال ابن بسام :
ترك الناس بحيرة وتخلّى في البحيرة
قاعدا يضرب بالطنج بل على بطن دريـره =

أمرناك بتخريب البحيرة لذلك ، فتقدم أنت باحضاره وأخرج
ثلاثمائة دينار فان ذلك أولى وأحسن من غيره .
وضحك ابن حمدون مليا ، ثم مضى مستطردا .
— لقد أحضره القاسم وخلع عليه مضطرا ، ثم ولاه يزيد
الصيمرة !

وقال جحظة :

— أترى أروى لكم ما يعجبني في هذا ؟ اننى أحفظ له بيتا
قاله بالمناسبة :

يا من هجونه فأغنانا أنت وحق الله أهجنا
وتطرق الحديث الى الهجاء وأثره ، فأجمعوا على أن الحطيئة
إذا كان سيد الهجائيين في عصره فابن بسام لا بد أن يكون كذلك
في هذا العصر ولا سيما بعد موت ابن الرومي . ثم قالوا ان أوجع
هجاء بلا فحش انما يقدر عليه ابن المعتز ، أفلم يقل في بدعة جارية
ابن حمدون :

حدثونا عن بدعة فأتينا وتغنت فظن في البيت بوق
وإذا بشوكة تقصف يسا فوقها وجه فأرة مخلوق
وفي مغنية أخرى أنشد :

غناؤها يصلح للتوبة وريقها من ربد الجوبة
فبادروها بالشرب قد أمسكت من قبل أن تلحقها النوبة

= وبلغت الأبيات المعتضد فلم يظهر لأحد أنه سمعها ، وأمر
بتخريب البحيرة وتقض ما حولها من أبنية ورياض .

وللنميرى قال وقد جاءتة مغنية قصيرة — كان يهواها —

على بغل قصير :

قد أتنا عنك أخبا رك في اليوم العجيب
ورأينا نصف بغل فوقه نصف حبيب
أترى ابليس يرضى بينيات الذنوب
ولبنى طولون :

يا بنى طولون ما في كم لشر من مزيد
أتم أسد الثريد ودكاكين العبيد
ولأحمد بن أبي العلاء صديقه الذى كان فى سر من رأى ثم
ارتحل الى بغداد مغلقا الدكان الذى كان يجمع شملهم :

يا راكبا فوق بغل للأرض منها دوى
جرداء تذكر نوحا فى المهد وهو صبي
له اذا ما مشى لحا ظ اليها شهي
لم يبق للرحل منها الا خيال خفى
يعرف الرسم منها شمع عليها حفى
ثم انطلق أبو العلاف الضرير يروى ما عنده من نواذر ،
وخص بالذكر نواذر أبي العيناء مع المتوكل ووزرائه . ولكن ابن
حمدان أشار بيده فجأة وقال بعد طول صمت :

— والله لا أدرى فيم كل هذا ووراءنا ما لعله أكثر جدوى
منه ، هلا سألنا ماذا يحدث لو فارقنا الامام ؟

قال ابن المعتز بحدة :

— ولكنه طيب معافى ان شاء الله !

فتدخل خفيف السمرقندى قائلا بلطف :

— ان الامام حفظه الله كان يحتمل علته لو أنه أخذ بنصح الطبيب فالتزم الحمية ، ولكنى أخبركم اليوم أنه أكل سمكا وزاد عليه زيتونا فساءت حاله ، ولما دعا بالطبيب اتهمه بالتقصير ورفسه .

قال ابن حمدون متذكرا بعض أيام خدمته عند أحمد ابن طولون :

— ألا ترون .. هكذا فعل ابن طولون وكان الموت نصيبه ووالله انى لأخشى على الامام هذه المرة .
قال الأمير :

— فليعف الله عن الامام وليمد الله في عمره ، ولكنى كنت أرجو أن يعود أبو محمد على من الرقة ، اذن لاستوت الأمور على ما ينبغى أن يكون !

وأمسك المتنادمون فجأة ، وامتدت اليه العيون فلم يكن الا أكثرهم تجهما ، وكأنه كان يخشى عصف ريح الترك بعرش آبائه وأجداده . حقا وراء الخليفة وزيره القاسم وثمة بدر مولاه وكذلك فاتك وصالح الأمين حاجبه ويوسف بن يعقوب القاضي وابنه أبو عمر محمد وابنا الفرات خير من تحكم في الدواوين وأمهر من كتبوا ، غير أن هؤلاء في نظره لا يمنعون ما يشاء مؤنس وأصحابه .

الفصل الحادى عشر المكتفى

كان هذا فى يوم الاثنين ، وفى ليلة الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الثانى أسلم المعتضد روحه لخالقه (١) ، وحضر الصلاة عليه وزيره والقضاة والأمراء . وكان قد أوصى بأن يدفن فى دار محمد بن عبد الله بن طاهر ، فحفر له فيها على عجل . ثم جلس القاسم فى الحسنى وأذن للناس فعزوه ، وبايعوا لأبى محمد على وهو فى الرقة . ولما وصله كتاب الوزير أخذ البيعة على من عنده أيضا بلقب المكتفى بالله ، وسار الى بغداد فأمر بهدم المطامير التى كان أبوه قد اتخذها لأهل الجرائم (٢) .

وكان على ابن المعتز أن يوضح موقفه من الخليفة الجديد ، لا سيما بعدما أشيع أنه هجاه وهو أمير . وكان الترك قد أوقعوا به — كالعادة — قبض عليه دون اذن الوزير ، وطلب صافى الحرمى الى المكتفى أن يقضى عليه هو وعبد الله بن المعتمد فأبى قائلا :
— هل بلغك أن أحدهما أحدث بيعة علينا ؟

(١) العقد الفريد ٥ : ١٢٦ وكانت سنة اذ ذاك خمسا وأربعين سنة وستة أشهر وأياما .

(٢) تاريخ الطبرى ٨ : ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

أجاب صافى :

— لا !

قال الخليفة :

— فما أرى لهما فى ارجاف الناس ذنبا ، فلا تعرض لهما (١) .
ولما أفرج عنه ، أرسل بقصيدة يهنئه فيها بالخلافة ، ويذكر
جهود القاسم فى سبيلها ، ثم يستعطفه ويقول :

هتاك أمير المؤمنين خلافة

أتاك على الطير السعادة واليمن

ولما أقرت فى يدك عنانها

نشرت على الدنيا جناحا من الأمن

لقد زفها فى حليها رأى قاسم

الى ملك كالبدر مقتبل السن

ألا مذكر بى عند خير خليفة

جزيل العطايا واسع الفضل والمن

مجالستى اياه فى حلم الكرى

وجائزتى تمسى الى خلفها عنى

ولما كان يعرف فيه لینه وجهه للدعة — برغم تظاهره بالحزم —
فقد اختار أرق ما عنده حتى لكأنه كان يحس أنه يولع مثله
بالملاهى ، فضلا عن أنه أصغر منه سنا :

وحلو الدلال مليح الغضب يشوب مواعيده بالكذب

قصير الوفاء لأصحابه فهم من تلونه فى تعب

(١) الصلة لعريب القرطبي ١٥ .

ويمضى على هذا النحو ذاكرا كل ما كان محظورا عليه فعله
أيام المعتضد ، ومصرحا بأن العيش ليس الا لمستهر « تظل عوازله
في شغب » الى أن يقول :

فيا حسنه بامام الهدى وخير الخلائف نفسا وأب
ورثت الخلافة عن والد فأحرزت ميراثه عن كُتب (١)
وكان في الوقت نفسه يرثي المعتضد ، وإن يكن خصومه يرون
أنه راح في الحقيقة يتشفى فيه ، ألم يقل :

يا ساكن القبر في غبراء مظلمة

بالطاهرية مقصى الدار منفردا

أين الجيوش التي قد كنت تسحبها

أين الكنوز التي أحصيتها عددا

أين السرير الذي قد كنت تملؤه

مهابة من رآته عينه ارتعدا

ولعل ابن المعتز عاود اللهو من جديد لأن شعره في هذه
المرحلة لا يدل على غير ذلك ، وآية هذا قصيدته التي مدح فيها
المكتفى والتي يقول في أولها :

ولا ورمسان النهود فوق أغصان القدود

أو لعله ظن أن كل شيء الى صفاء ، ولكن ما حدث غير كل

وجه الى غير ما توقع . لقد كان بدر المعتضدى يرجو أن يتولى

الخلافة عبد الواحد بن أحمد الموفق ، ولكن القاسم خالفه ثم

(١) هناك من يرى كالاستاذ خفاجى أن القصيدة في المعتضد ،

ولكن هذا البيت ينفى ذلك لأن المعتضد لم يل أبوه الموفق الخلافة .

خافه فأمر به فقتل ^(١) ولما كان المكتفى بعيدا عن هذه الأحداث ولم يشأ القاسم اطلاعه عليه ، حدثت بينهما جفوة وعزم على صرفه . فراح هذا يتحایل على البقاء باذلا جهدا ضخما منه ، ولكن لم يلبث أن نزلت به العلة فشغل عن ابن المعتز .

ومما زاد الطين بلة أنه أشار على المكتفى في آخر أيامه باستكتاب على بن عيسى بن الجراح أو العباس بن الحسن ، فقدم العباس للوزارة . وبذلك انتهى عهد الطمأنينة الذى رفر ف طويلا على الأمير المنكود ، وبدأت فترة القلق التى راح يعانى فيها ضيق الدخل وقلة المورد . فقد كان العباس من أبخل رجال الدولة على ابن المعتز !

وهنا ، أو من هنا قرر ابن المعتز أن يعود الى أوراقه وكتبه ، ففيها الزاد للمستزيد .

(١) راجع الطبرى ٨ : ٢٠٩ واعتاب الكتاب ١٨٤ وما بعدها .

الفصل الثاني عشر

أُسْنَادُ وَتَلَامِيذُ

انه الآن وبرغم كل شيء يعيش أكثر أيام شهرته ، وكان الصولى قد وقع على رسالته « فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه » فأذاعها وأثار بها أكثر من مشكلة شغلته هو عن كثير مما يفكر فيه ويهتم له . والحقيقة أنه كان لرأيه الذى بسطه فى « كتاب البديع » أثر كبير فى تعقيد المناقشات وتعدد الآراء ، وكان أن لهج بشعره وإلا سيما ذلك الذى يصدر عنه بالتشبيهات والأوصاف وصنوف البديع الأخرى^(١) .

أجل ...

وقد عنّ لبعض صحبه أن يتساءل كيف له أن يبرز فيما يعجز عنه عادة الأمراء وسائر الملوك حتى وان كانوا من بنى هاشم ، ولئن كان قد أذيع أخيرا أنه أولى بتسود البيان فقد أبى من جانبه أن يرفض هذه السيادة . ولعلها كانت تدغدغ آماله وتهدهد

(١) أثبت ذلك الأولون فقال صاحب العمدة مثلا ان ابن المعتز ينقاد بطبعه الى التشبيه (١ : ١٩٤) وقال صاحب معاهد التنقيص (٢ : ٤٠) انه أشعر الناس فى الأوصاف والتشبيهات .

غروره ، وتعوضه عن مرات الاخفاق التي أصيب بها في حياته السياسية .

أجل كانت رسالة ابن المعتز في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه مثارا لذلك ونحوه ، كما كانت محور الجلسة التي اجتمع فيها لقيف من صحبه لفتهم همه بالبديع . وكان قد صرح بأن مسلم بن الوليد هو أول من وسعه ، ولما جاء أبو تمام أفرط فيه وتجاوز المقدار حتى ان أحدا من بعده لم يفقه . وعندما قيل له ان يحيى ابن على بن المنجم يرى غير هذا ، ثار شيئا ثم قام الى صحيفة ورمى بها الى الصولى وهو يقول :

— ما لصاحب هذه أن يحكم ، انظر .. أترى فيها لفظة رائعة أو معنى مليحا ؟

فقال الصولى :

— الأمير أيده الله أعلم بهذا منى ومن جميع الناس !
قال :

— ما فيها لفظة تمرّ في طريق الاحسان الا قوله « والشعر صوب العقول » وقد سرق هذا اللفظ ثم أتبعه بما ليس بسرقة من لفظه الغث ، وانما أخذه من قول أبي تمام :

فلو كان يفنى الشعر أفناء ما قرت
حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت

سحاب منه أعقت بسحاب

قال الصولى في أناة والحضور صامتون :

— لقد جوده أبو تمام وبينه وإن كان المعنى أخذه ...
قال ابن المعتز مقاطعا :

— من أين أخذه ؟

أجاب :

— من قول أوس بن حجر :

أقول بما صبّت على غمامتي

وجهدى فى جبل العشرة أحطب

فقال على الفور :

— أجل من هنا والله أخذه !

وجعل المنتدون يعجبون من فطنته بالشعر حتى تجرأ جعفر

ابن قدامة فقال :

— مرحى بأمير بنى هاشم مرحى ، والله انهم لأرق الناس

أفهاما وأدقهم أذهانا وأحسنهم طبعاً ، ولكن يكفى الواحد منهم

قدحه حتى يتأجج ناره !

فقال أبو سعيد الأسدى وكان واحداً من أساتذة الأمير

وقلما زاره :

— لتكن جلستنا على ما أخذنا به من الدرس فنجزى خيراً ،

فانه لا يكون أفضل من أن نقول أحسن هذا وأجاد هذا وتخلف

هذا .

قال الصولى :

— اذن فليقل الأمير أيده الله من أين أخذ أشجع قوله :

وليس بأوسعهم فى الغنى ولكن معروفة أوسع

فقال :

— من قول موسى شهوات لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب :
ولم يك أكثر الفتيان مالا ولكن كان أرجبهم ذراعا
فقال محمد بن داود بن الجراح وكان حاضرا :
— انه والله لحافظ .

قال ابن المعتز :

— ولكن ثمة من يرميني بالتحريف ، أما تعلمون أن
أبا عمرو بن العلاء والأصمعي وأبا عبيدة وسائر علماء البصرة
والكوفة قد حكى عنهم غلط وتصحيف ؟ كما يقال انما العالم من
أحصى غلطه وزلله !

قال بعضهم :

— نعم ما من أحد الا وقد حفظ عليه شيء من ذلك .
فقال :

— أفتروني في العلم فوق هؤلاء ؟ تحدثت يوما فذكرت يوم
بُعَاث فقلت : يوم بُعَاث وكنت قرأت ذلك في كتاب علي غلط ممن
كتبه ، فسمع ذلك يحيى بن علي فطار به في الناس . ثم لم يرض
بذلك حتى عمل رسالة يعذرني زعم فيها ، ويذكر من صحَّف
وما سمع هذا غيره وغير اثنين كانا عندي ، وما كان ليسمع هذا
أحد في شهره عليّ وما أشاعه عني غيره . ثم تحمد عليّ بأنه عمل
رسالة يعذرني فيها ، فنأدى عليّ بها في الناس ، وما هذا آخر
فعلنا به واصطناعنا له ولأبيه وجده .

وكذا ذهب الحديث مذاهب ثم عاد ثانية الى البديع ، فلم
يبق مسلك من مسالك شعرائه الا ضرب بهم في شعب من شعبه
وأراهم أحسن ما قيل في بابيه الى أن قال :

— اذا قلت « كأن » ولم آت بعدها بتشبيه ففض الله فاي ،
واني اذ أعدوه أسأل ما أحسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد
من الشعر ؟

فقال أستاذة الأسدي :

— قول لييد .

وغداة ريح قد كشفت وقره اذ أصبحت بيد الشمال زمامها
قال ابن المعتز :

— هذا حسن وغيره أحمد منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة
ابن صغير (١) :

فتذاكرا ثقلا رثيدا بعد ما ألفت ذكاء يمينها في كافر
وقول ذي الرمة أعجب الى منه :

ألا طرقت مي هموما بذكرها وأيدى الثريا جناح في المغارب
فقال ابن الجراح :

— بل قول لييد :

ولقد حميت الخيل تحمل شكتي

فرط ، وشاحي ان غدوت لجامها

(١) شاعر من مازن ورد ذكره في المفضليات وكان صحابيا ، وفي
البيت يتحدث عن الظليم والنعامة ، أما الرثيد فهو المنضود يريد
بيضهما المنضود ، وأما الكافر فهو الليل المظلم .

قال ابن المعتز :

— ولكن ينزل عن قوله « وغداة ريح »

قال ابن الجراح :

— وهذا البيت :

ولو أننى استودعته الشمس لاهتدت

إليه المنايا عينها ورسولها

قال ابن المعتز :

— هذا حسن وأحسن منه فى استعارة لفظة الاستيداع قول

الحصين بن الحمام لأنه جمع الاستعارة والمقابلة فى قوله :

نظاردهم نستودع البيض هامهم

ويستودعون السهمى المقوما

فقال ابن العلاف :

— بل قول ذى الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى

وساق الثرى فى ملاءته الفجر

قال ابن المعتز :

— هذا لعمري نهاية الخبرة ، وذو الرمة أبدع الناس استعارة

وأبرعهم عبارة ، الا أن الصواب « حتى ذوى العود والثرى »

لأن العود لا يذوى ما دام فى الثرى .

قال الصولى :

— بل قوله

ولما رأيت الليل والشمس حية
حياة الذى يقضى حشاشة نازع

فقال ابن المعتز :

— اقتدحت زندك يا أبا بكر فأورى ، هذا بارع جدا وقد
سبقه الى هذه الاستعارة جرير حيث يقول :
تحى الروامس ربعا وتجدده

بعد البلى فتميته الأمطار
وهذا بيت جمع الاستعارة والمطابقة ، لأنه جاء بالاحياء
والامامة والبلى والجدة ، ولكن ذا الرمة قد استوفى ذكر الاحياء
والامامة فى موضع آخر فأحسن وهو قوله :
ونشوان من طول النعاس كأنه

بجبلين فى أنشودة يترجح
اذا مات فوق الرحل أحييت روحه

بذكرك والعيس المراحيل جنح
ويبدو أن أبا سعيد الأسدى قد خاف أن ينتهى المجلس دون
أن يلم بالرسالة عن أبى تمام ، فبادر الأمير بقوله :
— والله ما نحب أن نمضى بعد ذلك وأنت أئقذ النقاد^(١) حتى
تزودنا مما فى رسالة المحاسن والمساوىء .

(١) استعمل ابن عبد ربه هذا التعبير فى العمدة (١ : ١٨١)
وقد اعتمدنا فى هذا الفصل عليه فى مواضع مختلفة وكذلك على
موشح المرزبانى ٣٠٧ وما بعدها ، وزهر الآداب ٤ : ١٢٣ وما بعدها ،
وأخبار أبى تمام ١٨٤ ، ورسائل ابن المعتز بتحقيق خفاجى ١٦ ،
٢٠ ، ٣٣ ، ٣٨ (ط . الحلبي سنة ١٩٤٦)

قال :

— فليقرأها أبو بكر أو ليقراً منها ما اتسعت له حالنا !
وبدأت القراءة فإذا أول الرسالة اعتذار رقيق ثم اقرار بأن
بعض أهل الأدب اذا كانوا يقدمون أبا تمام على غيره فان بعضا
آخر يؤخره على ما يدعوا اليه اللجاج . فأما قولنا فيه فانه بلغ
غايات الاساءة والاحسان فكأن شعره قوله :

ان كان وجهك لى تترى محاسنه
فان فعلك بى تترى مساويه
فما أنكر عليه قوله فى قصيدة :

تكاد عطاياه يجن جنونها اذا لم يعوذها بنغمة طالب
ولم يجن جنون عطاياه انتظارا للطلب ؟ يتبدىء بالوجود
ويستريح ، وفيها يقول :

يقود نواصيها جذيل مشارق
اذا آبه هم ، عذيق مغارب
على أنه كثير الأسفار فأراد بذلك قول القائل : أنا جذيلها
المحكك وعذيقها المرجب !
وقوله فى قصيدته التى أولها :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد
وعاد قتادا عندها كل مرقد
لعمرى لقد حررت يوم لقيته
لو ان القضاء وحده لم يبرد

فلم تخرج ها هنا المطابقة خروجاً حسناً ، ولا تحسن في كل شيء ، وقوله :

لو لم تدارك حسن المجد مذ زمن

بالجود واليأس كان المجد قد خرّقا

فقوله : حسن المجد ! من البديع المقيت ، وقال يصف المطايا :

أراقها يعصيدها ووسيجها سعدانها وذميلها تنومها
الارقال ضرب من السير ، وكذلك الوسيج والذميل ، واليعصيد
نبت وكذلك السعدان والتنوم . يعنى أنه لا علف لها الا السير ،
وقد سبق الى هذا المعنى وكسته الشعراء من الكلام أحسن من هذه
الكسوة ... »

واستمرت القراءة متأنية ، والقوم وراء كل كلمة وفي صدر كل
فكرة . ولم يكن يغيب عنهم اهتمام ابن المعتز بذلك الشاعر الذى
احتل مكانة لم يستطع أن يزيحه عنها خصومه وتلاميذه على حدّ
سواء . انه دائم الاشارة اليه كثير الرواية لشعره ، ولئن كان يرام
متفردا بمذهب ويمزج فيه بين ألوان الصنعة القديمة والجديدة مع
نزعة عقلية واتجاه رمزى قصصى فقد ينبغى ألا يظهر دونه قط . ولعل
هذا سرّ عكوفه على تصويراته وتشبيهاه ، ثم لعله سرّ تعقب
سقطات الطائى على النحو الذى كشفت عنه رسالته .

وبعد أن أحصى له من خسيس الكلام وأجرئه على الأسماع
ما يعادل أخطائه التى لم يسبق اليها وما لا يترفع به عن تعبيرات
المهجنين واستعمالات المهجنين ...

كذلك بعد أن رصد لبعض ابتداءاته المذمومة نحو قوله

« خُشِنَتْ عَلَيْهِ أُخْتُ بَنِي خُشَيْن » وبعض استعمالاته للغريب
المصدود عنه ...

نقول بعد أن فعل ذلك قال « وللطائي سرقات كثيرة أحسن
في بعضها ، وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في
اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء ، وانما
سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعض عدة يرجع اليها في
وقت حاجته ، ورجا أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم
على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم ، فتعمى عليهم سرقاته .
ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في اضاءة المعنى ، أو يأتي
بأجل من الكلام الأول ، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به
ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه
لا فقير اليه » .

وتوقف الصولى وكأنه ساءه ما يورده الأمير ، فأشار القوم
أن يمضى دون أن يناقشوا أو يعترضوا . وراحوا يصبرون أنفسهم
على ما يساق عن أبى تمام وهو يغوص على المعانى فيتكلف
— كما تقول الرسالة — ويخرج عن القصد والاعتدال ، حتى اذا
قال « وقد أسقطنا من معاييب شعره شيئا كثيرا لم تثبته في رسالتنا
هذه وقصدنا من ذلك ما يبهز الحجة ويفلّ حاد النصرة » انبرى
جعفر بن قدامة يقول :

— فما تركت له أيها الأمير رحمك الله ؟

أجاب :

— ليقراً أبو بكر ولكن رأى أن الطائي كثير الشعر جدا
وأكثر ما له جيد !

ثم أوماً الى الصولى فعاد هذا الى القراءة دون أن يتبين
أحد تغير نبرة ابن المعتز الا في حالات نادرة فكان يقول « ومن
العجائب قوله » ويقول « ومن عجائبه أيضا قوله » ولا يمنعه
ذلك من استهجانه والتنبيه على وجوه السرقة فيه .
« ومن العجائب قوله :

فدى له مقشعر حين تسأله خوف السؤال كأن في خده وبر
وقوله :

ما زال يهذى بالمكارم والعلا حتى ظننا أنه محموم
وقال في وصف الفرس :

امليسـه امليده لو عقلت في صهوتيه العين لم تتعلق
فسرقه من امرىء القيس حيث يقول : متى ما ترق العين فيه
تسفل ! ويبت امرىء القيس أصح معنى لأنه أراد أن العين اذا
صعدت فيه صوبت اشفاقا عليه من أن تصيبه ، خبرنى بذلك
أبو سعيد . وأراد الطائي أن العين لا تتعلق به من اتقال لونه
واملاسه ، فأفرط ولم يصنع شيئا .

وقد انفرجت أسارير أبى سعيد الأسدى لذكره اسمه في
معرض التدليل ، ولكنه أخفى اغتباطه واتهز فرصة توقف الصولى
فقال :

— الامليد والأملد الناعم !

فقال ابن المعتز :

— ذكرتهما والله أبا سعيد !

وقام الرجل فقبل بين عينيه فكانت حركته ايذانا بانقضاء
المجلس ، فطوى الصولى ما بقى من الصفحات وهو يسأل نفسه :
— اذا كان أبو العباس قد غمر كلاً منا من بحره ما غاض فيه
معينة ، فلماذا لم يزودنا من بره لأبى تمام ما كان أحرى به
وأخلق ؟

الفصل الثالث عشر

حديث ذوشجون

كان الوزير يستصفي لنفسه من الرجال جماعة منهم أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الذي ألف « الورقة » في الشعراء المحدثين المغمورين — غالبا — وأبو الحسن علي ابن عيسى بن الجراح الذي كان القاسم يحبه وآثر العباس ممالأته . وكذلك كان من جماعة هذا الوزير ابنا الفرات أبو العباس أحمد وأبو الحسن علي ، ثم كاتب صغير طموح يسمى ابن مقله ، وفاتك المعتضدي ، وغلाम تركي اسمه يلبق ، وبشر الخادم الافشينى ، وسوسن الحاجب .

ومن المحزن أن هؤلاء — باستثناء أبي عبد الله محمد بن داود ابن الجراح — كانوا لا يميلون الى ابن المعتز . وكان أسوأ هؤلاء بعد الوزير أبا الحسن علي بن محمد بن موسى بن الفرات ، وهو يكبر الأمير بست سنوات أو سبع . ولولا وجود ابن الجراح في جماعة الوزير ، لكان أطيح بابن المعتز منذ بعيد .

اعتاد هذا الرجل الكاتب أن يحضر مجالس الأمير فيجتمع عنده بالدمشقي وابن جرير الطبري واليزيدى النحوى وابن

دريد والأخفش الأصغر والصولي وهارون بن المنجم وابن ثوابه
 الكاتب وأبو القاسم جعفر بن قدامة . وكانت مجالس الأمير في
 هذه الفترة تتجنب اللهو والقصف فتجنبها جحظة ومن لف لفه ،
 ولولا أن الصولي قد وضع في الآونة تلك كتابه « أخبار أبي عمرو
 ابن العلاء » وأراد طرحه ومناقشته لمراجعة ما فيه لما كلف نفسه
 مشقة أن يتحمل تلك المحاضرات التي لا تجعل للطرب ولا للهو
 ولا للشطرنج سيلا .

ولكن في هذه المرة خرج المجلس عما ألف أن يصدر عنه ؛
 إذ وقع بعد حادثة مصرع ثعلب ^(١) في احتفالات بغداد برؤية
 رأس صاحب الشامة القرمطي يطاف بها .

كانت ليلة ذكريات عن أساتذة الأمير ...

لكن أى حديث !

في أوائل أيام المعتضد — رحمه الله — مات البلاذري بعد أن
 هجا على علمه وفضله كل انسان حتى صاعد بن مخلد وآل وهب ،
 ثم تبعه المبرد فثعلب ، وكان بين هذين ما يكون عادة بين
 المتنافسين المتعاصرين ، اشتهر ذلك حتى قيل :

كفى حزنا أنا جميعا ببلدة ويجمعنا في أرضها شر مشهد

(١) كان ذلك سنة ٢٩١ ويحسن مراجعة تاريخ أبي الفداء
 ٦٣ : ٦٤ ، ومعجم الأدباء ٢ : ١٣٤ ويروى أن الخيل دأسته في
 الطريق وهو مستغرق في قراءة رسالة . لقد ثقلت أذنيه شيخوخة ،
 فلم يسمع حوافر الخيل فدفعته الى هوة ، ولما نقل الى بيته بات
 كالمختلط يتأوه ثم مات .

نروح ونعدو لا تزاور بيننا وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا فى بلدة والتقاؤنا عسير كلقيا ثعلب والمبرد
وكان المبرد فى الواقع يجب الاجتماع بثعلب وثعلب يكره
ذلك ، لأنه كان يخشى بيانه وسلطانه على النفوس . ولقد تنبأ
بموت ثعلب — بعد نعى المبرد — ابن العلاف الضرير ، اذ قال :
ذهب المبرد واقتضت أيامه وليلحقن مع المبرد ثعلب
واها لتلك الأيام الخوالى التى كان فى وسع المرء فيها أن
يتزود من هذا وذاك ، ويسمع من العلم أطرافا ، ويعى من صنوف
الحكمة ما تضل عنه أو هام حكماء العصر . أترى يقدر واحد
من هؤلاء المجتمعين على ما قدر عليه هؤلاء الثلاثة الذين رحلوا ؟
كان ثمة موت .. بلا ميلاد !

ولكن لا ، ففى البلد الفريد الممتلئ .. الذى يعج بالثقافات
والآراء من الشرق والغرب ، وتجتمع فيه أطراف بالمسجد الجامع
وبالمكتبات وقصور الأمراء ، ويستقبل كل يوم فكرة طريفة ...
فى هذا البلد يجب أن يكون ميلاد !

وها هو ذا مجلس فيه ابن دريد الشاب الكهل الى جانب
الدمشقى العجوز المسن . وابن المعتز والصولى ، أليسا من
الضرب الذى ينطق بالحق والحكمة ؟ وقد يلهو هذا أو ذاك ،
ولكن ألم يله البلاذرى والمبرد ؟ لنستمع الى قول الأخير فى
مجلس أنس^(١) .

(١) الأبيات فى معجم الأدباء ٧ : ١٤٠

حبذا ماء العناقيـد سد بريق الغانيات
 بهما ينبت لحمى ودمى أى نباتات
 أيها الطالب أشهى من لذيق الشهوات
 كل بماء المزن تفـا ح خدود الفتيات
 وصفق المتسامرون وقد نسوا أنهم فى مجلس أسى ، ولكن
 الحديث ذو شجون !

ولا بأس اذا عرض لسياسة الوزير العنيفة فقورن سخطه
 بسخط البلاذرى ، وقد يعنّ لأحد أن يزعم أنه سوف يوسوس
 كما وسوس أستاذ الأُمير . ثم لا بأس أيضا اذا أعيدت حكايات
 القرامطة ونوقش ابن المعتز فيما يحمله عليه هؤلاء ، وينبرى
 الصولى متسائلا فيتساءل غيره ، فتثار على هذا النحو قضية
 الطالبين ، ولا يقول ابن المعتز أكثر مما اعتاد أن يقول مبرئا
 نفسه من تهمة سبّ علىّ ثم ينشد :

رثيت الحجيج فقال العدا ة سب عليا وبنت النبى
 آكل لحمى وأحسو دمي فياقوم للعجب الأعجب
 على يظنون بى بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بى
 اذن لا سقنتى غدا كفه من الحوض والمشب الأعدب
 بلى قرمطين مـثـوا اليـ ه بالنسب الأفجر الأكذب
 ان الجميع الآن يتحدثون عن الهاشميين ، والكل يتنافس أى
 الرجال ينال حظوة فرض رأيه على غيره . وحتى بعد أن مد
 السماط وجىء بالمرق من السكباج ايذانا بطعام شهى ، لم يجر
 أى تعديل فى خط سير المناقشة . ولما قدمت مطبوعات البقول

بدأوا يخوضون في سيرة المعتمد ، ثم جرى ذكر المعتضد على أنواع الدراج والأسماك والمبتلات من اللحوم ، وكان من نصيب المكتفى السنبوسج المحشوة باللحم والدهن والزنجبيل .

ثم لم تمنع الحلوى من الفالودج واللوزينج ولا النقل من أن يقرّ الجميع بأن المكتفى دون أبيه برغم اقتصاراته المتعددة على القرامطة . لقد وقع تحت تأثير وزيره العباس والحرم ومولاه فاتهك ، ولا يغنيه قط أن يكمل قصر التاج ويبني مسجداً في ساحة البلاط ثم يعمر خزينة العامة بما يزيد على أربعة آلاف ألف دينار ! ان شيئاً يجب أن يقع .

يجب أن يعمل الراشدون في هذه الأمة على أن يعلم الامام بأن الأطماع مستحكمة من جميع الجوانب والأموال تستخرج بكل سبيل ، حتى ليهون كل ما فعله أبو الصقر اسماعيل بن بلبل . وتوقف ابن الجراح — وقد كان هذا رأيه النهائي — ولعله ظن أن في الحضور من لعله يشي به على نحو ما ، ثم استطرد ملتفتاً الى ابن المعتز :

— لا فض فوك أبا العباس يا أمير اذ قلت « أفما ترى بلداً أقمت به » ولعل من يروها ، ولكن المعتضدية هي المبرزة .. هلموا يا حفاظ !

وأنشدت الأرجوزة فسل في نهايتها عن العلة في أنه جعلها من المزدوج ، أليست رجزاً والرجز أحلاه وأفخمه ما يمضي كله مصرعاً ؟

ويحس بالرضى اذ رأى الحديث يجاوز نقطة الخطر ، فيمسك

الخيطة وينطلق محاولاً أن يكشف لهم عن أنه في المزدوج إنما ينبغي
السهولة ارضاء للعامة مع الخاصة . وأما الرجز المصرع فهو للقلّة
التي يرضيها ما يفرضه الروى من إحالة واغراب ، وهو يريد
أن يروع كما روع ذو الرمة ، وهذا الدليل :

قد أغتدى والصبح ذو مشيب

بقارح مسـوّم يعبوب

ذى أذن كخوصة العسيب

أو آسة أوفت على قضيب

يسبق شأو النظر الرحيب

أسرع من ماء الى تصويب

ومن تفوذ الفكر فى القلوب

وأجدل حكم بالتأديب

صب بكف كل مستجيب

أسرع من لحظة مستريب

وكان الأمر يحتاج الى دليل ثان والى ثالث والى رابع ،

فمضت الروايات بالشاهد بعد الشاهد حتى أوغل الليل . وحن

موعد انصراف الجماعة ليستولى على الأمير ذلك السأم الفظيع

الذى درج على أن يصيبه فى الأيام الأخيرة . ولكن ها هو ذا يمن

يهمس اليه بأن بنت الكراعة فى الناحية الأخرى من الدار تعد له

مجلس غناء مع ظريفات بغداد ، فيبش شيئاً ثم يقطب ولا يفعل

أكثر من الاستمرار فى المناقشة .

الفصل الرابع عشر

رحلة خائبة

أصبح ابن المعتز فلبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الحسنى

لقد أقر على نفسه اقرارا خطيرا عندما أعلن أنه راحل عن بغداد الى سرّ من رأى ، وكان قد سوّى مشكلته مع أخيه اسماعيل وأعاد تجديد الدار بالمطيرة . وبما تبقى لديه من مال جدّد قبر أبيه ونسّق ما حوله وكأنه يريد أن يبدأ عهدا جديدا للبلد الذى أسرع اليه الخراب .

انه يذكر أنه كتب لأحد أصدقائه يوما يقول عن هذا البلد « الظاعن منها ممحوّ الأثر والمقيم بها على طرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا ، بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك ، تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد » .

ومع ذلك فهى فى نظره أفضل من بغداد الوسخة السماء ذات الماء الحميم — كما يقول — والشمس التى تحرق والتراب الذى يثور .

ان ادباره عنها وفيها أهلها الذئاب ذوو المال المكتوم ، الذين تنهضهم رأس يطاف به أو جثة تعلق ، وتقعدهم سهلة جواد فوقه فارس من الترك .. ادباره عنها دونه اقباله عليها ؛ فما عاد يعنيه أن يرتع بين مبانيها وقصورها ومصانعها ، وما عاد يرضيه أن يقع بصره على الأسوار في كل مكان وعلى القباب المرفوعة فوق العمد الدقاق حتى لكانها معلقة في الهواء .

أجل ...

وجدرانها المزينة وسقوفها الملونة بنصوص الفسيفساء وتصاوير النبات والطيور والحيوان .. كلها لا تذكره الا بالحرمان الذي عاد يلح عليه منذ استولى الوزير أبو أحمد العباس — هذا الجرجرائي الملعون — على السلطة ومن ورائه الحرس التركي ونساء القصر . وكان قد اختار للدواوين أصدقاءه ومقربيه وأوقع بين آل الفرات وآل الجراح ليتمكن من بسط يده الى كل شيء .
حقا عادت الى الدولة هيبتها وانكسر القرامطة أكثر من مرة ، وها هو ذا كبيرهم ذكرويه مقتول^(١) ورأسه معلق في ساحة قصر الخلد القديم منذ ثلاثة أيام ، غير أن الأمور لا تبشر الا بضيق كبير . والا فهل بعد أن يمد يده الى مال ابن الجصاص شيء أكثر مهانة .

(١) هاجم ذكرويه عام ٢٩٤ قوافل الحجاج ونهبها ، فأرسل المكتفى اليه وصيف بن صوار تكين صديق ابن المعتز فتمكن من أسره جريحا . ولم يعيش ذكرويه بعد ذلك أكثر من ستة أيام (راجع تاريخ أبي الفداء ٢ : ٦٥)

هو من أجل ذلك يريد أن يطلب من الخليفة أن يسمح له بالرحيل الى البلد الذى أحبه ، ويترك مدينة الزندور التى بنتها الشياطين كما يقال ^(١) ، ويبعد عن مرأى الروميات والسنديات والتركيات والنوبيات اللائى يتناثرن فوق كل جسر ويقعدن فى كل دار وقد تزين بالدباج وعلقن فى أعناقهن قطع العقيق أو صلبان الذهب . ولعلهن يرقصن من « الدستبند الى الايلا » كما يعرف هو تماما ، وكما أثبت فى صنعة الغناء بكتابه الجامع . فى كتابه « الفصول القصار » ^(٢) أودع أمورا عن الدنيا وخباياها وضروب النعيم والشقاء بها ، ولكن الحياة أكبر من كل ذلك وأعقد .

ولهج فى كثير من شعره بالحكمة والموعظة ، وكشف عن تجربته . ولكن هيهات ، فما يحدث كل يوم يقصر عنه كل جهد ! ولذا ليس أمامه الا العزلة ، وما من شئ واحد من الأشياء التى كانت تغريه بقادر على أن يبقيه فى المدينة التى بنتها الشياطين وتسكنها الشياطين .

فلما وصل الى القصر توقف شيئا . انه مقام على شاطئ النهر

(١) تاريخ بغداد ١ : ٦٣

(٢) هو تدوين لخواطره ومشاهداته وآرائه فى السياسة والزهد والصفات . والكتاب ليس موجودا ، ولكن الاثبات القديمة أشارت اليه واقتبست منه (راجع على سبيل المثال زهر الآداب للحصرى ٢ : ٢٤٢ ، ٣ : ٩٢) . ويرى الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل أن هذا الكتاب بما فيه من عناية بروابط الناس وشئون الحياة يدل على طموح ابن المعتز الى الخلافة ورغبته فيها (راجع عبد الله بن المعتز صفحة ١٨٠ وما بعدها)

وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على الماء المنساب ،
وبعضها الآخر على ساحة العرض . وثمة بهو أشبه بمصطبة عظيمة
مرصوفة بالرخام الملون ، ويظلها سقف عليه نقوش صفر لامعة ،
والسقف قائم على أساطين رفيعة محلاة بالذهب .

وكان ما بداخله أروع ، أين منه ما في داره البغيضة ؟
واقترب من القاعة التي يجلس فيها الخليفة ، فرآه قاعدا
أو لعله نصف قائم على سرير مرصع بجواهر لا كجواهر ابن
الجصاص . كان السرير على سدة في صدر القاعة منصوبة بين
اسطوانتين رائعتين مجللتين بالوشى المنسوج بالذهب ، ومن خلف
السدة وعلى الجانبين الغلمان الحجرية وفي يد كل منهم سيف
مسلول ، وغير بعيد وقف مولاه سوسن .

أهى معركة ؟

وبدا الخليفة أسود الشعر وافر اللحية عريضا ، ولكن لونه
باهت يضافى على وجهه مسحة كهولة مع أنه فى الثلاثين . وكان
يتسهم ، فانحنى الأمير وقبل ما بين يديه ، فقال المكتفى :

— مرحبا بالعم مرحبا !

قال ابن المعتز :

— نعم الله عند أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .

أشار إليه المكتفى فقطع كلامه ، وقال هو :

— ما تأمر به يا عماء ؟

أجاب :

— أن أترك هذا البلد الى سامرا فان رأيت ...

قاطعه مرة ثانية قائلا :

— ولكننا نحتاج هنا الى جميل اسهامك فيما نصنع ، فكيف أعزك الله تهجرنا يا عم .
أجاب ابن المعتز :

— الأمر على ما تعلم قلة في المورد وضيق في الدخل حتى لم أعد قادرا على أن أفتح بيتي للضيف والعلماء .
تساءل الخليفة :

— فماذا يفعل وزيرنا أبو أحمد .

فأطرق الأمير ، وأراد سوسن الكلام ولكن المكتفى قال :
— سنرحل معا الى سامرا للتصيد فارسيم يا سوسن بانفاذ من يصلح الطرق ويعد العلوقة والمير وكل ما تدعو اليه حاجة العسكر . وأما أنت يا عم فستكون معنا وسأكلم أبا أحمد أمامك ! ألا تدري ماذا هنالك ؟ ان جماعة من الكتاب قد غلبوا على ضياعنا في القاطول وعليهم من حقوق بيت المال ما نحتاج معه الى القبض عليهم وارتجاع ما حصل في أيديهم .

وبهت ابن المعتز ، ثم وجد نفسه يسأل :

— من هؤلاء يا أمير المؤمنين ؟

قال :

— أبو الحسن بن الفرات فان أبى رحمه الله وثقه ووثق أخاه أبا العباس وعول عليهما في حفظ الأموال فنالا منها .

وهنا قال سوسن :

— لقد راجعهما الوزير فصدقت أمانتهما يا مولاي ، وصحح

أبو الحسين أمس ثلاثين ألف دينار عند صاحب بيت المال وأخذ الوزير خطه بقبضها .

فضحك المكتفى وقال :

— فلتكن رحلة سرور !

ولم ينته اليوم حتى كان الموكب على الطريق ، كل فرد فيه سعيد سوى ابن المعتز . حتى الوزير كابي العينين كان يضحك ، وكان يسمع الى الغناء بقلب ابن العشرين ، وقيل انه قصف في فسطاطه بعد أن آوى الخليفة الى فراشه .

والهواء بارد وقلب ابن المعتز أكثر برودة ، ومن حوله محمد ابن داود بن الجراح وعلى بن عيسى ومحمد بن عبدون يؤكدون جريمة ابن الفرات وفساد صنيعه .

هكذا تدار الأمور ، والخليفة الضعيف لا يعرف شيئا . يخرج للقصص ، ولا يعنى الا بملاهيته ، ونسى كل شيء حتى قضية عمه . أجل نسيها ، لأنه لم يشر اليها قط مع أنه جمعه بالوزير على مائدته ، وكان على المائدة نفسها يحيى بن المنجم فخاض في خصومته معه !

عجبا ...

من ساعتها قرر ابن المعتز ألا يتكلم ، وعندما طلب اليه ابن الجصاص أن يوسط الى أبى أحمد فارس داية المكتفى — وكانت كلمتها مسموعة عند الخليفة ووزيره — رفض باصرار ، وقضى أيام الرحلة يشعر بالخيبة والمرارة . ولم ينقذه من الموت

سأما الا برم الناس بشدة البرد الذى يلاقونه والقشف الذى
يقاسونه حتى أغروا جارية فغنت :

قالوا لنا ان فى القاطول مشـتـانا

ونحن فـأـمل صـنـع الله مولانا

والناس يأتـمـرون الرأى بينهم

والله فى كل يوم محدث شـاـنا

ولما انتهت سأل المكتفى عن قائل الشعر ، فـقـيـل :

— يحيى بن على المنجم !

فأثنى عليه وأمر بالرحيل الى بغداد ، فعاد ابن المعتز الى بيته
كسيفا . وفى اليوم التالى علم أن المكتفى مريض ، وأن الدابة
فارس اجتمعت مع جيجك أم الخليفة ، ثم استدعت مؤنسا والوزير
وسوسن المولى . ولما خرج هؤلاء من عندها راح اسم أبى عبد الله
محمد بن المعتمد واسم أبى الفضل جعفر بن المعتضد يدوران على
الألسن ، ولم يذكر أحد أبا العباس عبد الله بن المعتز !

الفصل الخامس عشر

مع الزمّن

جلس ابن المعتز وقبالتة هارون بن المنجم يقرأ عليه كتابه « البديع »^(١) ويراجع معه ترجمة وضعها حنين بن اسحاق لكتاب أرسطو « الخطابة » وكان الأمير غير ملتفت تماما الى قراءته فقد

(١) كانت النسخة المنقولة عنه تتعرض لشك الباحثين ، الا أن أول ناشر لها سنة ١٩٣٥ بلندن - وهو المستشرق الروسى كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق - أكد فى مقدمتها التى كتبها بالانجليزية صحة نسبة الكتاب الى ابن المعتز ، مستدلا على ذلك بنقل متأخرى النقاد عنه وأشاراتهم المستمرة اليه . وقد قام الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ باعادة نشر الكتاب ، معتمدا على طبعة أوروبا ، ومضيفا اليها اضافات مفيدة . وإذا كان الدكتور محمد مندور يرى فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » أن ابن المعتز قد أخذ مصطلحات كتابه أو بعضها من ترجمة حنين بن اسحاق لكتاب أرسطو فى الخطابة (ص ٤٤) فان الدكتور الكفراوى فى كتابه « عبد الله بن المعتز العباسى » يرى أن معظم ما فيه من معلومات كان متداولاً بين نقاد العرب (ص ٢٩) برغم ما يقوله ابن المعتز فى متن الكتاب « وما جمع فنون البديع ولا سبقنى اليه أحد » وان يكن فى موضع آخر من كتابه يقول « البديع اسم موضوع لفنون الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو » .

بلغه اليوم أن أحد اللذين دار اسمهما على الألسن في ولاية العرش أصيب بفالج ، اذ كان محمد بن المعتمد في مجلس العباس بن الحسن يناظر عمرويه صاحب الشرطة . فثار واحتد ، ثم وقع ، فنقل الى بيته داخل قبة خاصة وهو مشلول (١) .

« قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذى سماه المحدثون البديع ، ليعلم أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن . ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمي بهذا الاسم ، فأعرب عنه ودل عليه . ثم ان حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك وأساء فى بعض وتلك عقبى الإفراط وثمره الاسراف . وانما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع . وكان يستحسن ذلك منهم اذا أتى نادرا ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل . وقد كان بعض العلماء يشبه الطائى فى البديع بصالح بن عبد القدوس فى الأمثال ، ويقول لو أن صالحا نشر أمثاله فى شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق أهل زمانه وغلب على ميدانه ، وهذا أعدل كلام سمعته فى هذا المعنى » .

ويمضى ابن المنجم ، بينا ابن المعتز يقلب الأمر على وجوهه .

(١) الصلة ص ١٦ فى أحداث سنة ٢٩٥

وقد كان حريصا جدا فى هذه الأيام على أن يحسب حساب كل شىء ، ويسأل ، ويعلل . فسن يدرى ، فلعل الوزير كان يقصد شيئا من وراء تلك المناظرة العجيبة ، أو لعله أراد أن يهيبء الناس الى الأمر الجديد وكان المكتفى قد راح فى أول غيبوبة له . ولكن أين من يفضحه ؟

أين ابن بسام الذى سكت عن هجائه أخيرا ، وكان له فيه كل يوم قطعة هجاء ؟

وابن المنجم يقرأ ، ويمضى خطوة خطوة . فالبديع فن قديم لم يخترعه أبو تمام كما يزعم الزاعمون ، وانما هو موجود فى كلام العرب وفى القرآن الكريم ، وبذلك يكون المحدثون غير سابقين الى شىء قط وان يكن لهم فضل وضع الاسم .

والوزير أبو أحمد العباس — فكر ابن المعتز — قد قدم للناس بنهاية تلك المناظرة اسم الخليفة الجديد .. جعفر بن المعتضد ذلك الحدث الصغير الذى ذهب مهنتا الى الحسنى بيوم ميلاده منذ ثلاثة عشر عاما أو نحو ذلك ! أترأه يستحق أن ينصب اماما على الأمة والمكتفى يصر على اختياره ؟

ولكن كيف يتولى امامة المسلمين غلام فى الثالثة عشرة ؟ ألم يعد فى البيت العباسى الكفاء سواء ، أم هذه ارادة الوزير الداهية ومن ورائه نساء القصر وصافى الحرمى ومؤنس وفاتك المعتضدى ؟

ولكن صوت ابن المنجم يصل الى سمعه متحدثا عن الاستعارة — وهى أول الأبواب الخمسة التى اشتمل عليها كتابه — فينصت

الى قوله فيها انها « استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها » . لم يخالفه أحد في ذلك ، فضلا عن أنه اتفق مع المعلم الأول على ما جاء في ترجمة حنين . لقد مضت عشرون سنة وهو يقول هذا ، ويردد نفس ما رده في الأبواب الأربعة الأخرى وهى « التجنيس » و « المطابقة » و « ردّ العجز على الصدر » و « المذهب الكلامي » .

ومع قلة أمثلة الكتاب — وهى شيء يعترف به — وانحصاره فى سبعة عشر ضربا من ضروب البلاغة كحسن الخروج والكناية والافراط فى الصفة ولزوم ما لا يلزم وتأكيد المدح بما يشبه الذم، واعتماده على أستاذه ثعلب أحيانا وأستاذه المبرد أحيانا أخرى.. فانه كان لابد أن يقرر بغير غرور « وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ولا سبقنى اليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى اضافة شيء من المحاسن اليه فله اختياره » .

أجل .. لم يكن ثمة غرور الا عند أبى أحمد ، وبغروره ذاك سطا على ما فى حوزة الناس وغش واحتال ليؤكد أن الخديعة سلاح يمكن أن يكسب به معركة البقاء فى هذا الزمن المخاتل . هو يقول انه حفظ كيان الدولة من التصدع ، وخصومات الناس وقيام الفرق تقول غير ذلك !

ان هذا ضرب آخر من الغرور .

وأفطع منه استكباره ، ورغبته فى أن يتملقه الناس وهو يتملق فاتكا وسوسنا وغيرهما . بل يتملق فارس الداية ، ويمشى

في جماعته ابن الفرات ومثله ممن يسلّي بدلوه فيما يستقى منه ،
ولله درّ ابن بسّام حين قال ذات يوم :

وزارة العباس من نحسها ستقلع الدولة من أسسها
شبهته لما بدا مقبلا في حلل يخجل من لبسها
جارية رغاء قد قورت ثياب مولاه على نفسها
وضحك بصوت عال ، فانقطع ابن المنجم ، وراح يتساءل .
والكن ابن المعتز طلب اليه أن يمضى زاعما أنه كان يجب ألا يساوى
بين الاستعارة في بابها وأبواب التجنيس والمطابقة وردّ العجز على
الصدر ، لأنها ليست مثلها مجرد محسنات لفظية يحدد بها مذهب
البديع . الحقيقة أنها لباب الشعر ، كما أن المذهب الكلامي جدل
عقلى يمكن أن يميز الشعر الذى صدر عنه أبو تمام وإن يكن
ضربا من التكلف في التفكير أخذه عن الجاحظ ومثله من علماء
الكلام .

هكذا كان يجب أن توضع الأمور ، وهكذا كان يجب أن
يقع التقدير !

ولكن ما كان أشبهه في فورة شبابه بما يقدم عليه أبو أحمد
اليوم ! ألم يوعز الى من قال انه لا يستحسن تولية جعفر لصغر
سنه مع أن المكتفى أبدى رغبته في حفظ الخلافة في أبناء أبيه ؟
لقد أثار شكوك الخليفة شيئا فطالب باحضار القضاة في يوم
الجمعة الماضى — لاحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة —
وأشهدهم أنه جعل ولاية العهد لجعفر (١) .

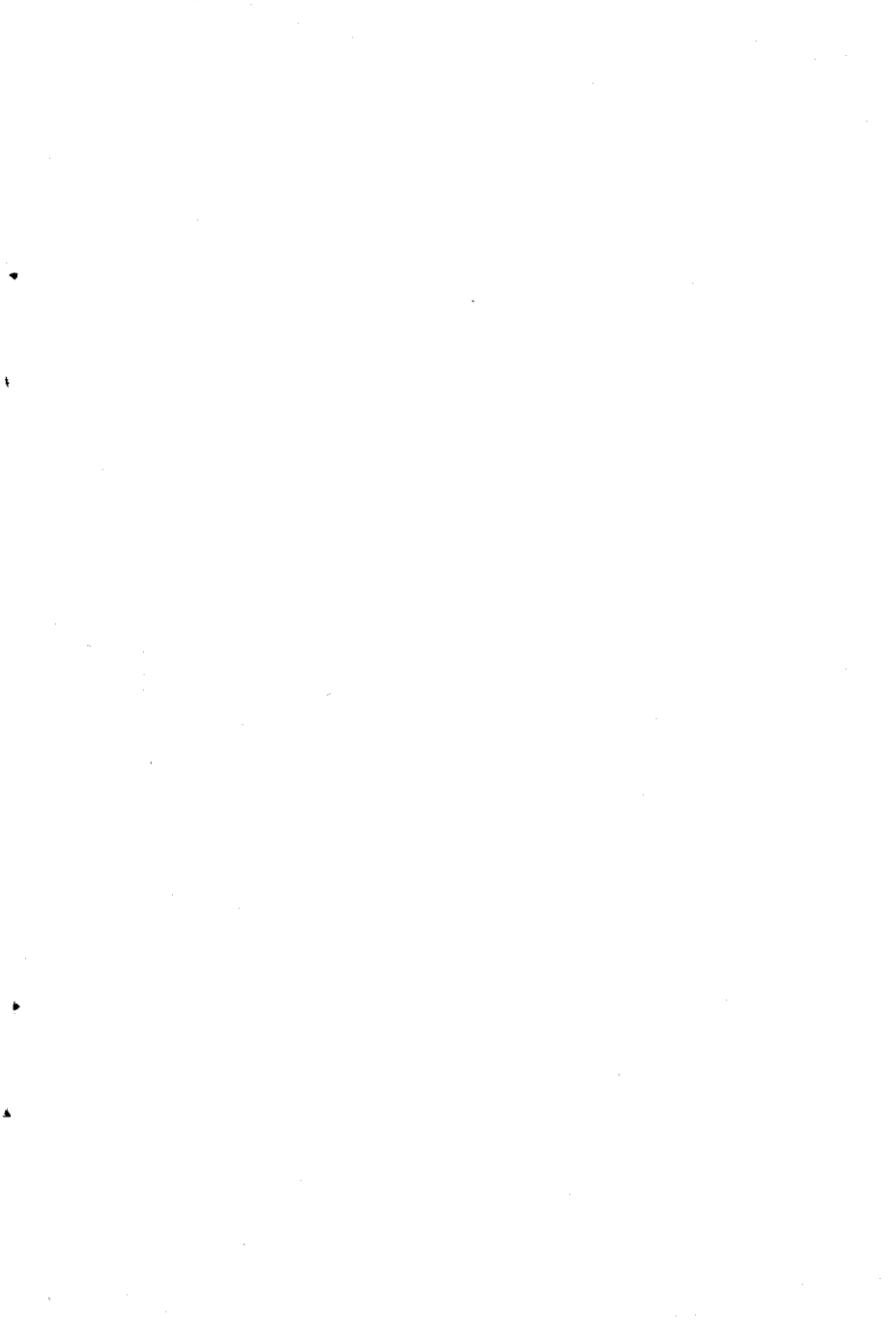
(١) راجع ابن الجوزى فى المنتظم ٦ : ٦٧

ما ذلك التردد ؟

اقرأ يا رجل ، فقد أفاد الكتاب شيئا ولم يفد الوزير . ووالله لو أنه اقتصر على تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى شيء من أبواب البديع ، لكفاه . غير أنه مع ذلك ديوان في نقد النصوص ، تناقش به الألوان الجميلة .. كلُّ في باب ، ثم يكون الى جانبها دائما ما عيب من الشواهد المتكلفة السقيمة . وقد يبدو هو أحيانا متعجلا فيه ، وقد يضرب بعرض الحائط أجزاء من السند ، بل قد يلجأ الى التعميم والاجمال .. الا أنه مع كل أولئك حافظ به على مستوى رفيع من الأداء ، وقدم شروحا وتصريفات للكلمات على نحو ما فعل أساتذته في كتبهم . وقد عرضت له المرة بعد المرة فرصة التعديل والتطوير ، فأبى ؛ لأنه كان من رأيه أنه مهما يحاول فيه فلن يكون ما يأتي به الا نافلة .

وانتهى ابن المنجم ، وتغير الحديث بسرعة الأحداث التي كانت تجرى في بغداد اذ ذاك . وصرح ابن المعتز — كما اعتاد أن يفعل — بأن لديه سببا قويا يدعوه الى الاعتكاف ، لئلا يورطه أحد في مناقشات لا ترضى أولى الأمر . فهو ليس كالمغامرين اليائسين الذين لا يجدون وجها للعيش الا في مخاطرة من المخاطر ، انه لا يطمع في أكثر من الهدوء والأمان مرتفعا ما استطاع عن مستوى الأرض المغمور بالادران والمهانة . لقد علمته التجربة أن شيئا سوف يحدث ، وكان من رأيه أنه كلما بعد عن القلب جاوز منطقة الخطر !

الباب الثالث
المواضع



الفصل الأول

داود

لم يكن ابن المعتز يعرف ماذا يدبر داخل الحسنى على وجه التحديد ، لأنه من ناحية كان قد ترك الأمور للقدر فهو وحده صاحبها ، ومن ناحية أخرى كانت الأحداث لا تجرى بمنطق بحيث تفسح المجال للتدبير المسدد . وكان قد بلغه أن المكتفى أرسل يستدعى أخاه جعفر من دار ابن طاهر ، حيث كان يلزمه هو وأمه شغب وخاله أبو القسم غريب وقهرمانة تدعى أم موسى وخادم يدعى شفيعا .

ثم أشيع أن الخليفة لم يعط عهدا صريحا لأخيه ، ومن أجل ذلك راح الوزير يستشير جماعته . وقد أعلن محمد بن داود ومحمد بن عبدون أنهما يرشحان أبا العباس عبد الله بن المعتز ، اذ بالاضافة الى صداقتهما له كانا يعهدانه رجلا قديرا ذا تجربة كبيرة وعلى احاطة كاملة بأمور الحرب والسياسة^(١) .

كان ذلك يوم الجمعة الحادى عشر من ذى القعدة ، وفي

(١) مسكويه فى كتاب تجارب الأمم ١ : ٢٠ والصابى فى تحفة الأمراء ١١٤ وما يأتى بعد ذلك منقول بنصه عن هذين الكتّابين .

مجلس كتاب الحضرة أفتى غير واحد بابن المعتز أيضا . ولكن
أبا الحسن بن الفرات أمسك ، فقال له العباس :

— لم أمسكت ولم تورد ما عندك ؟
فقال :

— هو أيها الوزير موضع امساك .
قال :

— ولِمَ ؟

فقال مشيرا الى الخليفة المريض :

— انه وجب أن ينفرد أعزه الله بكل واحد منا فيعرف رأيه
وما عنده ، ثم يجمع الآراء ويختار منها بصائب فكره وثاقب نظره
ما شاء . فأما أن يقول كل واحد رأيه بحضرة الباقيين فربما كان
عنده ما يسلك سبيل التقية في كتمانها وطيه .

قال الوزير أبو أحمد العباس :

— صدقت والله قم معي !

وأخذ بيده ودخلا ، وتركوا الباقيين في مكانهم ، فقال له ابن

الفرات :

— قررت رأيك على ابن المعتز ؟

قال الوزير وهو يجس نبضه :

— هو أكبر من يوجد !

فقال :

— وأى شيء تعمل برجل فاضل متأدب قد تحنك وتدرّب

وعرف الأعمال ومعاملات السواد ومواقع الرعية في الأموال ،

وخبر المكايل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعملات ومجاري الأمور والمتصرفات ، وحاسب وكلاءه على ما تولوه ، وضايقهم وناقشهم وعرف من خياناتهم واقتطاعاتهم أسباب الخيانة ؟ كيف يتم لنا معه أمر ان حمل كبيرا على صغير ، وناقش جليلا على دقيق ؟ هذا لو كان ما بيننا وبينه عامرا ، وكان صدره علينا من الغيظ خاليا ، فكيف وأنت تعرف رأيه ؟

قال أبو أحمد :

— وأى شيء فى نفسه علينا ؟

قال :

— أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك فى حوائجك فلا تقضيها ويسألك فى معاملاته فلا تمضيها ؟ وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر ، ويتوصل فى الوصول اليك ليلا فلا تأذن . وكم رقعة منه جاءتك بنظم ونثر فلم تعبأ بها ولا أجبتة الى مراده فيها ! وكم قد جاءنى منه ما هذه سبيله فلم أراع فيه وصولا الى ما يريد ايصاله ! وهل كان له شغل عند مقامه فى منزله وخلوته بنفسه الا معرفة أحوالنا والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا وحسدنا على نعمتنا ؟ وهذا هو يعتقد ان الأمر كان له ولأبيه وجده وأنه مظلوم منذ قتل أبوه مهضوما مضغوطة ، فكيف يجوز أن نسلم اليه نفوسنا فنتحرس فضلا عن أموالنا ؟

فقال العباس :

— صدقت والله يا أبا الحسن فمن يقلد وليس هاهنا أحد ؟

قال ابن الفرات وقد أدرك أنه تمكن من الوزير :

— تقلد جعفر بن المعتضد فانه صبي لا يدري أين هو ، وعامة سروره أن يصرف من المكتب فكيف أن يجعل خليفة ويملك الأعمال والأموال وتدير النواحي والرجال ؟ يكون الخليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة ، والى أن يكبر تكون محبتك قد انغرست في صدره وحصل المعتضد في نفسه !
قال الوزير محاورا :

— فكيف يجوز أن يبايع الناس صبيا أو يقيموه اماما ؟
فقال له :

— أما الجواز فمتى اعتقدت أفت أو نحن امامة البالغين من هؤلاء القوم ؟ وأما اجابة الناس فمتى فعل الخليفة شيئا فعورض فيه ، أو أراد أمرا فوقف ؟ وهذا وأكثر من ترى صنائع المعتضد ، واذا أظهرت أنك اعتمدت في ذلك مراعاة حقه وقرار الأمر في ولده وفرقت المال وأطلقت البيعة ، وقع الرضا وسقط الخلاف .

وسكت قليلا ثم استطرد :

— وطريق ما تريده أن توقف بعض أكابر القواد وعقلاء الخدم على المضي الى دار ابن طاهر وحمل جعفر الى دار الخلافة ، وأن تستر الأمر الى أن يتم التدبير ، وان اعتاص معتاص مد بالعطاء والاحسان .

فقال العباس :

— هذا هو الرأي !

الفصل الثانى

بيعة وضيفة

وفى صباح السبت التالى^(١) أخبر الوزير مؤنسا بما تم بينه وبين ابن الفرات فاستحسنه . ثم أمر صافيا الحرمى بالتوجه الى دار ابن طاهر واحضار جعفر الى قصره الذى يسكنه على دجلة لينجدر معه الى الحسنى .

وخلال ذلك أسلم المكتفى روحه الى بارئها ، وتأكد انه أوصى لأخيه جعفر بالخلافة .

وهرع الوزير أبو أحمد الى قصره منتظرا صافيا ، ولكن هذا انحدر من دار ابن طاهر بحراقتة متجاوزا قصر الوزير وقد ظن أنه يريد القبض عليه لتغير رأيه فيه — وقد كان كثير التلوث مذبذبا — فلما أخبر أن صافيا منع ملاح الحراقة من الوقوف على قصره عاد الى الحسنى بهامته الكظة وهو يقول :

— لقد كنت أريد أن أصحب أمير المؤمنين ، فلو كان استصباه أحد كنت آخذ بيده حتى يتم الأمر على ما قدر . وكانت شغب وسائر الحرم من وراء الستار ينصتن ، ووقف

(١) راجع الصلة ١٦ ، ١٧ والمنتظم ٦ : ٦٧ ، ٧١ وتحفة الأمراء ١١٦ والعقد الفريد ٥ : ١٢٧

جعفر حدثنا ربة أبيض البشرة دقيق الملامح يتطلع الى سرير العرش مبهوتا ، ثم أمر بحصير صلاة وأدّى أربع ركعات . وراح يرفع صوته بالدعاء والاستخارة ، حتى أجلس على السرير بين يدي صاف وفاتك ، والوزير يتطلع بعينه الكايتين .

واتفق على أن تكون المبايعة — التي تمت يوم الأحد — قصيرة مختصرة المراسم . لقب فيها بالمقتدر بالله بعد أن ثبت أنه « بلغ » في شعبان الماضى أى قبل البيعة بثلاثة أشهر . وخرج المبايعون وهم لا يعرفون أرضوا هم عن امامهم الجديد أم لم يرضوا ، ولكن صوت الوزير كان يردد :

— أنا أوقع لكم وأتمم افعلوا ما فيه المصلحة !

ثم غسل المكتفى ودفن بجوار أبيه في دار ابن طاهر ، ونشبت فتنة بين الجند ورجال البلاط ففرقت فيهم أموال البيعة وذكروا بالمعتضد وما ينبغي نحوه من حق الوفاء .

وكان ابن المعتز على رأس المبايعين ، وقد تأخر حتى يزجى تهنئته لشغب . ثم خرج في صحبة صاف الحرمى ونصر القشورى وفاتك المعتضدى ، وهو لا يعرف لماذا يصحبونه ، ثم تبين بعد قليل من مسيره معهم أنهم يريدون اختياره . فصرح لهم بأنه راض كل الرضى عن المقتدر ؛ فهو كالابن له في درجات النسب ، وأبوه ولى نعمته ، فضلا عن أنه ينزل على رغبة الأمة .

وسرى عنهم أو اطمأنوا ، فانطلقوا يحكون أطرافا من حياة الخليفة « العظيم » ويعرضون لصلاحه ولطفه وذكائه ، قال القشورى :

— انه كان يقول لو وليت لجعلت نقش خاتمي « الحمد لله
الذى ليس كمثل شئ وهو على كل شئ قدير » ومن أجل ذلك
آثر أن يلقب بالمقتدر .

وقال فاتك المعتضدى :

— انه لا يكون بين يدي جاريته ظلوم ويسمع أذان الله حتى
يهرع الى الصلاة ناسيا كل شئ .
وقال الحرمى :

— ولكن ما قولكم فى جميل صنعه وبره ؟ لقد مشيت يوما
بين يدي المعتضد رحمه الله وهو يريد دور الحرم ، فلما بلغ الى
باب أم المقتدر وقف يتسمع ويتطلع من خلل الستار فاذا
بالمقتدر ، وله اذ ذاك خمس سنين أو نحوها ، جالس وحواليه
مقدار عشر وصائف من أقرانه فى السن ، وبين يديه طبق فيه
عنقود عنب فى وقت لا يوجد فيه العنب . والصبى يأكل عنبه
واحدة ثم يطعم الجماعة عنبه عنبه على الدور ، حتى اذا بلغ الدور
اليه أكل واحدة مثل ما أكلوا حتى فنى العنقود ، والمعتضد يتميز
غيظا . فرجع ولم يدخل الدار ورأيته مهموما فقلت « يا مولاي
ما سبب ما فعلته وما قد بان عليك ؟ » فقال « والله يا صاف لولا
النار والعار لقتلت هذا الصبى اليوم ، فان فى قتله صلاحا للأمة »
فقلت « يا مولاي حاشاك أى شئ عمل ؟ أعيدك بالله يا مولاي
اللعين ابليس ! » فقال « ويحك أنا أبصر بما أقول ، أنا رجل
سست الأمور وأصلحت الدنيا بعد فساد شديد ولا بد من موتى .
وأعلم أن الناس بعدى لا يختارون غير ولدى وسيجلسون ابنى

عليها وما أظن عمره يطول للعلة التي به (١) فيتلف عن قريب ولا يرى الناس اخراجها عن ولدى ولا يجدون بعده أكبر من جعفر ، فيجلسونه وهو صبي له من الطبع في السخاء هذا الذي قد رأيت من أنه أطعم الصبيان مثل ما أكل . ساوى بينه وبينهم في شيء عزيز في العالم ، والشح على مثله في طباع الصبيان ، فتحتوى عليه النساء لقرب عهده بهن فيقسم ما جمعه من الأموال كما قسم العنب وتحدث الأسباب التي يكون فيها زوال الملك « فقلت « يا مولاي بل يبقيك الله حتى ينشأ في حياة منك ويصير كهلا في أيامك ويتأدب بآدابك ويتخلق بخلقك ، ولا يكون هذا الذي ظننت » .

وسكت صاف فقال ابن المعتز :

— ليته بقى !

فقال فاتك :

— ماذا تعنى أيها الأمير ؟ أفتحسب أن تصبح الصورة بعينها

كما قال المعتضد ؟

قال الأمير وهو يبتعد :

— والله لا أدري .. لا أدري !

وكان قد عقد العزم على أن يتخير أحد المواضع البعيدة عن الناس . فثم تطيب النزهة ، ويلتقى بطلاب الشراب القدماء .
الا أن قدميه قادتاه الى دار ابن جرير الطبرى ، ولما دخل عليه

(١) على هو المكتفى وكانت علة وربما في حلقه لعله السرطان ، وأطلق عليها في عصره الخنازير .

وجوده بعد أن قدم البيعة عاكفا على الجزء الأخير من كتاب التاريخ
الذى تجرد له منذ سنوات فقال له :

— أو سجلت البيعة الجديدة أيها الشيخ ؟

أجاب الطبرى مستأنيا :

— لم يحن الوقت بعد .. فيم العجلة رحمك الله ؟ ولكن

أتظن ما حدث صوابا كله ؟

قال ابن المعتز :

— والله لا أدرى .. لا أدرى ! ومع ذلك فحسبى الأسوة

بأعيان القوم وان أخطأوا . ولعمري أنت لن ترى سواى أكثرهم

وفاء بالعهد ، وأصدقهم حملا لهذه البيعة !

فأطرق الطبرى مليا ثم همس :

— فيم مجيئك اذن أيها الأمير ؟ ان نفسى والله لتحدثنى

بخطير وأعجب لها أن تصورك لى نفسين اذا مضت احدهما بقيت

الأخرى .

قال ابن المعتز :

— ماذا تقصد يا شيخنا ؟

قال :

— ان لم أخطىء أراك موزعا بين شيئين أحلاهما مر ، فأما

الخلافه فأيسر ما فيها أن تقلد أصحابك فيكثر أعداؤك ، وأما

الأخرى ..

وسكت فقال الأمير :

— ما الأخرى ؟

أجاب :

— حياتك هذه اللاهية التى لم يمنعك عنها شيخوختك المبكرة
ولا كثرة السعاة عليك .

فقال ابن المعتز :

— كلنا يلهو أيها الشيخ .. وهل نسيت ما فعله الأئمة كلهم ؟
أقسم أن امامنا الصغير لن يكون أكثر من أكبر كبير فيهم !
فأشار الطبرى أن يكف ، ومضى يقول :

— أما أن تتحدث عن أمير المؤمنين المقتدر بالله فليس لك
فيه حيلة ، وأما سلفه فقد اجتذبوا قلوب الناس بما شيدوا
وما جمعوا من أسباب القوة والسلطان .. ألم يقضوا على الزنج
ويشتتوا القرامطة ؟ ألم يستردوا مصر والشام من الطولونيين ؟
ماذا فعلت أنت ازاء هذا ؟

قال ابن المعتز :

— وقفت معهم ثم شيدت دونهم ما سوف يخلد .. قل بربك
أعزك وهداك هل تقيس التاج والثريا بطبقاتى ان كنت قرأته
أو بفصول تماثيلي ؟ بل هل تقيسهما ببعض شعرى .. بالمعتضدية
مثلا ؟ أنا لا آتية ولا أتبجح ولكنى أنشد الحق وأقرره ولا أريد
من الباطل أن يرتفع !
ولم ينتظر أكثر من ذلك ، فقد انصرف وهو يستشعر أنه
مضيّع لا يفهمه أحد .

الفصل الثالث

التدبير الجدي

من المؤكد أن تولية المقتدر كانت غير شرعية ، إلا أن أحدا لم يجرؤ على أن يجاهر بذلك سوى قاض واحد أطاع ضميره وقال :
— هو صبيّ ولا تجوز المبايعة له .

فقتل.. أمر بقتله أبو أحمد العباس بن الحسن وشجعه أبو الحسن ابن الفرات الذي أصبح فيما يبدو صاحب المشورة . وعلى الرغم من أن أم المقتدر كان يرجع إليها في كل شيء — وكانت رومية لها تدبير الروم ودهاؤهم — وتمنع عن القصر حصيف الرأي قوى الخطر^(١) فان الوزير قد زاد في الأمر بعد أن فوّض إليه كل شيء في الظاهر واستكبر على الناس وأساء معاملاتهم حتى قال الشاعر :

يا أبا أحمد لا تحسن بأيامك ظنا

واحذر الدهر فكم أهملك أملاكا وأفنى

كم رأينا من وزير صار في الأجداث رهنا

فتجنب مركب الكبر وقل للناس حسنا

وعلى أثر ذلك أمر باسم المقتدر أن يرفع الحوانيت التي بناها

(١) يروى أنها كانت لا تعنى إلا بحديث سندباد وكتب عجائب البحر وقصص الحيوان كالسنور والفأر .

المكتفى في باب الطاق على أساس أنها أضرت بالضعفاء ، وكان
يشيع أن الخليفة سأل : كم تغلّ ؟ فلما قيل له ألف دينار كل
شهر قال :

— وما مقدار هذا في صلاح المسلمين واستجلاب حسن
دعائهم ؟

ولكن هيهات !

ان التذمر بات أكبر من أن يسكت عليه ، ووجدت بين صفوف
آل الجراح حركة ترمى الى تغيير الأوضاع بأيّ شكل . وانضم
اليهم الحسين بن حمدان قائد الجيش في حروب القرامطة وكان
قد اصطدم بأم موسى ، وصرح بأن مؤنسا الخادم يوشك على
الادبار لأمر مثل هذا .

وكانت الأرزاق اذ ذاك توزع بغير حساب ، وردّت رسوم
الخلافة الى ما كانت عليه من التوسع في الطعام والشراب ، وفي
الوقت الذي احتشد فيه الجلساء وأكابر الملّيين ومن يجري
مجراهم على أبواب الحسنى من أجل ذلك وخصّص قصر الرصافة
للجوارى والحرم المحتاجات ، كانت دار ابن المعتز خاوية على
عروشها . وكان هو يتوصل للعيش بمثل ما يتوصل به الطالبيون
الذين يهجوهم ، حتى غدا أضحوكة منهم .

ولقد فكر أن يقصد الى دار آل وهب بباب المخرم ، ثم فكر
في ابن الجصاص وما يملكه من مال وجواهر ، وفي محمد بن أبي
داود بن الجراح الذي لم تنتقص منزلته فيما أشيع عنه وعلى رغم
كراهية أبي الحسن بن الفرات له وتأثير ذلك عند الوزير .

غير أنه وقف عند مرحلة التفكير ، وكم طاف على بقلته
 — بلا موكب — شوارع بغداد وكم وقف على ديوان السواد
 وورد على باب الشاسية ! وفي إحدى المرات عاد فوجد
 — لدهشته — رقعة من الوزير أبي أحمد يقول فيها « قرأت
 كتابك تذكر فيه علتك وما تريد يأتيك بمكانك » ولم يكن ذكر
 شيئا ولا شكاة ، وخشى لو أن أحدا أنهى باسمه كتابا الى
 ديوان التوقيع حيث تنتهى عادة رقاع من يسأل شيئا عند
 أمير المؤمنين .

ألم يكن كل شيء يجرى بغير منطق ؟

وأتاه في يوم ثان أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ، وكان
 قد علم أنه وهب دارا من الدور التى كانت فى يد فارس داية
 المكتفى وعمل لبستانها مسناة^(١) وذلك نظير تدريب المقتدر على
 الشطرنج ، فسأله عن حاله فقال :

— لا أجد من آمنه على نفسى غيرك وقد قصدتك لتفتح لى
 ما أغلقه دونى قصر الامام !

قال ابن المعتز :

— ما شيء فى يدى أبا بكر ، أم لملك اخترت أن تكون
 التابع فى هذا الزحام ؟

قال أبو بكر :

(١) المسناة : سد بينى لحجز مياه النهر وبه مفاتيح للماء تفتح
 على قدر الحاجة .

— أذلّ الحرص أعناق الرجال .

فقال ابن المعتز :

-- ولكن ألا تحفظ من قول ابن الفرات الرجل الأول بعد
أبى أحمد ما قاله من أن السيف تابع والقلم متبوع ، وقل سيف
غلب القلم الا كان داعية الخراب !

وهزّ الصولى رأسه وخرج ، فلم يلبث أن قدم عمال الوزير
ومعهم ما وعد به ، وسلم رقعة واضبارة وكان فى الرقعة
« يا أبا العباس عافاك الله فى هذه الاضبارة سعايات بك وبأخيك
اسماعيل من أسبابكما وردت علىّ منذ وليت حكم هذه الأمة ،
فبعثتها لك لتعرف بها من عليك أن تحذره » .

ولم يكن فى الاضبارة الا أسماء لا تعنيه فى شىء وان يكن
بينها النميرى ويحيى بن على بن المنجم فى داليتة « أبعد البين صبر
أو هجود » وأحمد بن أبى انعاء صاحب دكان سرّ من رأى ،
وابن بسام الشاعر وابن أخت ابن حمدون . وكذلك كانت هناك
مقتطفات من أقواله فى « الفصول القصار » وبعض أبيات من
المعتضدية وردت فى التعريض بالحكام . وقد سلمها الى يمن ،
وهو يقول :

— خذها فاطرحها فى الكانون فما كنت لأعنى بهذا الصغار ،
ووالله لا أدرى هل أمدح أبا أحمد على ما وهبه لى من تفضله
أم أهجوه ؟ لكم أخشى بواده وشره !
وفى هذا الوقت بالذات — ولم يكن قد مرّ الا أربعة أشهر
على تولية المقتدر — مضى هذا الوزير ومعه فاتك المعتضدى الى

محمد بن داود بن الجراح بداره . فاذا هناك الحسين بن حمدان ،
فدار الحديث عن غضبة مؤنس الخادم من حرم القصر لتدخلهن في
كل صغيرة وكبيرة وتنحية الرجال أمثاله عما هيئوا له ، فقال
الحسين :

— قد عرفنا خطأنا الا أنه قد لزمننا عهده .

فقال الوزير ملتفتا الى ابن الجراح :

— أتذكر يا أبا عبد الله يوم استشرتك فيمن يلي الخلافة

وكان معك ابن عبدون ؟

وهنا دخل مؤنس وهو يضحك — ويبدو أنه كان على موعد

معهم — ثم أخرج صفحة فيها أبيات من الشعر قال انها لابن
بسام وراح يقرأ :

يا رب انك عدل	على البرية شاهد
ثلاثة ليس فيهم	الا ثقیل وبارد
بنو الفرات ثقال	وكلهم لك جاحد
يا رب ان كان لابی	د من ثقیل فواحـد

وتعالى الضحك ، ولكن الوزير ذكر أن أبا الحسن بن الفرات

استقل بديوان الخراج ومن استقل بهذا الديوان نال الوزارة ،
ثم انقطع ليسأل فجأة :

— وماذا قال البسامي فيّ أيضا ؟

ولم يتكلم أحد ، فتولى هو الحديث معلنا أنه الملموم ، وأنه

يطمع في الاصلاح وارجاع الأمر الى أصحابه ، فقال ابن الجراح :

— هيهات .. ضاع ما نشدناه للناس من احسان !

قعاد الوزير يقول :
— وماذا يردنا اليوم عن رده فنحق الحق ونعطى الأمر
لصاحبه ؟

أجاب ابن الجراح :
— البيعة والناس الذين نستنصرهم .
قال الوزير :

— أما البيعة فأمرها هين وصاحبها مسلوب الارادة مذهب
الجنان ، وأما من نستنصرهم فهم كثير !
قال ابن الجراح :

— لا أعنى عامة القوم فهؤلاء يسهل ارضائهم ولكنى أعنى
الوجوه وهم لهم فى حكم المقتدر اربة .
قال مؤنس لأول مرة :

— وماذا عنكم أتمم يا آل الجراح ؟
قال ابن الجراح :

— أنا لا أضمن الا نفسى ، ولا بأس من ابن أخى أبى الحسن
على بن عيسى ، وانه والله كما أعلم وتعلمون منذ تقلد ديوان
المغرب رجل صدق وبلاء .
قال فاتك :

— أنا أضمن لكم الحجرية والمفلحية والديلمة وغيرهم من
الممالك ، كما أضمن المصافية بباب العامة .
قال ابن الجراح :

— لا أغنى هؤلاء أيضا ، وإن يكن ينبغي حساب أمرهم ،
ومع ذلك فمن سواهم وسوى على بن عيسى ؟
قال الوزير :

— أبو المثني وأبو عمر القاضيان !
قال ابن الجراح :

— بس الرجلان .. الأول يعلن في اليوم أنه نادم لأنه بايع
لصبي فأحدث حدثا وغدا يعلن شيئا آخر ، والثاني هو ما هو من
القدر وضعف الهمة وسوء التدبير ، فمن غيرهما ؟
أجاب الوزير :

— محمد بن سعيد الأزرق الأنباري كاتب الجيش وبدر
الأعجمي ووصيف بن صوار تكين .
وسكت فقال مؤنس :

— تذكرون هؤلاء وأمامكم ابن حمدان فهو الدرع الذي
يحمي صدوركم وظهوركم في الأمر الجديد .
وعلى هذا النحو امتدت المناقشة وطال القيل والقال ، ثم
وكل لكل من ابن الجراح وابن حمدان أمر ابلاغ ابن المعتز على
أنه اختير للأمر الخطير باجماع قادة الأمة واستشارة زعمائها ،
ومن ثم يجب أن يخلع المقتدر بعد أن تجيء المبايعة الجديدة من
الناس في الأطراف ^(١) .

(١) راجع تاريخ ابن الاثير ٦ : ٢ - ١٢٣ (ط . الشريعة
سنة ١٣٥٧)

الفصل الرابع

وراء المصير

نحن الآن في عام ٢٩٦٦ وحركة التذمر تشتد محتجة على سوء الأحوال . وكان منجل الطغيان يحصد رقاب القادة في السر ، ويظهر غريب الخال بالقوة التي تظهر بها أم موسى ومن ورائهما شعب تبذر في أمور النفقة تبذيرا مخيفا ، وتبسط سلطانها باسم الخليفة الذي تفرغ تماما لجاريته ظلوم .

ولم يعد هناك من يقرأ ابن المقفع ولا أبا حيان ، كما توقفت حركة نشر الكتب . واكتفى بروايات تميم الدار و غرائب الأصمعي ونوادر أبي العيناء ، تسرد ما لم تكن هناك جريدة عن الحسنى .. جريدة بالأنباء قصيرة ، لاذعة ، مخرجها الأول الوزير أبو أحمد على النحو الذي يشاء !

ان بغداد الآن موضع يتصف بالقلق والترقب ، والأيام التي كانت تعج بالاحتفالات قد انقضت ، وانقضت معها ضروب الزينة والزرکشة كما اختفت الجوارى اللائى كن بهجة الطريق بشعورهن المطمومة وأقيبتهن التي تلتزم الجسد حتى لترسم للعين تقاطيعهن الممكورة ، وأفسحت السبيل للفرسان والشرط والجواسيس .

لم يكن هناك شيء واضح وراء كل ذلك ، ولكنه الحدس !
وبحدسه فارق ابن المعتز بغداد في ثياب العامة .. ازار بسيط
وقميص ودراعة ثم سترة طويلة رخيصة ، وترك يمنا وبعض خدمه
على وعد أن يعود الى داره بالصراة بعد شهور .

ان وجهه جامد ولكن نظرتة العميقة تنم عن أسي ووجد ؛
فوجد الدنيا الى خلف وبقاؤها الى تلف ، وبعد عطائها المنع وبعد
أمانها الفجع ، وانها لطواحة طراحة آسية جراحة ، فمن لم يتأمل
الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته الا على مقاتله ^(١) .

لقد اعتاد أن ينفذ من حوله الناس ، ثم يقبلوا . ولكنه في
هذه المرة يبدو البادئ بالفرقة مدفوعا من احساسه بالخواء الذي
يدفعه دفعا الى البعد عن أقرب الخلاء .

ان السأم هو الشيء الذي فات الجاحظ أن يصفه للناس كما
وصف البخل مع الجوارى والعلمان .

فمثل ابن المعتز كمثل الطير لا بد أن تغريه الريح بالحركة كي
يظل جاثما فوق الرياض والأنهار ، ولا بد أن يكون بحاجة الى
الجو المنعش الذي يحلق فيه برضى وأمان ، فاذا غامت السماء
وثب الى حيث يكون الصحو .

وهو في هذه المرة وراء الصحو في قطربل أو طيزنا باز بعد أن
رأى المطيرة قفرا أو كالقفر !

لقد كان أبو نواس كلما أعيته الحيلة وسدت أمامه السبيل
يذهب الى « جابر » الذي يعتق الشراب سنين بالحيرة ويقول

(١) هذه السطور من نشر ابن المعتز في مآثوراته .

حالما يراه « لا يجتمع هذا والهم في صدر واحد » ويسمع الى
ضرباب الطناير فيسكر في الليلة الواحدة سكرات ، ويعانق
ويجشم معتدلات القوام ذوات الحسن مرات
فأين جابر ؟

انه يعرف بعض الحانات مخصصة لنزه الخاصة والسراة من
الناس ، ولكنه لا يريد لها في هذه المرة .

انه يريد هذه المتطرفة متعددة العرصات التى يجتمع فيها
السفلة وترتع الركائب حولها ، ولا يكون فيها رقيب الشرطة
الا كما يكون طراق الليل مجونا وخلاعة . ولا بأس اذا كانت هناك
هذه المقرطة التى اختفت من شوارع بغداد ، وتستطيع أن
تتشنى كما يتشنى الغصن تحت كل هبة نسيم :

صحوت ولكن بعد أى فتون

فلا تسألونى توبتى ودعوونى

ودب مشيبي بعضه نحو بعضه

فأخرجنى من أنفـس وعيـون

فأفردت الا من تصنع خائن

سريع شرار الشر غير أمين

وخمارة يعنى المسيح بدينها

طـرقت وضوء الصبح غير أمين

فلما رأتنى أيقنت بمعـذل

قليل بقاء الوفر غير ضنين

وقامت وفي أجفانها سقم الكرى
تقض بكفيها خواتم طين
فلما رآها الليل حث جناحه
مخافة صبح في الدنان كمين
كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى
نطير غرابا ذا قوادم جون
فما زلت أسقاها بكف مقرطق
كغض ثنته الريح بين غصون
لوى صدغه كالنون من تحت طرة

مسكة تزهى بعاج جبين
والطلب من ورائه ، لا يهتدون اليه ولا يعرفون مكانه .
سألوا عنه الأصدقاء والمعارف ، نطاحة وجحظة والدمشقى وابن
المنجم والصولى وابن حمدون وجعفر بن قدامة وغيرهم ، وتعقبوه
على شطآن دجلة والفرات ونظروا فى قوافل المسافرين وفى شتى
الزوارق والسميريات .

كانوا يعرفون ما طبع عليه من الافتتان بالطبيعة ومحاسنها ،
فالتمسوه فى كل بقعة طيبة .

وكانوا يعرفون تماجنه ، فطلبوه فى أكثر من مكان مريب ..
وهم بين مشفق أن يكون خليفتهم الجديد — خليفة الغد
الذى قيل انه صاحب علم وفضل وأدب — حيث يكون
الخلعاء ، وبين طامع فى أن ينتهى كل شىء قبل تمكن شغب وبقية
الأتراك فيصعب اليوم ما كان بالأمس سهلا هينا .

أين هو .. أين هو ؟

يا عين نوحى بأسرار الهوى نوحى
قد برّح الكتم بى كل التباريح
كم ليلة قد عدونا تحت كوكبها
والفجر يومىء للسارى بتلويح
تجرى بنا من بنات الريح ملجمة
طارت بكل خفيف الجسم والروح
ينبهن أنفاسنا المسك العتيق اذا
وطئن من لم القيصوم والشيخ
ومغرمين بشرب الرّاح قد هتكوا
أستارهم ولقوا عدلا بتصريح
خاضوا الظلام الى خمار دسكرة
منعم النوم يقظان المصاييح
بيت يشخب زقا أو يفرّغه
بأنطع من رخال الذّيع مذبوح
قلنا له هاتها واحكم على كرم
فقد ظفرت بفتيان مساميح
وقد أتوك الى غمى لتعديهم
على الهموم بتفريج وتفريح
فصبة فى كأسه راحا معتقة
ظلت تحدث عن عاد وعن نوح

وعندما عثروا عليه لم يكن قد ذاق شيئا من هذه الراح
المعتقة ، ولئن لم يكن في استطاعة أحد من الرسل أن يخبره شيئا
فقد حدس أن يكون ثمة أمر خطير . ولقد دفعه فضوله أولا الى
أن يمضى معهم ، فهو حتى لو عرف مقدما ما وراءهم لما منعه شيء
عن الاعتذار .

لقد كانت رحلته صعبة بعض الشيء .
وكان هو — ولا مرء — من أسرع الملولين ، ومن أعجل
الخلق حركة وتحولا !

وما من شيء أدل على ذلك ثم على فضوله من أنه وهو الذى
كاد يموت لهفة على أماكن الريب يسمح لغيره بأن يقوده عنها الى
مصير مجهول .

وهو وراء هذا المصير المجهول شأنه كشأنه وراء مغامرة ما ،
بحاجة الى الاثارة ، فحسبه أن تكون أيامه حافلة بالتغير .

ولما دخل بغداد شاهد عمارية على بغال وجندا وغلمانا يمضون
الى باب الكناس يريدون الكوفة ، فرجع أن يكون ذاك لطالبي
خرج . الا أنه لم يلبث غير قليل حتى شاهد شفيعا التركى
— وكان يعرفه ويكرهه — على فرسه ومن ورائه يخب غريب
الخال فى ثيابه المزركشة ، ثم يعلن المنادى :

يا أهل بغداد أعدوا البهم للأعياد .
وكانت العادة تجرى على أن يفرق فى العامة أيام المناسبات
المختلفة أجزاء من بعران ويلتزم على ذلك مال يؤخذ من الخزانة
بلا حساب ، وقد يلحق به ما يغطى ما يفرق على القواد والفرسان

والرجالة والخدم والبواوين وأصحاب الرسائل ووجوه الكتاب
وخزّان الدواوين في كل مناسبة ، وعاد المنادي يعلن :
البدار للحسنى البدار .

وأنشأ غريب الخال يعدو حول العمارية وهو يرفع صوته
فلا يصل الى أحد . وما كان عليه أن يفعل ذلك ، ولكنه كان يحاول
أن يؤكد بنفسه أن قصر الخليفة للأمة كما كان أيام المعتضد
والرشيد . وقد لاحظ ابن المعتز أن العامة لم تكن تهلل كما رآها
تهلل قديما في مثل هذه الأحوال ، بل لعل بعضهم كان أكثر حفاوة
به عندما وقعت عليه الأنظار .

وقبل أن يدخل داره لمح جنديا أو جنديين من الأتراك يرمقانه
شذرا !

الفصل الخامس

محاولة إقناع

ان سيرة ابن المعتز كما يرويها أصدقاؤه وخصومه على حد سواء تنبض بحرارة حياته وفورة أحاسيسه ، ولقد أضفوا عليها نتيجة جموحه طابع السرعة والتهاون حتى ليبدو غالبا — وهو العاقل المجرب عالم العصر من غير شك — مسيرا أو أداة طيعة في كل يد . وكان لهم في هذا السبيل أن يخترعوا الصور والعبارات التي تبرر لینه ، وأما هو في حقيقة الأمر فلم يكن مضطرا الى شيء من هذا لأنه لو تكلفه ما استطاعه . كان شاعرا فذا .. وبمنطق الشعر أراد أن يعيش حتى وهو يفكر في عرش أييه ! .

وهذا ما يجب أن يحسب حسابه ...

بل هذا هو السبب المباشر في أن سيرته تحفل بعدد هائل من المواقف المتعارضة ، لم يستطع أى رجل قبله ولا بعده — فيما سجل التاريخ — أن يقدم ما يعدله تناقضا وتباينا .

ان الذى يجهد الانسان فى صنعه كى يحمله ساعة على الريح أو فوق لجة ماء يصنعه أى طائر بغير مجهود وبلا تفكير ، وكان ابن المعتز أشبه بهذا الطائر . وكان عليه كالطائر

تماما أن يستسلم للمقدور ويجعل خفق جناحيه ملكا للغيب ،
أفلم يكن مدفوعا الى ألا يفكر ولا يأخذ أهفته ؟

لئن كان من خطل الرأي أن يوصف الطائر بالغباء ، فمن
الخطل كذلك أن نأخذ ابن المعتز بتلك النقيصة . وهل كان له
وهو شاعر أن يلتصق بالتراب ؟

لقد جاءه ابن الجراح وابن حمدان .. مثلا العقل والقوة ،
وطرحا الموضوع أمامه فبهت ، ثم تردد ، ثم أعلن الرفض ! انه
لا يستطيع أن يحمل عبء الخلافة مع أنه كان فيما بينه وبين
نفسه يديم الفكر فيها ، وكأنما التفكير في شيء يختلف كل
الاختلاف عن تمرسه والابتلاء به .

ان العرش واجب وليس مطمعا !

واذا كانت شغب وغريب يؤثرانه من جانبه الثانى فليس
الامرض فى نفسيهما ، وهو بعد لم يمرض . وليتحدث الناس به
وعنهما وليعجبوا لما يجرى فى الخفاء فهل ترى تطلعوا اليه
— فى هذه الأزمة — حتى بان لهم ما رأوا معه التعويل عليه فى
سياسة الأمور ؟

هو لا يدرى .. هو لا يدرى ! ولكن ابن الجراح يكشف له
بحكم اتصاله بأسباب الحكم عن تفصيلات لم يكن يتصور أنها
تغيب عنه . وساق ما ساق وهو يعلم أن هذه هى السبيل الوحيدة
لاستهواء قلب الشاعر ، ثم قال له :

— ألم تر الساعة فزع شغب حتى أرسلت أعوانها يتملقون
العامة بشيء هو لهم ؟ لقد اتصل بى قبل مجيئى هنا خادم ممن

أعول عليه في مراعاة أخبار المقتدر فعرفني أنه شاهده وقد
جمعت له أمه جماعة من خواص مماليكها ، واقامتهم حواليه
بالسلاح ، وأسبلت الستور في غرفته عليه وظلوم الى جانبه
لا تفارقه ليل نهار . وأما أم موسى فسيكون من نصيبها في حيلة
النداء برسم الأضاحى مئات المئات من الدراهم ، ولا تسلب بعد
عما سيأخذه غريب الخال وشفيع ونصر وغيرهم ممن أعمتهم
غواية التبذير !

قال ابن المعتز :

— ولكنى بايعت ، ولو تأملتكم فخطر عليكم الخاطر من بعض
أفكارى لرأيتم أننا لا نبايع الا لابن المعتضد . وهو من هو ،
كم ألبسنى من حلل الاحسان والجميل .

قال ابن الجراح :

— اننا بايعنا للمقتدر ولم نبايع للحرم أيها الأمير ، ومع ذلك
فالمقتدر ضعيف وباسمه يقلد الطماعون مال الضياع والجهيزة
فيربو عندهم المال وأمور المسلمين ضائعة لا يجدى فيها نصح
ولا تنفع مشورة .

قال ابن المعتز :

— لعلمكم آسفون أن يسقط من أرزاقكم شيء ، فلا بأس
وقد أسقط من أرزاق أولاد القرابة ما زادت به أموال الحرم
والحواشى والفرسان .

قال ابن حمدان :

— ما لهذا جئنا أيها الأمير فان ما استغل من الضياع أو وفر

من أرزاق المحتاجين ليس وحده مبررا لخلع البيعة ، ولكن الأمة
لم تعهد صييا يحكم وله في قرابته العاقل العدل الحكيم الرشيد ،
وبه تعادل الأحوال . اننا لا نريد أن يضيع الأمة حدث غرير !
قال ابن المعتز :

— لا أستطيع أن أكون يدا عليه فوالله لو جاءني منه ما كان
يجيئني من أبيه أو أخيه لأحبس أو أطرده لما عصيت .
وهنا صاح ابن الجراح :

— ان لم نخلعه نحن نخلعه غيرنا هكذا يقول مؤنس فماذا
تقول أنت أعزك الله وأسبغ نعمة الهداية عليك ؟
قال :

— أقول ما سوف تقوله العامة عمل ليرد الخلافة الى
بيت أبيه !

قال ابن الجراح :

— ليكن ، أفليس هذا حقك ؟ ألم تنف في سبيله وتشرد ؟
ألم ينكل من أجله رعاك الله وحفظك بأهلك فماتوا أو ضاعوا
أو عفت عليهم ريح النسيان ؟
صاح ابن المعتز :

— ويحك أبا عبد الله ، ما هكذا تأتي الى الأمور فلقد هيئتني
وانى لأسأل من نصيرنا في هذا العمل الجليل .

قال ابن الجراح :

— كلنا .. كل وجوه الناس وقوادهم .

فتساءل ابن المعتز :

— حتى ابن أخيك ؟

قال ابن الجراح :

— ان أبا الحسن على بن عيسى معنا فى هذا الأمر .

فأطرق الأمير ثم همس :

— والوزير ؟

أجاب ابن حمدان :

— حتى هو !

قال ابن المعتز :

— هذا المذبذب المتردد الذى لا يرى أسهل من التحول

والنكوص ؟ هذا الذى لا يرى أسهل من الغدر سبيلاً ؟

قال ابن حمدان :

— دعه لى أيها الأمير ففى سيفى شفاؤه !

فانتفض ابن المعتز قائلاً :

— تريد أن تقتله ؟

أجاب ابن حمدان :

— وأقتل كل من يتصدى لثورتنا .

فصرخ ابن المعتز :

— هذا والله ما لن يكون ، لا أريد أن نأخذها حرباً قط .

قال ابن حمدان :

— تدبير بغير سيف أعزك الله ؟ بئس رأى اذن . وفيم

أعددت قواتى أيها الأمير ؟ أنت يا أبا العباس تعرف القصر منذ

نشأت ، وقد اتصلت بأسبابه سنين كثيرة فهل رأيت من يدع القوة

جانبا حين تكون الحاجة اليها ويأخذ بدلا منها بالسلم طريقا غير
مضمون ؟ وهبك على ما ذكرت من أنك رأيت أن تحفظ للمعتضد
حسن صنيعه ، فهل استوفيت كل ما ينبغى أن تستوفيه من الحيطة
والحذر ؟

قال ابن المعتز بحزم :

— بالسلم أو فكدع !

فقال ابن حمدان :

— القوة أولا !

وهنا صاح الأمير :

— والله لن أقبلها الا بشروطي !

فأسرع ابن الجراح يقول وقد خشى أن يضيع الأمر بين عناد
الرجلين :

— ليكن أيها الأمير ، أو على الأقل نحفظ للمقتدر حياته .

قال :

— وحياة أمه وخواصه !

الفصل السادس برغم النخاسة

كان هذا في يوم الخميس لتسع ليال بقيت من ربيع الأول من السنة نفسها ، وفي يوم الجمعة نُمي الى المؤتمرين أن الوزير عادت اليه نوبة تردده على أثر مقابلة تمت بينه وبين فاتك المعتضدى ، فاستقر رأى ابن حمدان بعد أن استشار كلا من ابن الجراح ومؤنس على ازالته من طريقهم . وكان قد بلغهم من ناحية أخرى أن بعض الترك — على رغم كراهيتهم لابن المعتز — باتوا يأترون بأمر سوسن الحاجب الذى جعل تديره مؤنس .

وفي يوم السبت ركب الوزير يريد بستانه المعروف ببستان الورد ومعه فاتك المعتضدى . فاعترضه ابن حمدان وهو فى صحبة يدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ، وعلاه بالسيف وقتله . ولما أراد فاتك الافلات عطف عليه القائد الثائر فقتله تحت سمع الناس وأبصارهم !

وأسرع القائد الى حيث توقع أن يكون المقتدر يضرب بالصوالجة فيقتله مخالفا اتفاقه مع ابن المعتز ، الا أن الخليفة كان قد سمع صراخ الناس بقتل الوزير وفاتك فبادر بالدخول الى قصره وأمر بتعليق الأبواب دون القائد الثائر .

لم يئأس ابن حمدان قط ، وأسرع الى دار سليمان بن وهب
بالمخرم ، مرسلا من هناك الى ابن المعتز أن يقدم على عجل .
فأسقط في يد الأمير ، وخرج من بيته بالصرقة الى ظهر المخرم
وهو يرجو أن يرفع ابن حمدان يده عن الرقاب (١) .

وفي الجانب الآخر كان لهذه الحركة المباغتة أثرها العكسي
في النفوس ، أو على الأقل في نفوس بعض الذين فكروا في خلع
المقتدر . وشرع مؤنس بصفة خاصة يفكر في أفاءه ويعيد النظر مع
سوسن واضعا مصلحته ومصلحة الأتراك — فهو مقدمهم —
في الصدارة .

حقا كانت قد وصلت لابن الجراح كتب كثيرة يبائع أهلها
لابن المعتز فهل يتم الأمر بعد أن هتكت بواديه بقتل الوزير
وأخذ القصر يصطنع المزيد من الحرص والحذر ؟ وهب الأمر
تم فأين يوضع هو من أجباء ابن المعتز يمن غلامه وبعض من
أبعدهم عن القصر في مختلف الظروف .

وبغض النظر عن هذا وذاك ، هل يهيب ابن المعتز للترك
ما تهيأ لهم قبل من سعة في الرزق وهو يعلم أنهم قاتلوا أبيه وجده؟
والحسين بن حمدان بعد هذا يمكن أن يصبح كل شيء اذا
نجح ابن المعتز ، ويمكن أيضا استهواؤه كمغامر خدام الطولونيين
ثم خدم الدولة بما يؤمنه ويوفر له رغد الحياة . مثل هذا الرجل

(١) راجع الصلة ١٩ والمنتظم ٦ : ٦٩ وتجارب الأمم ١ : ٥
والكامل ٦ : ١٢٠

لا يمكن أن يستريح له حاكم خبر العيش وتحنك به وعرف
أسراره !

وفي اللحظة التي التقى فيها هذا القائد المغامر الأفاق بابن
المعتز وأعلمه أن الرأي قد استقر على أن يكون لقاء البيعة في
دار ابراهيم بن أحمد الماذرائي ، كان يلبق غلام مؤنس يسعى إليه
وفي كفه رسالة خطيرة .

وفضّ الرسالة وقرأ ..

وكان ابن الجراح اذ ذاك يستشير عليه القوم أى الألقاب
أصلح أن تخلع على الخليفة الجديد ، أ يكون الراضى أم الرضى
أم المنصف أم المنتصف ؟ وأحضر عبد الله بن على بن أبى الشوارب
للقاضى وطولب بالاستعداد للبيعة فقال :

— ما فعل جعفر المقتدر ؟

فدفع فى صدره ، فتسلل سوسن الحاجب الى مؤنس وأوقفه
على الخبر ، فطلب الى القصر أن يضاعف الحرس ، وفى الليل هبط
على ابن حمدان منذرا وموعدا !

ما له هو وهذا الأمير الذى يشتعل بحب الملذات وحب
السلطان معا ، ولا همّ له سوى اغتنام سوانح النعيم ؟ يتعلق
بأذيال كل فرصة ولم يتح له القدر من تلك القرص الا أهونها ،
خفيف يرتجى منه الفلاح ؟ ومن سوء طالعه أن ينكشف التدبير
فى أوله ويطاح بأبى أحمد الوزير فلا يعلن أنه برىء مما حدث
وهو الذى تشدق أمس بالسلام .

وبعد ذلك من معه ؟

ابنا الجراح وأحدهما — وهو على بن عيسى — متردد كأبى أحمد وان يكن دائم التظاهر بالتثبت والتدين والتصوّن والتعفف .

وأبو الحسن محمد بن عبدون الكاتب الهين .
ويمن الرقيع القوّاد .

والقاضي أبو المثني أحمد بن يعقوب المذبذب ذبذبة أبى أحمد وعلى بن عيسى بلا خلف كبير .

والقاضي أبو عمر الذي لا شك أنه سيحمل حملا على البيعة .
وابن الجصاص الجوهري المعتوه .

ووصيف بن صوارتكين الذي لم يكسب في حياته سوى معركة واحدة على القرامطة ، ومع ذلك كان للمكتفى فيها فضل التوجيه .

وجماعة أساتذته وندمائهم الذين قد لا يفوت بعضهم أن يغدر ويخون ، وأين هؤلاء من ابن الفرات وحده أو من ابن جرير الطبرى الذى أكد بيعته للمقتدر عقب مقتل وزيره ؟

وعلى ذلك النحو مضى مؤنس يحصى ويقارن ، وينقد وينقض ، وابن حمدان مبهور مأخوذ لا يملك دفعا ولا ردا ، حتى اذا انتهت المقالة وفرغت الحجج تساءل فى ضعف :

— وما رأى أيها الأستاذ ؟

قال مؤنس :

— تظاهر بأنك معهم ، فاذا خرجنا نحن لمقابلتهم فمل عنا

واندفع بفرسك دون أن يراك أحد ، وإذا جرت الأمور على غير ما يدبر القصر ضمنا جانب ابن المعتز .

انهما يريدان أن يصطادا عصفورا بحجر واحد !
ولقد جرت الأحداث بطريقة خوفتهما وشككتهما في تدبيرهما ، اذ تقاطر الناس على بيت الماذرائي منذ صباح الأحد حتى ضاقت بهم فرؤى أن ينتقل المجتمعون الى قصر ابن وهب بظهر المخرم . وتجمع العامة حول الموكب الكبير ، فسار ابن حمدان بقواته وقد تصوّر أن الأمر لابن المعتز ، وبادر باعلان ترك البيعة التى كانت فى ذمته للمقتدر .

وفى قصر المخرم أجلس ابن المعتز على أريكة فخمة ووقف محمد بن سعيد الأزرق يأخذ البيعة باسم الخليفة الراضى أبى العباس عبد الله بن المعتز . فتقدم ابن الجراح مبايعا فولاه الوزارة ، وتلاه محمد بن عبدون ففوض اليه الأمر فى دواوين الأزمة ، وأعقبهم على بن عيسى فتقلد عامة الدواوين . ثم تبعهم ابن حمدان فجعل أميرا على الجيش ، وتقدم بعد ذلك أبو المثنى فتقلد ديوان القضاء ، فى حين جعل يمن بعد المبايعة حاجبا وقد ظن أن مؤنسا سيكون صاحب هذه الوظيفة . ثم أنشأ المبايعون يتقاطرون ، ويمرون أمام الخليفة مؤدين اليمين القانونية^(١) .

وتلمّس الناس ابن الفرات ومؤنسا وسوسنا ، فلم يقع لهم أحد على أثر . وبحث ابن المعتز عبثا فى أصدقائه عن أبى بكر الصولى وفى العلماء عن ابن جرير الطبرى !

(١) راجع تجارب الأمم ١ : ٦ والصلة ٢٠

واذ تم كل شيء — برغم هذا — ومحمد بن يوسف القاضي يشهد كما شهد أبو المثني دخل ابن بسام للمبايعة فرفضها ابن المعتز ، وأعقبه النميري ويحيى بن المنجم فردا ردًا جميلا . وحضرت صلاة المغرب فأدبت الصلاة ثم شرع في قذف الحسنى الى صلاة العشاء للتخويف وليس لاصابة أحد . وبعد صلاة العشاء أعلن ابن المعتز أنه لا صلاة للناس مع المقتدر ولا حج ولا غزو ، وأصدر اليه أمرا بالتحول عن الحسنى الى دار محمد ابن طاهر ، فأتاه الجواب بالسمع والطاعة .

وبات هو في قصر المخرم ريثما تعد العدة للانتقال الى دار الخلافة ، وفي اليوم التالي صلى بالناس الصبح ، ثم التفت اليهم وقد أخذته حماسة الموقف وقال :

— قد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح .

فضجوا وهللوا ، ومضى هو يتحدث مقررًا أن المرء يشفيه من الحاسد أن يغتم وقت سروره دون أن يعلم من كان يعنى بالحاسد اذ ذلك . وفي الوقت نفسه كان ابن الجراح مشغولا بانفاذ بقية الكتب الى الأطراف بانتهاء خلع المقتدر وابتداء خلافة الراضى بالله ابن المعتز .

الفضل السابع

الهزيمة

كان على الحسين بن حمدان قائد الجيش وابن عمرويه صاحب الشرطة من قبل ابن المعتز أن يذهباً لتسلم الحسنى من المقتدر وحاشيته ، وقد ظنا أن كل شيء قد آل للإمام العباسى التاسع عشر . إلا أن ما حدث عقب وصول كتاب هذا الامام للمقتدر عاد فربط الأحداث بما قدر مؤنس ، فان أم موسى أخذت على عاتقها تدبير مخرج وكانت قد أمنت جانب مؤنس وسوسن بما أسبغته عليهما من عطاء .

واستطاعت بفضل المال الذى أخرجته شغب أن تستهوى أفئدة الحجرية والمفلحية والكنداجية والديلمة وسائر الترك ، مذكية فى قلوبهم نار البغضاء التى كادت تخمد . ثم أرسلت للمقتدر جاريته ظلوم تقوية ، وتسأله عدم الاذعان لابن المعتز مهما تكن الظروف .

— وهل ترضى يا مليكى أن تستسلم للمارق عدو الله فيأخذنى منك ويرسلك الى المطبخ أو ينفيك الى مكة أو يشيعك الى القبر؟ قال المقتدر :

— كلا .. كلا .. ولكن ماذا يبىدى وليس فى جانبى أحد ؟

حتى خالى وحتى مؤنس وسوسن وغيرهم من أعيان القصر
هجره !

فى هذه اللحظة دخل كل من مؤنس وغريب الخال يقولان :
— وكيف ندع أمير المؤمنين وحده ؟
ثم قال مؤنس وحده :

— أحكمت الخطة يا أمير المؤمنين ، فان أتاكم فى الغد ابن
حمدان فلا تستسلموا وادفعوه عن القصر فلن يدخله .
وجلس يبسط تفصيلات الخطة حتى طلع الصباح ، ثم لم يكده
يرتفع الضحى حتى كان ابن حمدان وابن عمرويه قرب القصر فى
مواجهة جماعات مستعدة بالسلاح والخوذ والجواشن ، وفى النهر
شذاءات معدة للضرب ، ومن وراء نوافذ القصر تبدو السهام
مفوّقة معدة للانطلاق .

كان الحسنى على أتم الاستعداد لمعركة لم يتأهب لها الخليفة
الشاعر . وهنا استعرض ابن حمدان اتفاهه مع مؤنس ، وبعد
مناوشة صغيرة أمر جنده بالارتداد على أن يعيدوا الكرة ليلا (١) .
وفى هذه الأثناء تحركت الشذاءات فى دجلة بقيادة غريب الخال
وسوسن ، وكانت مؤلفة من مائة قطعة مسلحة وفوقها عشرات
من المحاربين الترك ، وآهم من كان على الشاطيء فصاح :
— مراكب المقتدر .. مراكب المقتدر !

وسأل بعضهم بعضا :

— وأين الراضى ؟

(١) تجارب الأمم ١ : ٦

وقال ثالث :

— لعله دحر !

وأكد رابع :

— بل دحر والله !

وهكذا دب الهلع في النفوس ، وتطايير الأعوان بددا مع أن
سهما واحدا لم يطلق . ولو كان بعضهم وقف قليلا أو ناوش على
سبيل التغطية ، لتغير الموقف ، ولسار ابن المعتز نحو الغاية التي
وجد نفسه مدفوعا الى السير نحوها .

ونحن لو قارنا بين تدييره هنا وما تضمنه سلوكه القديم أيام
كان منطلقا نحو لاشيء الا اراحة بدنه وتسكين سورته ، لوجدنا
الفارق شاسعا من حيث عمق التجربة لا نوعها . هناك كان قادرا
أربيا داهية ، وهنا متداع حتى لكأنه في بحر لا شاطئ له .
وهذه هي النهاية الحتمية لتشكيله ذلك التشكيل الغريب
الذي قضى بأن يخرج من الحياة غريبا كما دخلها غريبا ، مع أنه
أثار وحرك طول أيامه . لقد كان حظه العاثر هو الذي يقوم بأداء
الدور الأول في مسرحيته الكبيرة ، وكانت شاعريته — أو قل
خيال الشعراء عنده — الى جانب ذلك تؤكد دائما أنه قلما ينجح
الا في تقل كلمته الطيبة الينا .

ان ابن المعتز عاش — وهذا مؤكد — منطويا على نفسه ،
على الرغم من تقلبه في شتى الظروف . اذ لم يكن أحد يفهمه
ولا سيما في قصر الخلافة ، بل انه ظن يوما أن جمهور الناس
أقرب اليه من غيرهم ، ولكن هؤلاء سرعان ما انفضوا من حوله

عندما حانت ساعة الجد ، فوجد نفسه فجأة وحيدا في الميدان ،
وعبثا صاح فيهم أقرب المقربين اليه :

— يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى^(١) .
لقد خاف هؤلاء سطوة السلاح وكانوا يبحثون عن القوة ،
ولهذا لم يكن غريبا أن يتساءلوا وهم يتفرقون :
— أين ابن حمدان ؟

وقيل اذ ذاك انه قتل ، وقيل انه سار الى الموصل ، وقيل انه
دخل الحسنى من الجانب الآخر ولم يخرج !

ومضت اللحظات الحاسمة مخوفة بالمكاره والمصاعب ، فرأى
ابن المعتز أن يخرج من قصر المخرم قبل وصول الشذاءات اليه
ووقوع اشتباك لا يضمن هو نتائجه .

ان الرجل المحارب الذى شهد أكثر من غزوة يترك الميدان !
خرج ومعه وزيره المنكود محمد بن داود ويمن حاجبه ،
وكان شاهرا سيفه للعجب ويصيح كما صاح بعض غلمانه من قبل :
— يا معشر العامة ادعوا لخليفتكم السنى البربهارى !

وأخذ الثلاثة طريق الصحراء تقديرا منهم أن يتبعهم من
الجيش من يثبت أمرهم فى سرٍّ من رأى ، فلم يتبعهم أحد . ورأوا
وهم على أطراف بغداد ابن عمرويه — صاحب الشرطة — يعدو
بخيوله مناديا بشعار المقتدر .

(١) راجع الكامل ٦ : ١١٩ وانما نسب هذه النسبة لأن
الحسين بن القاسم البربهارى كان مقدم الحنابلة ، والسنة من العامة
لهم فيه اعتقاد كبير ، فأراد استمالتهم كسنى بهذا القول .

وهكذا ضاع كل رجاء ، وأدرك ابن المعتز أن من العبث المقاومة أو التعلق بأهداب أمل كذوب . ان الأيام لا تريد له الظفر ، والقدر لا يواتيه بشيء مما يريد ، فما عسى أن يلقى بعد ؟ لا شيء ، وليكن الهرب ثم ليكن بينه وبين يمن وابن الجراح الوداع الذى لا لقاء بعده .

أما ابن الجراح فقد حاذى داره ودخلها ليستتر ، وأما يمن فقد اتجه الى بيت وصيف بن صوارتكين ليعلم أنه هرب . فرجع الى ابن المعتز وهو فى مخبئه يشهد من بعيد اندلاع نار الفتنة وهجوم الشطار والعيارين على البيوت الآمنة .

وبعد أن قلب الأمر على وجوهه ، قرر أن يلجأ الى ابن الجصاص . وكانت الطريق المؤدية الى دار هذا الجوهرى تتدرج فى الانخفاض حتى تنتهى الى رحبة تتخللها عدة أشجار ، وبعد هذه الأشجار طريق السوق وقد اكتظ بالناس يصرخون ويهللون . وقد استطاع هو أن يميز من خلال الصراخ والتهليل من يصيح قائلاً :

— يا مراة يا كذاب !

حتى اذا اختلط بالعامة محاذرا تبين أنهم يطاردون ابن عمرويه ، ثم نعى اليه أن مؤنسا يجده وراءه .

وفيما كان يتأمل هذه المشاهد ، سمع فجأة وقع سنابك لخيل تدق الأرض ، فتسلل خلف أحد الحواجز النباتية ويمن يلتصق به وهو يمسح عرقه . وفى اللحظة التالية ألقى نفسه وجها لوجه أمام

أبى عمر محمد بن يوسف ففرع ، ولكن أبا عمر بدا أشد فزعا منه
وتلفت حوله ثم هتف :

— يا رحمة الله .. عوائد الله عند أمير المؤمنين ورجاله فيمن

يشاقهم ويناوئهم توفى على الموت !

صرخ ابن المعتز :

— ومن أمير المؤمنين ؟

فمضى القاضى وكأن أحدا لم يبادره بسؤال :

— وليس أحد يظهر عصيانه أو يخفيه الا جعله عظة للأفام ..

اهرب بالله أيها الأمير ، واسحب على وجهك اللثام !

ثم وقفا يتبادلان النظر بضع لحظات ، وكتب على ابن المعتز
فى ذلك الوقت ألا تبرح صورة هذا القاضى مخيلته حتى قضى ..
عينان داكنتان ماكرتان ، ولحية شعناء تريد أن تطمس فما متهدل
الشفقتين ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فى قسماته أهو مخلص أم
يمكر به . غير أنه جرى ومن خلفه يمن ، فليس له أن يحاسب من
نكث وغدر ، ولا له أن يسأل من مرق وداجن ؛ فانه كان لسوء
حظه أن يعتمد على رجل كأبى عمر .

ووصل أخيرا ، وراح يدق الباب وهو لا يزال يسمع هدير
الجماهير من بعيد . وكانت النار فى هذه اللحظة قد بدأت تجتاح
المدينة ، عاقدا دخانها سحباً قاتمة ورائحة الموت تختلط بأرج
الزهور التى تفوح من وراء السور المرتفع .

وفى الوقت الذى فتح فيه الباب وتوارى هو خلفه ، برزت
شرذمة من جنود مؤنس وهى تخب فوق خيولها باحثة عن .. عنه

فى أغلب الأمر ! ولقد دهش غلام ابن الجصاص لأنه كان حديث عهد بالدار فضلا عن وجود اللثام على وجهه ، غير أنه سمعه يقول بصوت لاهث :

— قل لمولائك انى أطمع فى مروءته !

قال الغلام :

— من أنت ؟

أجاب ابن المعتز :

— قل له ان صديقا له يطاردونه .

تساءل :

— يطاردونه ؟

قال ابن المعتز :

— وقد أقتل اذا ظلمت تلح عليه بالمسألة !

وهنا برز ابن الجصاص يصرخ :

— هلم .. هلم !

ومال الغلام عن طريقه ومولاه يقول للغريب :

— ولكنهم اذا وجدوك هنا ضاع كل شيء وضعت أنا ..

انحن واتبعنى !

وأشار الى يمن وقال :

— وأما أنت فسيتكفل بك غلامى سومن . ستكون فى

داره آمنا !

وسار ومن خلفه ابن المعتز ، ولم يكادا يقتربان من مسناة الماء

القائمة في جانب النهر حتى دق الباب بعنف ، فصرخ ابن الجصاص :

— رحماك يا رب !

وأدار رأسه في بستانه ثم جمع بصره على المسناة فأسرع يشير اليها وهو يقول :

— اهبط تحتها حتى تنكشف الغمة .

ولحظة غاص ابن المعتز تحتها ممسكا ببعض أغصان متجمعة على حواف المسناة تصدع الباب واندفع فوقه عشرة من الشرط يلقون بأنفسهم الى الداخل وهم يحملون رماحهم ويصرخون :
— هنا عدو الله ؟

ولم ينتظروا جوابا ، وانما تفرقوا في كل مكان يبحثون ويبحثون ، في حين وقف ابن الجصاص يرتعد ويقرأ كل ما يخطر على ذهنه من آيات القرآن الكريم .

الفصل الثامن

في طريق النهاية

اتضح كل شيء بعد ذلك ، وكان يمن قد قبض عليه وسيق مع ابن الجصاص الى ابن الفرات الوزير الجديد ^(١) وكان قد جلس للمحاكمة في قصر المقتدر ومن حوله مؤنس وغريب الخال وصافي الحرمي وسوسن ، وأمامه ابن مقله . ومن خلف الستار جلس المقتدر وجاريته ظلوم وأمه شغب وأم موسى القهرمانة يسمعون جميعا الى المناقشة التي انتهت بقتل يمن ، واطلاق سراح ابن الجصاص على ستة آلاف ألف دينار جملة واحدة بشرط أن يلزم داره حتى يؤذن له بالخروج .

وقبل أن يعود أحاط بكل شيء خبرا ؛ فأما أبو الحسن على ابن عيسى وأبو الحسن محمد بن عبدون فقد استترا في منزل رجل يبيع البقل . ولكن العامة نذروا بهما فكبسوهما وأخرجوهما ، ثم سلموهما الى بعض أعوان المقتدر المجتازين في الطرق ، فأركبا

(١) راجع تجارب الأمم ١ : ٧ ، ٨ وفي الصلة ١٩ ذكر الصولي أن المقتدر خلع على أبي الحسن على بن محمد بن الفرات بالوزارة وكان ذلك يوم الاثنين ، كما خلع على أبي الشوارب لقضاء جانبى بغداد وعظم أمر سوسن مع أن هناك أكثر من رواية تؤكد أنه كان من أكبر أنصار ابن المعتز (راجع تحفة الأمراء ٢٦)

بغلا هزيلا وصرخ فيهما على طول الطريق قبل أن يغيبا عن
العيون .

كما قبض على جاره ابن البصري العلوي ووصيف بن
صوار تكين وصديقه خرطامش — وكان من المبايعين لابن المعتز —
والقاضي أبي المثني أحمد بن يعقوب ومحمد بن سعيد الأزرق ،
ورجل من وجوه الترك اسمه سرخاب لم يقعد عن مبايعة ابن
المعتز ^(١) . وسلم أبو عمر نفسه ، قعفا عنه مؤنس بعد أن استشفع
له بمال يدفعه أبوه يوسف ، وأما أبو المثني فقد واجه مصيره
بشجاعة اذ سأله ابن الفرات :

— يقول لك أمير المؤمنين بم استحلت نكث بيعتي ؟

أجاب رابط الجأش :

— لعلمي أنه صبي لا يصلح للأمر !

قال ابن الفرات :

— اذن فسوف تجزى بقدر ضلالك !

قال :

— افعلوا ما تشاءون فلكم دينكم ولى دين !

وحمل ابن الجصاص الى الأمير نبأ مصرعه فيما حمل من
أنباء أزعجته ^(٢) ، وعلم أن الجميع لا قوا حتفهم سوى جاره
العلوي وكل من ابن عيسى وابن عبدون ، ولم يستطع ابن الفرات

(١) تحفة الأمراء ٨٨ ، ١٤٧

(٢) راجع تحفة الأمراء ٧٩ وكان ابن الفرات قد أمر يوسف

ابن فيجاس وهارون ابن عمران بمصادرة أملاك ابن المعتز وأمواله .

أن يظهر على الأخيرين في مناظرته لهما . غير أنه صادرهما مخففا
على ابن عيسى ومثقلا على ابن عبدون لعداوة كانت بينهما ، وأمر
بتفنيه الى الأهواز (١) .

وأما محمد بن داود فلم يهتد أحد الى مكانه ، وإن يكن شاع
أن غلاما لابن جرير الطبرى سعى به عند ابن الفرات فلم يحرك
بشأنه ساكنا !

وروى ابن الجصاص أن مؤنسا أرسل للطبرى ينهى إليه أمر ابن
المعز عندما بويح — كأنه يستفتيه أو يستشير — فسأل :

— ومن رشح للوزارة ؟

ف قيل له :

— محمد بن داود .

قال :

— فمن ذكر للقضاء ؟

قيل :

— أبو المثنى .

فأطرق ثم قال :

— هذا أمر لا يتم !

قيل :

— وكيف ؟

قال :

(١) تحفة الأمراء ١٣٥ وما بعدها ثم صفحة ١٤٨ ، ٢٨٦
وتجارب الأمم ١ : ٨

— كل واحد ممن سميتم متقدم في معناه على الرتبة ،
والزمان مدبر والدنيا مولى ، وما أرى هذا الا الى اضمحلال
وما أرى لمدته طولا (١) .

وأما أبو بكر الصولى فقد لزم المقتدر يلميه بالشرنج
ما فارق جاريته ظلوم ، فى حين توجه قدامه بن جعفر الى ابن
الفرات ينشده (٢) :

لما غدوت وفى الحشا نار مضرمة تشب
والفكر والأحزان مس جون بها جسم وقلب
أنشدت ما قال ابن جه م وهو بالأشعار طب
أملت بعدك يا عل ى ونالنى ما لا أحسب

هكذا الدنيا ، ألم يقل وهو يحسن القول دائما انه ربما أورد
الطمع ولم يصدر ووعد ولم يصرف ؟ ثم ألم يقل أيضا من تجاوز
الكفاف لم يغنه اكثاره ومن ارتحله الحرص أنضاه الطلب ؟
ولا يدرك الغنى بالسلطان لا سيما فى هذا الزمان المتلون الأخلاق
المتداعى البنيان ، الموقظ للشر المنيم للخير ، المطلق أعنة الظلم
الحابس لروح العدل ، المر الشرة البعيد المجتنى ، القابض على
النفوس بكرهه والمنحى على الاحسام بغربه (٣) .

هكذا .. هكذا !

وانه لفى انتظار غد مشكوك فى اقباله ، وقد أصبح مطلوبا

(١) هذه الحكاية بتفصيلاتها مما سجله السيوطى .

(٢) تحفة الأمراء ٢١٢

(٣) من كلمات ابن المعتز أوردها الصولى فى الأوراق ٢٨٧

توصل الى البأس — أو أراد — بغدره ومكره وخديعته فأوحش
الناس من أمير المؤمنين وشيعته ، وحسن لهم الخروج أو كان
بعضهم محسنا اياه في عينيه . فاذا كان قد شهر سيف الفتنة وأضرَم
نارها ، فقد حق أن يكتوى بعذاب الخوف والقلق والوحشة ،
وليس له الا أن يرى الأمر في صورة البشعة ..

تربص الحسين بن حمدان بأبى أحمد الوزير فقتله ، ثم ثنى
بفاتك المعتضدى فازهق روحه . وقصد أتباعه المارقون — وفيهم
الخونة الشذاذ — الى دار الخلافة وشغبوا بعض الشيء الا أن الله
« وفق » الخدم المصافية والعلمان الحجرية في محاربتهم ،
فتحصنوا بالابعاد في الهرب لما خافوه من شدة الطلب . ولكن
جماعة من خواصه تؤسر ، وتحمل الى الحسنى ، لتدفع الى أعظم
بؤس وأضييق حبوس .
وأما هو ..

ففى انتظار غد مشكوك في اقباله ، وحيدا فريدا يسرد خاطره
عليه قصة حياته شأن من ينظر وراء ظهره الى الدنيا من عالم
الأشباح ، وقد كفت حواسه الا عن الترقب والتوجس . وبلغ
من شدة هلمه أنه قلما خلع لثامه خارج حجرته ، وقد بغته سوسن
أكثر من مرة فانتفض ، ورأى وجهه الأسمر يتكسر اعياء .

الى أن طرقت الدار ذات يوم سيدة احتفى بها ابن الجصاص
وأدخلها عليه . ومن ثقب بالباب رأى الخادم وسمع ، وتردد على
لسان صاحب الوجه الأسمر اسم بنت الكراعة .. مرة ومرة !
انه هو ، وهذه هى التى ضربت بحبها له مثلا لكل جوارى

بغداد وعذراواتها . وحفظت وده ، في الوقت الذي داست عليه
شريرة حتى تفرغ الى مغن مجهول اسمه ابن البقال ، ولكن كيف
جاءته ؟

لم يشأ سوسن أن يواصل تنصته أكثر من هذا ، فقد شغلته
فكرة الوشاية وألحت عليه ، وبدا له أن خير ما يفعل أن يتنصح
في الدلالة عليه الى صاف الحرمي الذي كان في خدمته قبل أن
يصير لابن الجصاص ^(١) . وأسرع فعلا الى صاف وأفضى له
بشكوكه حتى انتهى بقوله :

— فان لم يكن ابن المعتز نفسه فهو واحد ممن يطلبهم
أمير المؤمنين .

وكان مؤنس قد أخبر بأمره ، فأسرع الى دار صاف وابتدر
سوسنا قائلا :

— صفه لنا أيها الجصاصي .
فقال :

— اذا خلع لثامه رأيت وجها شديد السمرة مسنونا جميل
الأسارير ، ورأسا ولحية فشا فيهما الشيب فسترا بالخضاب ،
وأما بدنه فممتلىء قليلا وقوامه كالسمهري .

قال مؤنس :

— وكم سنه اذا حدثت ؟

أجاب سوسن :

(١) تجارب الأمم ١ : ٨ والكمال ٦ : ١٢٢ وتحفة الأمراء ٨٨

— ان وجهه لا يشف الا عن نفس هزمتها الأحداث ، ولكن
لعله في الخمسين .

قال مؤنس :

— وماذا كان يرتدى يوم رأيته أول مرة ؟

قال سوسن :

— سراويل فضفاضة وقمطانا وغلالة قصب مبطنه بملحم

خراساني يضرب الى الصفرة ، وعلى رأسه مجلسية .

وسكت ، فقال مؤنس :

— لو كنت صادقا يا جصاصي ولم تنقل الى ما سمعت من

صفاته ولباسه لكان هو فتوجب الحال اطلاق الهدية لك !

الفصل التاسع

النهاية

لم تغمض عينا بنت الكراعة ، فقد غاب سوسن عن القصر فجأة فتوجست سرا . الا أن اقبال ابن المعتز عليها بعد طول ادبار قد شغلها عن كل شيء الا مشاركته كئوس الشراب والتغنى في شعره بصوتها الذى كان ذات يوم من أجمل الأصوات . حتى اذا ثقلت عيناها ، بدأت تنبّه الى حقيقة الخطر المحدق بهما .

ها هو ذا راقد فى اعياء ، وأنفاسه المترددة لا توحى قط بما قد يواجهه عند اليقظة . كيف ينام من هو على حافة الموت ؟ ومن أين تهب عليه ريح الهدوء والسلام ؟

وتتحسسه فى رفق بالغ ، ثم تمس لحيته وخديه وكفيه ، وهو مستسلم مسترخى العضلات .

ان جلده مشدود ، لا يدل على وهن مع أنه فى الخمسين أو يكاد ، فتلتصق به حتى تصير حركاتها كلها موافقة لشهيقه وزفيره . وأخيرا تضع وجنتها على خده لينسدل شعرها عليه ، ولكنه لا يتحرك . وقديما لم يكن يحركه شيء فيها ، الا أنها تحبه وتساعدها الذكريات على التخفف من رعبها فتوشك أن تغفو . ولكن لا يكاد يصفح جفونها أول خيط للسواد حتى تشب

مدعورة على جلبة وصياح ، فتقف مشدودة القامة لتصل برأسها الى مستوى الشباك الوحيد فى الغرفة . فلما أزاحت الستار ، لمحت فى البستان ثلة من الجند يتقدمهم سوسن الجصاصى وهو يزعق زعقات منكرة .

وفاتها أن تصرخ — أو لعلها ألجمت — وفاتها أن تدفع النائم ليتحرك ، بل فاتها أن تولى هى خارجة . فلما دخل عليه عريف الجند ألقت بنفسها فوق جسده كأنها تحميه فصرخ :
— اليك عنه أيتها الملعونة !

وهنا .. بل هنا فقط تنبه الراقد ، وأدرك على الفور عبث المقاومة ، فرفع يديه مستسلما وهو يردد :

— لا حول ولا قوة الا بالله .. لا حول ولا قوة الا بالله !
وعندما حاول أحد الشرط دفعه ، نظر الى العريف نظرة لم تخل من بؤس ثم قال :

— حكم الله ورسوله فى مثل هذا الأمر معروف ، وأرجو ألا يخرجنى أحد منه ولو كان أمير المؤمنين عن حد الانصاف .
ومع كل هذا فلا سخط على حكم الله ، ولا وحشة مع خلافته !
وخرج دون أن يرى ابن الجصاص ، ولكنه قبل أن يجدر فى طيَّار الشرط لمححه من ورائه فى قيود واحدة مع بنت الكراعة ، وكان يصرخ ويستشفع بأمواله كلها ، فى حين كانت هى تصيح :
— قتلتموه والله يا أعداء الله !

وعندما وقف أمام مؤنس ، كانت نفسه مفعمة أسى ومرارة ، ولا مكان فيها لأى احساس بالخوف على مصيره . فليكن ما يكون،

لأنه في الحقيقة لا يطلب غفران ذنب لم يقترفه ، ومن ناحية أخرى كان يكره التوسل حتى لا يزداد تذللاً ويزداد خصمه تطاولاً . وإن عليه مهما تكن الظروف أن يعيد حاله عند تكرمها من حاسد يكيدها ومن شائء يبغضها ، فلا يسأل الله من ثم الا أن يجعل حظه من هذا وذاك بقدر احتقاره إياهما .

وفي غرفة التعذيب أقعد ، وكانت المرارة وحدها رفيقه وصورة بنت الكراعة . ثم قدم عليه ابن الفرات وغريب الخال ومؤنس وابن مقله ، وقد بدأ ابن الفرات الحساب قائلاً :

— هو هذا اذن عدو الله ابن المعتز ؟

فضغط السجين على أسنانه وقال :

— هو أنا يا ابن الأمة !

لأول مرة يتبدل . انه يعلم أن الوزير الجديد آخذه بلا شك في التموهيات معولاً على دفع الحق بشتى المباهات . وليكن ثقة أمير المؤمنين ، وليكن ما شاء أن يكون ، غير أنه سيظل في نظره أحد القاعدين عن نصرته وأكبر المفسدين أمره ، فلا أقل من أن ينال منه بلسانه . ولكن ما حدث كان فوق ما توقع اذ تقدم ابن الفرات فشتمه شتما قبيحاً ومدّ يده فنتف شعرات من لحيته فلم يملك هو الا أن يصيح :

— أوه !

وضحك مؤنس وابن مقله ، في حين تقدم غريب الخال وصفعه ، فصاح ابن الفرات :

— جوّد .. جوّد !

وصرخ ابن المعتز :

— الله .. الله .. قد ذهب والله عيني !

فقال ابن الفرات :

— لو كان الله أحبك لذهب بك قبل يومك هذا !

قال ابن المعتز وهو يتماسك :

— هل يعلم مولاك بما أنت فيه الآن ؟

قال :

— هل تريد أن تعرف رأى أمير المؤمنين ؟

وهز رأسه ، فاستطرد :

— كافر أراد هتك سره ، وهو الآن فى شغل عنك باستيفاء

ما يلزم الأمة !

وضحك ابن المعتز وشر البلية ما يضحك ، فسأله ابن الفرات :

— ماذا تظن ينتظرك أيها اللعين ؟

أجاب ابن المعتز :

— لن أقول كما قلت لا تشن حسن الظفر بقبح الانتقام ،

ولن أقول كما قلت تجاوز عن مذهب لم يسلك باقرار طريقا حتى

اتخذ من رجاء عفوكم رفيقا ، ولكنى أقول من عظمت البلية فيه

طابت المنية عنده !

قال ابن الفرات :

— ومن أجل ذلك ضاجعت بنت الكراة يا فاجر ؟

قال :

— حسبك الأسوة بها أيها الشقي فهي لم تخطيء ، ولعمري
انك لن توصل بمثل وفائها أبدا .

قال ابن الفرات في سخريه :

— حمدا لله .. ولكن بهم تريد أن توصى بكلمك ؟
قال :

— بالأا يرينى الله وجهك .

قال ابن الفرات محاورا :

— حتى وأنت تموت ؟

قال ابن المعتز :

— سأقول لك ما فى نفسى ، فما زال أولياء الله يعرضون

على المحن فيستقبلونها بالصبر ويتبعونها بالشكر .

فتضاحك غريب وقال :

— فاشكره اذن على محنك .

قال ابن المعتز :

— والله يا هذا ان بصيرتى لتنفذ مذموم أوائلها الى محمود

عواقبها وأعدها مرقى الى شرف الآخرة ومرتبة لأهل السعادة

فى دار كهذه الدار تلجها الهموم ويزول فيها النعيم .

قال مؤنس :

— هذا هو الكلام غير المفهوم !

ولكن هممة سرت بينهم حتى لكأنهم سيئوا ببلائه وعناده ،

وراحوا يصوبون اليه لعناتهم مؤملين اضعافه ولكنه مضى يقول :

— اذا تأملتكم قبحكم الله فساد ما أتمتم فيه وضياع أمور

المسلمين على أعتاب خليفتم المحتفى بصدور الحرم ما جرؤتم
على مجابتهى بما تظنونه يصدع ، ولكنه الخوف منى ومن أن
لا تجدوا من يضمنكم أمامى . فإذا كان أعدل الناس من أنصف
عقله من هواه ، فان اسلمهم من يرى الحق ثم يعض عنه عينيه .
ومع كل هذا فانى أقول هو الحسد ، والحاسد كما قلت دائما
مغتاض على من لا ذنب له ، يحفل بما لا يملكه ويطلب ما لا يجده ،
فماذا تطلبون بعد ذلك ؟ أم هل تظنون كلما حسنت نعمة الجاهل
زال قبجه من العيون ؟

وانتفض ابن الفرات وهدر صائحا :

— حسبك يا ملعون حسبك ، وانها آخرتك اذا شاء الله ،

وأنتم يا رجال أمير المؤمنين ألا أشرتهم على بميتة له !

قال غريب وكأنه كان المقصود بإشارة ابن الفرات :

— ليمت ميتة أبيه !

قال ابن الفرات :

— والله لا يصلح لها ولا تصلح له !

قال مؤنس :

— ألم يكبس ومعه امرأة ؟

فمالت الرءوس ، فاستطرد قائلا :

— فقد دلنا اذن على نهايته المطلوبة !

فتساءل غريب النخال :

— ماذا تعنى ؟

أجاب :

— فليقض عليه بحق الزنا أو تعصر خصيتاه ، وفي الحالين
يموت صبرا فماذا بعد هذا ؟
قال ابن الفرات :

— اكتب يا بن مقلّة أو دعنى أكتب خطى وأشهد على نفسى
بجميع ما تريدونه منى فاما أن يموت هذا الفاسق المارق فما لى
وجه عيش فى هذه الحياة .

ثم نودى على رجلين من الزنج ، وبعد قليل انبعث غطيظ عال .
واستمر هذا الغطيظ ساعة ، بعدها خرج ابن الفرات وأتباعه
وهم منفرجو الأسارير ، وكان ابن المعتز يرقد على الأرض منكفئ
الوجه وقد هتكت سراويله والدماء تخرج فخذيه وتعقد على
الأرض بقعة داكنة غليظة .

وراح أحد الزنجيين يمسح يده بخرقه من ملابس القتيل ، فى
حين كان الثانى يدك خنجره فى رأسه ليفتح ثغرة لدم يريد أن
يفارق جسدا فارقتة الحياة .

الفصل العاشر ذكرى

هذه النهاية التى وصفها القدماء ممن كتبوا عن ابن المعتز^(١) لم تكن بالشئ الذى غاب عن معاصريه ، وإن يكن المقتدر قد زعم أنه مات حتف أنفه . واستطاعت صورته الأليفة أن تحتضن كل انسان فى ودّ كبير ، حتى ليجرؤ جماعة على التحدث عنه فى الوقت الذى كان يطارد فيه أصحابه ، وبلغ من سلطانه على النفوس أن تقدم ابن بسام — وهو الذى عاش يلهج ببغضه — ورثاء بقوله (٢) :

لله درك من ملك بمضيعة

ناهيك فى العلم والآداب والحسب

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه

وانما أدركته حرفة الأدب

كما تقدم ابن العلاف الضير بمرثية رمزية كتبها عنه فيها بهر طالما أحبه قبل أن يموت ، فقال فيما قال (٣) :

(١) راجع على سبيل المثال الكامل ٦ : ١٢٣ والمنظم ٦ : ٦٩

وتجارب الأمم ١ : ٨

(٢) تاريخ أبى الفداء ٢ : ٦٦

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٢٤٧

يا هر فارقتنا ولم تعد
كفيف ننفك عن هواك وقد
صادوك غيظا عليك وانتقموا
ثم شفوا بالحديد أنفسهم
فما سمعنا بمثل موتك اذ
عشت حريصا يقوده طمع
عاقبة الظلم لا تنام وان

وكنت عندى بمنزل الولد
كنت لنا عدة من العدد
منك وزادوا ومن يصد يصد
منك ولم يرعوا على أحد
مت ولا مثل عيشك النكد
ومت ذا قاتل بلا قود
تأخرت مدة من المدد

وقال عنه الصولى بعد أن تخلّى عنه « شاعر مفلق محسن ،
حسن الطبع ، واسع الفكر ، كثير الحفظ والعلم ، يحسن فى النظم
والنثر . ومن شعراء بنى هاشم المتقدمين وعلمائهم ، ومن نشأ فى
الرواية والسماعة ، يكثر فى مجلسه من حديثنا وأخبرنا » (١) وقد
نقل عنه كثيرا ، واعتمده بصفة خاصة فيما كتب عن أبى تمام .
وبعد أيامه بقليل كتب عنه أبو الفرج الأصفهاني « وأمره مع
قرب عهده بعصرنا هذا مشهور فى فضائله وآدابه شهرة تشرك فى
أكثر فضائله الخاص والعام . وشعره وان كان فيه رقة الملوكة
وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين ، فان فيه أشياء كثيرة تجرى فى
أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين » (٢) .

ولكن الأمر لم يخل من نوع من السماتة بقدر ما حمل من
بغض ضارعات ، فينشد يحيى بن المنجم مرثية يقول فيها عبيد الله
ابن عبد الله بن طاهر « ما رأيت مرثية موشحة بالعيوب مطرزة

(١) الأوراق ١٠٧

(٢) الأغاني ١٠ : ٢٧٤

بالهجاء مسداة بالتعنيف الا هذه ، وهى بأن تسمى مثلبة أولى «
يقول يحيى (١) :

أسيت لفقد الصديق الذى اسـ
تحال عـدوا فمن مسعدى
تجنّى الذنوب وخـان العهد
وأصبح فى صورة المعتدى
وعمى عليه الصواب الهوى
فأورده شر ما مـورد
فان أبـكه الآن لا أبـكه
لحسن وفاء ولا سـؤدد
ولكن لشـعر له رائق

اسمع البصير وللنشيد
ولخص بن الفرات بعد تولية الوزارة رأيه فيه فوصفه بالمر
والخديعة والمروق والضلال ، وذلك فى رسالة كتبها الى أبى
العباس أحمد بن محمد بن بسطام مقلدا اياه بها الخراج والضياع
بمصر ، ونحن هنا نشبتها لأنها وجهة نظر فيما تم حتى أطيح بانسان
شاء سوء طالعه أن يخسر كل شىء ، يقول ابن الفرات (٢) :
« نعيم الله عند أمير المؤمنين — أطل الله بقاءه — تتجدد فى
سائر أوقاته ، وتتأكد فى جميع حالاته » فليس يخلو منها قاهرة

(١) ابن المعتز وتراث ٦٧ نقلا عن الصولى فى أخبار المقتدر .

(٢) تحفة الأمراء ٢٨٧

لأعدائه ، وناصرة لأوليائه ، والله يعينه على أداء حقها والقيام بشكرها ، انه ذو فضل عظيم .

وكان جماعة من جلة الكتاب والقواد ووجوه الغلمان والأجناد حسدوا أبا أحمد العباس بن الحسن — رحمه الله — على محله في الدولة ومنزلته وما قام به لأمر المؤمنين — أيده الله — من عقد بيعته فسعوا في اتلاف مهجته وإزالة نعمته . وتوصل اليهم عبد الله بن المعتز بمكره وخديعته ، فأوحشهم من أمير المؤمنين وشيعته ، وحسّن لهم الخروج عن طاعته . فكشوا ومرقوا ، وغدروا وفسقوا ، وشهروا سيوف الفتنة وأظهروا أعلامها وأضرموها نيرانها .

وتفرد الحسين بن حمدان بأبي أحمد فقتله ، وثنى بفاتك المعتضدى فأتلفه . وقصد المارقون دار الخلافة حتى وصلوا الى جدرانها ، وأحرقوا عدة من أبوابها . ووفق الله الخدم والأولياء المصافية والغلمان الحجرية لمحاربتهم ومنازلتهم ، فانصرفوا مفلولين . واجتمعوا الى عبد الله فعاقدوه وبايعوه ، وتسمى بالخلافة في ليلته ، ووازره محمد بن داود على ضلالته وما صحبهم من غلمان أمير المؤمنين — أدام الله عزه — وخاصته وذوى البأس من رعيته ممن حسن دينه وخلص يقينه . فتحصنوا بالابعاد في الهرب لما خافوه من شدة الطلب ، وأسر جماعة من كتاب عبد الله وخواصه منهم محمد بن عبدون وعلى بن عيسى ومحمد بن عبد الرحمن الأزرق ويمن الكبير ووصيف بن صوار تكين وسرخاب الخادم وعلى الليثي ومحمد الرقاص وأبناء دميانه

والمعروف بأبى المثنى ومحمد بن يوسف ، وحملوا الى دار
أمير المؤمنين — أيده الله — فحصلوا فى أعظم بؤس وأضيـق
حبوس .

ولما خدمت النائرة وسكنت الفتنة الثائرة ، استدعانى
أمير المؤمنين أدام الله تأييده ، فأوصلنى الى حضرته وخصنى
ببره وتكرمه وفوض الىّ تدبير مملكته ورعاية خاصته وعامته ،
واعتمد علىّ فى حياطة ملكه ودولته . وقلدنى سائر دواوينه مع
وزارته ، وخلع علىّ خلعا ألبسنى بها اجلالا وقدرا وجمالا وفخرا ،
وعدت الى دارى مغمورا باحسانه مثقلا بأياديه وامتنانه .
وأسأل الله معونتى على طاعته ، وتبليغى غاية رضاه وارادته ،
بمنّه وقدرته .

وكان أول ما بدأت به الجدّ فى طلب عدو الله عبد الله بن المعتز
الى أن هياّ الله الظفر به على يد صاف مولى أمير المؤمنين ، بعد
أن تنصح فى الدلالة على موضعه خادم مشهور الديانة مذكور
الصيانة يعرف بسوسن الجصاصى . فأوجبت الحال اطلاق صلة
لسائر الأولياء وافرة المبلغ ، وأنا بتجديد البيعة عليهم متشاغل
وللخدمة مواصل . والأمور جارية على أحمد مجاريها ، وأفضل
المحاذب فيها ، والحمد لله ربّ العالمين » .

وتقول ان تلك الرسالة وجهة نظر لأنها لا تضع ابن المعتز
موضعه المناسب ؛ فهى تقدمه فى صورة المتآمر ، وتضفى عليه من
النعوت ما لا يتفق مع سيرته والنعوت التى خلعها عليه المنصفون .
والحقيقة أن المرء لا يمكن أن يحكم عليه بسهولة ، أولا لأن سيرته

الخاصة كانت مضطربة ، وثانيا لأننا كى نزيل هذا الاضطراب يجب أن نفرق بين ابن المعتز السياسى وبين ابن المعتز الأديب .

وهناك على أى حال باحثون متحذلقون يشجبون الحياة كلها ويرون من سوء الطالع حقا أنهم لا يتحكمون فى مصائر الناس كما يشاءون ، بل لم يسألوا كذلك عن أسباب بقائهم . وقد يرى الرجل منهم قدرا فيخطر له أحيانا بأنه كان يكون أفضل لو زالت فروة جسده ، أو استقامت ساقاه قليلا أو غار فكاه بعض الشيء . ومع ذلك يداخله دائما شعور بأنه لا يستطيع أن يصنع دون القرد وربما لا يستطيع أن يخطط على الورق صورة لأى قرد !

مثل هؤلاء نراهم ازاء سيرة ابن المعتز ولا نستطيع أن نستقيهم شيئا ، كما لا نستطيع أن نسألهم انصاف الرجل فيفارقوا بين نشاطه السياسى ونشاطه الأدبى .

ونحن اذا جعلناهم البداية لكلمتنا الأخيرة رأينا أنهم عابوا عليه ضعفه وتهتكه وسوء تدبيره ، كما قاسوه شاعرا بأبى تمام لا سيما بعد أن لاحظوا أنه دائم الاشارة اليه كثير الصنعة مثله ، واعتبروه من ناحية ثالثة مصحفاً فى رواياته غير مدقق لها ولا طابع لكتاباتة ومؤلفاته .

ويمكن لنا بسهولة أن فردّ الاتهام الأول الى قسمتنا الثنائية؛ فمن حيث انه أمير حرم عرش أبيه على رغم استحقاقه له فكريا وعاطفيا ، كان سلبيا وقد دفعته سلبيته الى التماس السلوى فى التهتك . ومن حيث انه شاعر ومؤلف — والتهمتان الباقيتان بصدده فيهما — ففى أغلب الأحيان لا يظهر دوره الا بتفصيل

مرتبط بزمنه وان يكن أغلب الدارسين يجعلونه في الشعر
والكتابة قمة .

وفي ضوء هذا نقول ان ابن المعتز السياسى نكرة أو نبات
طفيلى لا طائل وراءه ، ولكنه أحد معالم الابداع الهامة في
القصيد والتأليف . ولا ريب في أن موقف التقدير حيال هذا
أسلم من موقف التشنيع ، ذلك أن هناك فارقا خطيرا بين حكاية
القرد وحكاية تاريخ ابن المعتز لأن القرد من صنع الطبيعة وتاريخ
ابن المعتز من صنعه وصنعنا . واذا كان علينا بناء على هذا
ألا نقد القرد ، فان العدل يقتضينا أن نقد التاريخ . وسنحاول
فيما يلى أن نقوم بذلك مع تفنيد كل وجوه الاعتراض الموجهة
الى ابن المعتز ، لينزل عندنا المنزل الذى يستحقه كعلم من أعلام
العرب الكبار .

* * *

أما أنه كان سياسيا فاشلا وأميرا كل همّه أن ينتظر حتى تأتية
الخلافة تجرر اليه أذيالها — كما يقول الشاعر القديم — فأمر
لا ننكره ، ولكننا نرى أن الظروف القاسية كانت تفرض عليه
هذا الانتظار وتدفعه اليه دفعا . وتبدو هذه الظروف مكوّنا عاما .
من مكوّنات العصر قبل أن تكون مكوّنا خاصا له ؛ فقد ولد
ابن المعتز والدولة في حرج شديد وتخضع خضوعا كاملا لعسكرية
الأتراك الذين لم يكونوا يدركون شيئا في السياسة والادارة
والثقافة . وكان شرهم قد استفحل بعد نقل الخلافة الى سرّ من رأى ،
ولما جاء الواثق بتهالكه لم يتجرد لأية معركة حربية هامة

فوجد الأتراك أنفسهم يتسللون واحدا وراء واحد الى ميادين
الادارة والحكم ، حتى ليتدخلوا في ولاية العهد ويأتوا بالمتوكل
ويقتلوه .

وكانت فترة السنوات التسع التي نبهنا عليها وتقع بين سنة
٢٤٧ وسنة ٢٥٦ من أقسى الفترات على كيان العباسيين ، وتركت
في نفوس جميع أبنائهم رعبا لا نظير له . حقا وجد من الخلفاء
— كالمعتضد — مَنْ حَدَّ مِنْ سُلْطَانِهِمْ فيما بعد ، غير أنهم
ظلوا مع ذلك الشبح الذي يخيف بتدبيراته الظاهرة والخفية ،
وكانوا يسطون على خزائن المال بلا تحرّج ولا تأثم ويغرون
أولى الأمر بجوار حسان يسهم في شلّ القوى بدلهم وفتونهم .
وهنا يرتع خصوم العباسية ما شاء لهم الرتع ، وتتعدد الفرق
وتهدد كيان الدولة تهديدا مباشرا .

في هذه السنوات المريعة يولد عبد الله بن المعتز ويعيش ،
وتسهم جدته قبيحة في مؤامرات الترك فيطاح بالمعتز ثم تنفى هي
وينفى معها حفيدها الأمير ليعيش في الغربة صباه الحزين المهدد .
وعندما يعود الى سرّ من رأى ثم يسكن بغداد يكون كل شيء
قد أعد لتخوينه ، ويكون كل شيء أيضا قد تهيأ ليصبح عالة على
عطاء مال الخاصة . وبالتقدير عليه من ناحية أخرى ألجىء الى
بعض الوزراء يمدحهم ، لينال عطاءهم . ثم يواجه بقوة عمه
الموفق ويعجب به ويضطر الى أن يزداد استكانة ، واذا قدم
المعتضد بجرأته وقوته — وهو فلتة في تاريخ انهيار العباسية —

يكون ابن المعتز قد شئل تماما ، بل يصبح العوبة في يد هذا الخليفة العظيم .

لقد تم قهر الأمير اذن ، وهذا سرّ سلبته التي ظهر بها في تدبير آل الجراح . ان مدة حكم المكتفى لم تكن كافية لتظهر أنه كان من الممكن أن ينتعش ، بل كان الأتراك أسرع منه حركة عندما رأوا امام المسلمين مريضا واهنا ويظهر في علقته من ضروب التخبط والأناية ما جعلهم يتطلعون الى ما سلبهم اياه المعتضد . وكان الكتاب يغالبونهم كعنصر يمكن ترجيح كفة على كفة ، لا سيما أن الوزراء كانوا قد راحوا يشعرون بقوتهم وحاجتهم في الوقت نفسه الى من يشد أزهرهم من الكتاب ، فتفرق هؤلاء شيئا وأصبح الوضع معقدا جدا ومؤلما جدا .

كل أولئك كان ينذر بالشر ، وكان يعقد حياة كل أمير عادى ، فما بالناس بابن المعتز الذى كانت العيون تتجه اليه بما كان له من حق في الوراثة وبما كان يصدر عنه علم ورأى ؟ وربما كان لصغر سن المقتدر وعدم خبرته أهم الحوافز التي حركته بعد طول تردد ، ولكنه عندما تحرك كان من الواضح أنه لم يحسب حساب كل خطوة فضلا عن أنه ظل مسلوب الارادة فاقتدا معظم سلطانه وغير مقدّر تماما قوة « الحرم » الممثلة في شغب وظلوم وأم موسى .

لذلك كله سقط ابن المعتز ونحن اذ نقرأ عن سنواته المريرة التي قطعها قبل أن يصرع صرعه البشعة ليمضنا أن يسيّر الى حتفه مغلوبا مقهورا ، ولكننا لا نرى قط مسوّا الى التهجم عليه .

ثم ان حياة تلك مكوثاتها لا يمكن أن تخلق الانسان الكامل .
ومع كل هذا فينبغى أن نقرر أننا نحن الدارسين قد لا نكون
على الدرب القويم دائماً ، ومن ثم لا نطمع أن نلزم أحدا بشيء
مما نراه . وكما أن أى امرئ اذا وقف فى « الكامل » أو
« المنتظم » عند الرشيد أو المعتصم أو المعتضد ودهش لثرائهم
وسلطانهم وحسن تدبيرهم ، فاننا لندهش أيضاً اذا وقفنا على
تخبط الواثق والمتوكل والمعتز وابنه الطامع فى العرش . هى
الحياة لا يمكن الا أن تفرض على أى كائن كلمتها ، وهذا
لا يعنى بطبيعة الحال أن المرء يجب أن يسلم بالتقية ويصطنع
السلبية ، وانما يعنى أن المرء قد لا يملك الا أن يفكر ولكنه اذا
سار فقد يتردى فى أكثر من هاوية .

ثم ماذا عن تهتكه ؟

ولعله من المفيد أن نتوسع فنناقش ما قد يثار حول خَلَقَات
الرجل ، أو قل نوازن بين الواقعية والمثالية كمسلكين تردّد بينهما
ابن المعتز ، ولكننا نلاحظ أن العصر الذى عاب على هذا الأمير
مجونه كان عصر المذهب الطبيعى ، اذا صح أن نأخذ الماضى
بهذه التسمية الحديثة . وكانت الحياة الاجتماعية فيه قد أصبحت
— من أغلب جوانبها — صورة للوجه السياسى المتقلب ؛ فشاعت
الاضطرابات ، وبرزت المادة بروزا قسى على كثير من الجوانب
الروحية السمحة ، كما تفشت نزعات التحرر والإباحية حتى ظهر
أن كل شئ قد تهيأ للعبث مع نزعة سخط ظهرت عند أدباء العصر
ومفكره .

هذا هو ابن الرومى متشائم متسخط ، وهذا ابن بسام
لا يعجبه شئ حتى ليهجو أباه ، ثم هذا ابن جرير الطبرى يتهم
فى اعتقاده كما يتهم أى رجل من العامة فيعتزل . ويستمر هذا
السخط حتى يؤخذ به واحد كالمتنبى فيقتل بسبب ، وآخر كأبى
العلاء فيشنع عليه !

فهل بدع أن يلهو ابن المعتز ؟

ومع هذا فقد أوتى من الاستعداد الطبيعى والفرىزى مع
تخطيط خارجى — من جانب القصر غالبا — ما دفعه الى الخوض
فى المجون خوفا . فهو يأس بادية ذى بدء ، ثم هو قوى البنية
حسن الصورة ، والبيئة الاجتماعية من ناحيتها تحفل بمجالس
المتعة ، فكيف بعد هذا يظل أسير المثالية التى ينادى بها الأخلاقيون ؟
ولقد كان العصر نفسه بعد ذلك أو قبل هذا يتوخى نقل أدق
التفصيلات عن كل انسان . فالى جانب قوة المعتضد وحسن خلقه
يظهر طيشه وتورطه بالجوارى ، وأخذ الناس بالبطش حتى ليأمر
بهدم بعض دور الفقراء ليقيم لنفسه على البنيان . والى جانب
علم البلاذرى وثعلب والمبرد ، بل الى جانب فضلهم وفضيلتهم
نرى ثمة ميلا الى الغناء والعبث والهيجاء والتخاضع واقتناء النساء .
ولم يكن ليغضب هؤلاء أن يذاع عنهم ذلك ، لأنهم
لا ينفكون يريدون الحياة بالوجه الذى يرضيهم أو بالصورة التى
تناسبهم .

فلماذا يطالب ابن المعتز وحده بالعشمة و يؤخذ عليه لهوه ؟
فى بعض مراحل حياته نجد منه التمسك بأهواب الخير ،

وقد يحدثنا حديث الحكماء ، وربما يعيب على غيره تقيصة من
 النقائص ، الا أنه في كل ذلك كان نمطا مألوفا . مألوفا بكل خيره .
 وشره . وليس هناك في رأى شئ أكثر تدليلا على ذلك من المقارنة
 بين شعره ونثره أو قل بين أغلب شعره وأغلب نثره ، فسنجد
 الانسان اللاهى في قطعة الشعر والانسان الوقور في قطعة النثر .
 واذن فالذين يطلبون من ابن المعتز ما قد يطلبه المتحذلق من
 القرد مخطئون ، وكأنهم يقولون ألم يكن أولى به ألا يأكل
 أو يضحك أو يستجيب لشتى ظروف عصره !

أنا لا أدافع عن ابن المعتز ، وانما أحاول أن أضعه في الاطار
 الذى تقلب فيه ، والا فما أحرانا بأن نعود الى التاريخ من جديد
 فنستقيته ونستشيره دون كلال ولا ملال .



أما ابن المعتز الشاعر الكاتب فهو حجر الزاوية في تاريخه ،
 أو هو الرجل الذى يظهر عملاقا يصعب كثيرا النيل منه . ولقد
 يمكن أن يختلف حول تقدير درجة عبقريته ، الا أن هذا
 الاختلاف لا يخرج قط عن دائرة الكبار . ويبدو لى أن القاعدة
 التى يجب أن ترسى دعائمها هى ألا نطلب من الفنان المتأخر أن
 يكون صورة طبق الأصل من الفنان المتقدم ، لأن هذا معناه
 ألا فن على الاطلاق . كذلك ليس من الضرورى أن يحمل هو
 الراية ثم يسير فى الطريق نفسه راكبا جملا أو حمارا أو بساط
 ريح ، فان فضل السبق اذ ذاك يكون حاسما فى تأخيره عن الأولين
 درجة ودرجة ودرجات . وعلى النقيض من ذلك فاننا لا نسأل

الفنان الكبير فى الحقيقة الا أن يأتى بجديد ، أو على الأقل
لا نسأله الا أن يحملنا الى عالم يقل فيه النظر الى الحدّ الذى
نستطيع أن نقول : ما أروع ما نرى ؟

والى جانب هذا يجب أن يكون العالم الذى يقدمه لنا واحد
كابن المعتز متماسكا ، يصدر عن فكرة أصيلة ورأى يمكن أن
نساق اليه وتتعاطف معه دون أن نمكث فيه . أجل ، ويكون متينا
الى الحدّ الذى يمكن فيه أن يقاوم الضربات التى تأتية من فوقه
وتحتة ، فيكفى فى هذه الحال أن نحس ونفكر ونسأل ونقيس
ونقارن . ومن ذا يستطيع أن يزعم أن عالم المعرى فى « الغفران »
لا يستهويننا وان كنا لا نريد أن نظل فيه طويلا ؟ بل من ذا يظن
أن شعوبيات بشار بن برد لا تأسرنا على الرغم من خوفنا منها ؟
ان غفران المعرى وشعوبيات بشار تكوين ممتاز يجبرنا على
تقديره والالتفات له ، وهذا ما نريده من آثار أىّ فنان !
وبالنسبة لابن المعتز الشاعر نرى فى شعره عالما نجبه كثيرا ،
وان يكن من المسلم به ألا يرضى أغلب الأخلاقيين .
لماذا ؟

لأنه رصد فيه مجونه كله بلا خزى ولا شعور بالعار ، وتحدث
فيه عن المرأة حديثا ربما يكون أقرب الى حديث الفساق . وهو
مع ذلك جميل جدا عذب جدا ، ولا يخلو أحيانا من صفاء غريب ،
ويبدو كل جميل فيه ممتزجا بنفسه المزهفة وبالطبيعة التى تحس
احساسه وبالأمل الذى يراوجه بين أن يعيش خليفة وعاشقا مدتما .
واننا لنجد القارىء يعلّق أهمية على بديعه وصوره فيتذكر

أبا تمام ويستعرض آراء ابن المعتز فيه وروايته لأشعاره فيسأل :
أتراه كان يقلده ؟

فإن ظفر بجوهر نفسه — وهو ظافر — فلن نكون بحاجة
الى أكثر من موازنة عاجلة . وهنا يطل العالم الذى يضع كتاب
البديع كما وضع فصول التماثيل وكما كتب رسالته النقدية عن
شعر أبى تمام .

المهم أن ابن المعتز هنا تكوين خاص .. هو شاعر وهو عالم،
وهو مقدم لنا شيئاً له مذاقه الخاص ولونه المتجانس الذى يجعلنا
نرى بوضوح وحدة الصنيع الأدبى الكبير . وهذا فى الواقع نتيجة
وحدة الشخصية التى تنعكس باستمرار من خلال شعرها وفكرها،
فاذا فرض عليها شيء — تحت أى ظرف من الظروف — لم يكن
ثمة ما يغير من الخطوط العريضة للجوهر الأصيل .

ان ابن المعتز الذى جاء بعد أن ثبت نهائياً هيكल الشعر
العربى كان أكثر من محسن ، غير أنه على ما يقول الدكتور شوقى
ضيف كان أميراً مترفاً ، ولم يتح له ترفهه أن يتعمق الثقافة
والفلسفة كما تعمقها أبو تمام « وهو كذلك لم يتعمق وسائل
التصنيع الحديثة »^(١) أى الجناس والطباق وغيرهما مما يدخل
فى مصطلح البديع الذى وضعه هو .

ويقول الدكتور محمد نجيب البهيتى انه لا يسير فى الحقيقة
الا على النمط التقليدى مع « مرونة فى اختيار موضوع الافتتاحية،

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٢٦٤ ، ٢٦٥ (ط . المعارف
سنة ١٩٦٠)

ولكنه لا يلبث أن يتعدى الاستهلال الى الحديث عن السماء
ونجومها والسحب ورعودها أو البساتين والرياح وأزهارها
وشذاها « (١) وبه من هنا تضاف الخطوط الذهبية التي تزين
هيكل الشعر العربي العظيم .

وعلى الرغم من أن الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي يعده أحد
الشعراء الخالدين حتى شغل الناس والعلماء والأدباء بانتاجه (٢)
فانه يكتفى بتقسيم الصولى لشعره ليصف بعد ذلك ضربى الجزالة
والرقة عنده معترفا بأن أسلوبه يشيع فيه نضرة النعيم وترف الملك،
ليخلص من ذلك الى بديعه .

وأما الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى فيدرس تشبيهه
ويقرر أنه كان يؤثر الصفة و « يتحمس للمحدثين ، ولكنه فى
الوقت نفسه يكره أن يسرف المرء فى ذلك اسراف أبى تمام » (٣) .
وكل أولئك مع سداده لا يبين عظمة هذا الشاعر الحقيقية ،
بل يقف عندما قرره القدماء دون اضافات سوى الشرح والتفصيل .
وربما كان يعوزنا هنا قول جامع فى الشعر كالذى قاله ابن رشيق
فى النقد (٤) ، ولكن الشئ الذى ليس فيه شك أن شعره كان له

(١) تاريخ الشعر العربى ٥١٢

(٢) ابن المعتز وتراثه (الطبعة الاولى سنة ١٩٤٩) .

(٣) عبد الله بن المعتز العباسى ١٣٧ (ط . نهضة مصر بالفجالة)
والى هذا ذهب عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة ٢٦٢
(الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٩) وقال انه على أستاذيته ليس
من المطبوعين .

(٤) العمدة ١ : ١٨١

طابعه الخاص ، واستغل فيه الزخرف الحسى استغلال أبى تمام
للزخرف المعنوى وكأنه كان يرى — استنادا الى ما أورده فى
كتاب البديع — أن المذهب الكلامى شىء آخر غير الشعر .

ان الشعر عنده صورة قوامها التشبيه ^(١) وعناصر التشبيه
غالبا مادية دقيقة ، فاذا لم يكن فهو خطابى تعليمى يظهر بصفة
خاصة فى أرجوزتيه الكبيرتين المعتضدية وذم الصبوح . ومع هذا
التفاوت الكبير فى التعبير — أى مع اختلافه بين التصوير
والتقرير — فاننا نحس بوحدة النسيج اللغوى وسلامته وأصالته،
ويمكن أن نميز بسهولة أبياته سواء هذه التى يتكلف فيها البديع
وهذه التى يتكلف فيها التعليم من أبيات شاعر كأبى تمام الطائى
أو آخر كأبان اللاحقى .

وحسبه هذا !

بل ربما اعتبرناه المسئول الأول عن تحول الشعر من بعده
الى الزخرفة الحسية ، فقد كان نموذجا طيبا ويبدو سهلا لدى
الجميع .

وقضية السهولة التى تطبع شعره — حتى فيما كان يقصد به
الى مبدوحيه — ومنها بأنيته فى المعتضد وداليته فى المكتفى ^(٢) —

(١) فى معاهد التنصيص ١ : ١٤٦ « انه قال اذا قلت « كان »
ولم آت بعدها بالتشبيه ففض الله فإى ! وكان ابن عبد ربه يقول
فى العمدة (١ : ١٩٤) انه ينقاد بطبعه الى التشبيه .

(٢) قال الحصرى عنها فى زهر الآداب (٣ : ٥١) كانت
لسهولتها تجرى مع النفس ، على أننا يجب الا نقرنه بشعراء
عصر الانحراف للغوى ابتداء من بشار الى الخليل لأن هؤلاء كانوا =

هى التى تفرقه عن أبى تمام نهائيا وتعطى القول الفصل فى حملته على تعقيده واصطناعه الرمز الغريب وما كان يستبشع مثله من اللجاج ورؤبة^(١) .

انه يكره التصميمات التقليدية ، ولكنه يختار منها ما يناسبه ويحسن تمثيله . وفكرته الأساسية تتخذ شكل تبين صادق للتراث ثم هضمه وروايته والانتفاع به على أن يحتفظ الخلف بشخصيته أمام السلف .

يجب أن يكون الانسان شاعرا عالما ، ولكن من الخير ألا يفسد المرء الشعر بعلمه وكان يقول أحسن الشعر ما لا يحجبه عن القلب شئ^(٢) ومعنى هذا أن الاحساس هو المعول فى الشعر ومن ثم لا تعقيد بالضرورة ، لأنه ليس أقدر على مخاطبة والافهام من الاحساس .

وبعد ، فلم يقاس بأبى تمام ويقال عنه انه دونه ؟

* * *

= يتسمحن فى شعرهم بالخطأ ويعتمدون تمزيقه بدعوى تصوير العصر وحالتهم ، فى حين ظل هو على مستوى رفيع وسليم من الأداء الفنى .

(١) ضرب لذلك مثلاً فى رسالته عن أبى تمام قوله :
تقرو بأسفله ربولا غضة وتقبل أعلاه كناسا فولفا
وفى المعتضدية هجا أبا الضقر اسماعيل بن بلبل بتقره
واستعماله الغريب فقال :

يستعمل الغريب فى خطابه وغمضات النحو فى كتابه
ويزجر الناس اذا تكلموا مفخما مجهورا مقلصا

(٢) كتاب البديع ٣٨

وأما ابن المعتز الكاتب فلو أنه لم يضع سوى «كتاب البديع» لكفاه حتى يبذل أقرانه ، ولكنه ضرب في كل مجال بسهم . فحفظ وروى حتى ليكثر في مجلسه من «حدثنا» و «أخبرنا» كما يثبت الصولي على ما مر بنا ، وألّف على النحو الذي عرف به التأليف في أيامه ، وابتكر شيئا لم يسبق إليه وأصبح شاغل الدارسين فيما بعد .

ولقد رأينا أنه سمع من كثيرين منهم ابن سعيد وأبى سعيد والمبرد وعلب والبلاذرى ، وآثر أهل العلم وفضلهم ، واحتذاهم حتى قيل ما كان ثم عباسى أجمع منه ولا أقرب لسانا من قلب ^(١) . وليس من شك في أن هذا كله يخطط له صورة العالم الثقة الحافظ الذى لا يكاد يخطئه شيء اذا امتحن أو اذا سئل ، فضلا عن ذلك كان يعبر عن آرائه تعبير الأديب صاحب الأسلوب الموجز المعجز فيعجب به معاصروه ويراسلونه فيستجيب اليهم صادرا عن صياغة رائعة وفكر رشيد حتى ليتمكن أن نستخرج منه فلسفة متكاملة ضمن معظمها فصوله القصار .

هو هاشمى مترفع بلا كبر ولا غرور ، ولكنه يخشى التقرب من الحاكم حتى وان أولاه البشر وكان يقول « اذا زادك السلطان تأنيا فزده اجلالا ، ومن صعب السلطان صبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره » فيربط بين ظروفه وغرة الدهر ومصائبه وتفرق الناس بين حاسد ونام وكاذب وحريص وشقى

وماجن ومغترب وطامع ومؤمل في دنيا من عجب أنها دائما تطرح
التراب على وجه من تكرمه .

وكان يقول « العقل غريزة تربيها التجارب » ^(١) وعرف من
تجاربه أن الخير في التقرب الى الناس عاميهم وخاصيهم ، على
ألا يكون بينهم كذب قط . وكان في هذا دائم التنبيه الى أن من
اضطر الى مصاحبة الكذاب فلا ينبغي أن يصدقه ولا ينبغي أن
يعلمه أنه يكذبه « فينتقل عن وده ولا ينتقل عن طبعه » ^(٢) .

أما آراؤه العقيدية فهي بسيطة وقد صدر بها أقواله وأحاديثه .
انه عربى سنى يكره الشعوبية وذوى المذاهب المخربة ويقول
عنهم « كلاب قد عدتهم أنعمنا وأشادت بذكرهم خدمتنا ، سعوا
بالباطل علينا وجحدوا احساننا وهجوا نبينا صلى الله عليه وسلم ،
حتى اذا كظمهم العذاب وأسكتهم الجواب تحسنوا بالترفض
ومدحوا أهلنا وأخص الناس بنا » ^(٣) .

ويقول عن البارئ تعالى « ان الله جل ثناؤه لا يمثل بنظير
ولا يغلب بظهير ، جل عن موقع تحصيل أدوات البشر ، ولطف عن
الحاظ خطرات الفكر ، لا يحمد الا بتوفيق من يقتضى حمدا ،
فمتى تحصى نعمائمه وتكافأ آلاؤه » ^(٤) .

وفى القرآن كتابه يقول « وفضل القرآن على سائر الكلام ،

(١) زهر الآداب ٤ : ١٢٩

(٢) زهر الآداب ٢ : ٢٦٦

(٣) رسائل ابن المعتز ٥٧

(٤) زهر الآداب ١ : ١٣٧

معروف غير مجهول وظاهر غير خفى ، يشهد بذلك عجز المتعاطين
ووهن المتكلفين وتحيّر الكذابين . وهو المبلغ الذى لا يملّ ،
والجديد الذى لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع .
والمأخى لظلم الضلال ، ولسان الصدق . النافى للكذب ، ونذير
قدمته الرحمة قبل الهلاك ، وناعى الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة
المخلدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة » (١) .

هذه الأقوال رائعة حقا ، وأعتقد أنها فى جملتها تكشف عن
جوهر ثمين ، كما أنها فى الوقت نفسه تحدد اتجاهها رصينا لأى
إنسان عاقل . وأما فيما يتعلق بالأفكار السياسية ، أو أما فيما
يتعلق بالجدل الذى نشب يومذاك بين الكتاب والوزراء ورجال
البلاط فانه لم يشغله قط . وإذا شئنا الدقة لم يحاول أن يتعرض
له الا من حيث يرضى الامام على ما فعل فى المعتضدية ، وقد اجتراً
فمس مسا عاجلا ذلك الظلم الذى واجه به رجال الادارة عامة
الشعب .

ولكن اذا لم تكن له آراء محددة أو حتى اذا لم يكن له
غير القليل جدا من هذه الآراء فان من السخف أن يفهم أنه لم يعيش
الا للذته ، والأولى أن يقال انه كان أكثر اهتماما بعلمياته
وتصنيفاته ، فضلا عن أن ظروفه الخاصة — وظروف العصر
أيضا — لم تكن تسمح له بأكثر مما فعل .

ولعل أهم ما قدمه من حيث هو كاتب كبير يمكن تقسيمه الى
ثلاثة أقسام :

فى القسم الأول توضع كتبه عن الزهر والرياض والجوارح
والصيد والمحبة ، ولئن كان أغلبها ضاع فما يرد منها فى كتب
غيره يدل على أنها من الأدب الوصفى الرفيع ، ويبدو ابن المعتز
فيها مصورًا للجانب اللاهى من حياته .

وفى القسم الثانى توضع كتبه عن الأدب ونقده وتاريخه
وأشهرها « فصول التماثيل » و « الجامع فى الغناء » و « طبقات
الشعراء » و « البديع » و « السرقات » ويضاف إليها رسالته
فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه ، والمؤلف فيها رجل حكيم
مترن ، يصطنع المنهج التاريخى مع ميل الى اصدار الأحكام
المتأنية .

وفى القسم الثالث توضع كتبه ورسائله التى كان يقصد فيها
الى التجويد وأشهرها « الفصول القصار » و « كتاب الآداب »
و « رسالة فى وصف سرّ من رأى » وابن المعتز يبدو فيها على
ما سقنا من أقواله وقورا هادئا ذا خبرة بعيدة المدى ، مما أغرى
الكثيرين منهم الصولى والحصرى على تسجيل بعض هذه الأقوال .
ولما كان القسم الأول من مؤلفاته بعيدا عن متناول الأيدى
فانه يمكن الاكتفاء بالقسمين الثانى والثالث — وهما من غير
شك الكفة الراجحة — للتعرف على الدور الكبير الذى لعبه
ابن المعتز فى تاريخ البيان العربى كله . والحق أن عصره عرف
أكبر كتاب العربية بعد وفاة الجاحظ سنة ٢٥٥ ووفاة ابن قتيبة

سنة ٢٧٦ فثم المبرد وشعلب والبلاذرى وعبد الله بن طاهر وأحمد ابن أبى طاهر ، وكذلك آل الجراح وآل الفرات وابن ثوابه والصولى . ومنهم من انقطع للقديم ومنهم من تجرد للقديم والجديد ، ثم فيهم من شغل المناصب الكبيرة وفيهم من قنع بالكفاف . واختلفت مؤلفاتهم بين كتب الطبقات ، وكتب الشعر والشعراء وكتب الأخبار ، وكتب النوادر والاختيار . والقلة من ألف فى موضوع واحد متكامل ، بل لعل ابن المعتز كان واحدهم فى ذلك حيث وضع « كتاب البديع » مقدما به أخطر أثر فى تاريخ النقد العربى على الإطلاق ، ولعله أيضا به ثم برسالته عن أبى تمام قد شحذ الهمم الى مناقشة آثار المجددين من الأدباء فى ضوء منهج له قواعده الواضحة الثابتة .

واذا كان كتاب البديع قد عدد لأول مرة صنوف الزخرفة والحلية ومحسنات الشعر كما عرفها هو وعرفها أدباء عصره ثم صار أهم مصدر من مصادر الدراسات البيانية بعد موته ، فإن رسالته تلك أول عمل كبير فى نقد الطائى . ويبدو أنها كانت — ان لم يكن من المؤكد — السبب الأساسى فى أن يضع الصولى « أخبار أبى تمام » فى الدفاع عنه . وقد روى المربزبانى فى موشحه قطعة منها اعتمدها فى أحد فصول هذا الكتاب ، واستند اليها الآمدى فى نقد شعر الرجل كما استند اليها الجرجانى فى وساطتها ، ويمكن أن تكون بعدئ أساس جميع الموازنات التى عقدت بين أبى تمام والبحترى .

ان ابن المعتز الذى لفته أبو تمام الى ضروب الوشى يعلن فى صراحة أنه عندما كتب عنه — ولا نقول كتب به — لم يكن أحد قد سبقه اليه (١) . ومن المؤكد أنه أخذ بعض مصطلحاته من كتاب الخطابة لأرسطو ، وكان قد ترجمه فى عصره على ما تواتر عن حنين بن اسحاق (١) . بل لا نستبعد أن يكون قد استعان ببعض شواهد بعد تبديلها وتغيير الأعلام فيها على الرغم من أنه يقول « ولعل من قصر عن سبق الى تأليفه هذا الكتاب ستحدثه نفسه وتمنيه مشاركتنا فى فضيلته » ، فيسمى فنا من فنون البديع بغير ما سميناه « (٢) .

والحقيقة أنه لا يعنينا الا أن هذا الكتاب حدّد لأول مرة خصائص مذهب البديع ، فاعتمده كلّ النقاد من بعده وصار — مع رسالته المذكورة — من أكبر الأسباب التى مكنت للخصومة بين أنصار القديم وأنصار المحدث .

فاذا انتقلنا الى ثانى كتاب فى الأهمية عنده ، وجدنا ضربا آخر من التأليف شاركه فيه غيره ممن عكف على البحث الأدبى كمحمد بن داود صاحب « الورقة » وأحمد بن أبى طاهر صاحب « كتاب فى الشعراء » وجعفر بن محمد بن حمدان صاحب « الباهر فى أشعار المحدثين » و « الشعر والشعراء الكبير » . هذا الضرب يجمع بين الحقائق التاريخية والطرف الأدبية ،

(١) يقرر الدكتور محمد مندور فى كتابه النقد المنهجى عند العرب ٤٤ أنه اطلع على هذه الترجمة بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢) البديع ٤٤

ويمتزج فيه الرأي الشخصى بالرأى العام . وبين كل أولئك أخبار طويلة ، أو قصص ربما يقتصر عليها الموضوع بأكمله .

واسم الكتاب « طبقات الشعراء فى مدح الخلفاء والوزراء » اختصر من بعده مع أن أهم ميزة فيه القصد والاعتدال . ولقد تقدم أنه بدىء ببشار وأنهى بالناشئ الذى عاصر المؤلف ، وجمع فيه مائة وعشرين شاعرا ونيفا ترجم لهم أو حكى عنهم وساق نماذج تمثل خير ما لهم وأخرى مما أغفله لبعضهم الرواة ورآه هو جديرا بالتنويه . هذا مع اهتمام ملحوظ بكثير من المغمورين ، فيكون هذا حافظا لابن داود على قصر « الورقة » عليهم ، ويحذو الحذو نفسه كثيرون .

وعلى الرغم من أن الكتاب فى الطبقات فانه لم يفتقد روح المؤلف النقدية ، بل ربما وجدنا فيه من آرائه الصائبة ما لا نجد نظيره فى كل ما أثر عنه من نقد وان يكن يعيب أحكامه أحيانا عدم الاحتراز فى اثبات الروايات المتعارضة والغريبة .

والكتاب بعد هذا سجل للحياة الأدبية بعد أن خلفت وراءها عصر العربية الخالصة بموت فحول بنى أمية أوائل القرن الثانى الهجرى ، وفيه نرى الاتجاهات العجيبة والمحاولات التى كان يقصد من ورائها تحطيم المأثور واقامة الجديد . كما نرى الموازنات العاقلة والشروح الدقيقة والميل الى أخذ المسائل أخذنا وجدانيا بعيدا عن الجدل الذهنى الذى غلب على النقد فيما بعد .

ولا نريد أن نمضى وراء الطبقات أكثر من هذا ، فلا يزال أماننا شق من الرجل رأينا بعض معاملة فيما سقنا عنه من حكمة .

ونعنى به ثره الذى يجوده وهو حريص على أن يخليه من التاريخ
ومن النقد الأدبى وان يكن ينضح بآثار علمه وثقافته .
ولنقرأ له هذه الرسالة التى بعث بها الى بعض اخوانه يصف
فيها سرّ من رأى ويذكر خرابها مادحا فيها الامام وذاما بغداد
وأهلها^(١) » كتبت اليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقعد
جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق وحل الرجاء فيها يقصر ،
فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر ، وكلت الى الهجر نواحيها
واستحث باقيها الى فانيها ، وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب
فيها حقّ جوار ، فالظاعن منها ممحو الأثر والمقيم بها على طرف
سفر ، نهاره ارجاف وسروره أحلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى
فيرتع .

فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا ، بعد
ما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك ، تفيض بالجنود
أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم
قرون الوعول ودروعهم زبد السيول . على خيل تأكل الأرض
بحوافرها وتمد بالنقع سائرها ، قد نشرت في وجوها غرراً كأنها
صحائف البرق وأمسكها تحجيل^(٢) كأسورة اللجين وثوطت
عذرا كالشنوف^(٣) ، في جيش يتلقف الأعداء أوائله ولم ينهض

(١) معجم البلدان ١ : ١٨

(٢) التحجيل : بياض في رجل الفرس .

(٣) نوطت : عقلت ، عذرا : جمع عذار وهو ما تدلى من اللجام

على خد الفرس ، الشنوف : جمع شنف وهو ما علق في الأذن
من الحلى .

أواخره ، وقد صُب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر .
 يصرفه (١) ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا ، لا تخلف
 مخيلته ولا تنقض مريرته (٢) ولا يخطيء بسهم الرأي غرض
 الصواب ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب ، قابضا بيد السياسة
 على قطار ملك لا ينتشر حبله ولا تتشظى عصاه (٣) ولا تطفئ
 جمرته . في سنّ شباب لم يجن مأثما وشيب لم يراهق هرما (٤) ،
 قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته ، راجما بالعواقب
 الظنون لا يطيش عن قلب قاضل الحرم بعد العزم ، ساعيا على
 الحق يعمل به ، عارفا بالله يقصد اليه مقرا للحلم ويبدله ، قادرا
 على العقاب ويعدل فيه .

اذ الناس في دهر غافل قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشي
 خشنة المرام ، وتطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الجبور ،
 فالأطراف على مسرّة والنظر الى مبرّة ، قبل أن تخب مطايا
 الغير (٥) وتسفر وجوه الخدر (٦) ، وما زال الدهر مليا بالنوائب
 طارقا بالعجائب ، يؤمن يومه ويغدر غده .

(١) أى يصرف الجيش ويقوده وبوجهه .

(٢) تنقض مريرته : يحل ابرام حبله .

(٣) تتشظى عصاه : تتشقق .

(٤) يراهق هرما : يدانيه .

(٥) تخب مطايا الغير : تسرع مطايا الأحداث ، أى تأتى
 مصائب الدهر .

(٦) كنّا في الأصل والمعنى بتعاقب فتحين الظلمة ، فاذا كانت
 بفتح فكسر قلنا الخدر من الأماكن أى الغامض المظلم .

على أنها وان جفت معشوقة السكنى وحببية المثنوى كوكبها
 يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها
 مسك أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر ، وطعامها هنىء وشرابها
 مریء ، وتاجرها مالك وفقيرها فاتك . لا كبغدادكم الوسخة
 السماء الومدة الهواء ^(١) ، جوها نار وأرضها خبار ^(٢) ، وماؤها
 حميم وترابها سرجين ^(٣) ، وحيطانها نزور ^(٤) وتشرينها تموز ،
 فكم من شمسها من محترق وفى ظلها من غرق ، ضيقة الديار
 قاسية الجوار ، ساطعة الدخان قليلة الضيفان . أهلها ذئاب وكلامهم
 سباب ، وسائلهم محروم ومالهم مكتوم لا يجوز انفاقه ولا يحل
 خناقه . حشوشهم مسائل ^(٥) وطرقهم مزابل ، وحيطاهم أخصاص
 ويوتهم أبقاص .

ولكل مكروه أجل وللبقاع دول ، والدهر يسير بالمقيم ويمزج
 البؤس بالنعيم ، وبعد اللجاجة انتهاء والهم إلى فرجة ، ولكل
 سائلة قرار وبالله أستعين ، وهو محمود على كل حال » .
 ان هذا الاثر الذى يشبه أن يكون كاملا يعطى الملامح
 الأخيرة لابن المعتز ، أو يقدم على نطاق واسع صورة الابداع فى

(١) الومد : الحر الشديد مع سكون الريح .

(٢) خبار : صلبة .

(٣) سرجين : زبل (فارسية) .

(٤) نزور : تكثر من نر الماء .

(٥) الحشوش المسائل : البساتين التى تسيل منها الماء ،
 والحشوش هى المخارج أيضا .

ثره الفنى ، فانه مما ليس فيه شك أن حكمه وأقواله فى « الفصول القصار » ومعظمها ضائع لا تكاد تضيف الى ما قدمنا مثل ما تضيفه هى .

والأسلوب فى صياغته تلك يرتفع الى مستوى اهتماماته بالبديع ، ويختلف من ناحية أخرى عن ثره المرسل الذى نراه فى الطبقات . ومن الجلى أنه يقترب من الجاحظ شيئا ولا سيما فيما يجنح اليه من التوازن ما لم يكن ثمة سبيل الى السجع . ولقد اتسع استعمال التوازن فيما بعد وأطلق عليه الازدواج ، وجعله القلقشندى فى درجتين لا داعى لتفصيلهما هنا (١) ، ولكن ابن الأثير كان يقرر أن ما يحدثه عادة من الأثر فى النفس سببه الاعتدال ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء (٢) .

ولقد كان ابن المعتز من الداعين الى هذا الاعتدال فى الكتابة ، ومن الحاملين على كل متقعر . واذا كنا نلمح فى الرسالة بعدد سجعا وتصوريرا قوامه التشبيهات والاستعارات ، فلأن الحاجة كانت تتطلبه . ولهذا تبدو صنعته دائما مستوية مقبولة .

وأكبر الظن أنه كان فى ذلك اماما لكتاب الدواوين فى عصره — ويجب ألا ننسى أنه راسل بعضهم وأجابوه — فاحتذوه ثم استطاعوا من بعده أن يزيدوا من المحسنات ما أبعد الكتابة عن حد الاعتدال المنشود .

(١) راجع صبح الأعشى ٢ : ٢٧٣ (ط . الأميرية سنة ١٩١٣)

(٢) المثل السائر ١٦٩ (ط . بولاق سنة ١٢٨٢)

وأخيرا نلاحظ أن السجع أصبح بعد موته العنصر الأول في
وشى كتاب العصر . حقا لا نراه مطردا في رسالة ابن الفرات الى
ابن بسطام — وقد مرت بنا كاملة — ولكننا نراه عند غيره
كأبي العيناء وابن ثوابه وأخيه ^(١) وغيرهم . وفي عصر المقتدر
سنجد السجع غالبا على دواوين الحكومة ليكون مظهرا من مظاهر
التأنق العظيم .

(١) معجم الأدباء ٤ : ١٤٤ ، ١٤٧

مصادر السيرة

فيما عدا المؤلفات التي ذكرتها في المقدمة — وان تكن مما أعان وأفاد — فأننى أسوق أهم ما اعتمدته من مصادر ، ذاكرا بين يديها طبعاتها حتى يسهل الرجوع اليها :

- | | |
|------------------|---|
| (١) ابن الأبار | : أعتاب الكتاب
ط . دمشق سنة ١٩٦١ |
| (٢) ابن الأثير | : الكامل فى التاريخ
ط . المنيرية سنة ١٣٥٧ |
| (٣) ابن الأنبارى | : نزهة الألبا فى طبقات الأدبا
ط . مصر سنة ١٩٢٤ |
| (٤) ابن الجوزى | : المنتظم
ط . حيدر أباد الدكن |
| (٥) الحصرى | : زهر الآداب وثمر الألباب
ط . التجارية سنة ١٩٢٥ |
| (٦) ابن خلكان | : وفيات الأعيان
ط . بولاق |
| (٧) ابن رشيق | : العمدة فى صناعة الشعر ونقده
ط . هندية سنة ١٩٢٥ |

- (٨) الصابى : تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء
ط . بيروت سنة ١٩٠٤
- (٩) الصولى : الأوراق (قسم أشعار أولاد الخلفاء)
ط . الصاوى سنة ١٩٣٦
أخبار أبى تمام
ط . لجنة التأليف سنة ١٩٣٧
- (١٠) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
ط . الحسينية ومعه الصلة لعريب
- (١١) عبدالقاهر الجرجانى : أسرار البلاغة
ط . الثالثة سنة ١٩٣٩
- (١٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد (الجزء الخامس)
ط . لجنة التأليف سنة ١٩٤٦
- (١٣) أبو الفدا اسماعيل : تاريخه
ط . القسطنطينية سنة ١٢٨٦
- (١٤) أبو الفرج الاصبهاني : الأغاني (الجزء العاشر)
ط . دار الكتب سنة ١٩٣٨
- (١٥) المرزبانى : الموشح
ط . السلفية سنة ١٣٤٣
معجم الشعراء
ط . القدس سنة ١٣٥٤
- (١٦) المسعودى : مروج الذهب
ط . باريس سنة ١٨٦١
- (١٧) مسكويه : تجارب الأمم (الجزء الأول)
ط . مصر سنة ١٩١٤

(١٨) ابن المعتز

: البديع

ط . لندن سنة ١٩٣٥

البديع

ط . القاهرة سنة ١٩٤٥

ديوانه

ط . استنبول سنة ١٩٤٥

ديوانه

ط . بيروت سنة ١٣٣٢

رسائله (جمعها محمد عبد المنعم

خفاجى)

ط . الحلبي سنة ١٩٤٦

طبقات الشعراء

ط . المعارف سنة ١٩٥٦

فصول التماثيل

ط . القاهرة سنة ١٩٢٥

: نهاية الأرب (الجزء الخامس)

(١٩) النويرى

ط . دار الكتب سنة ١٩٢٥

: معجم الأدباء (الارشاد)

(٢٠) ياقوت الحموى

ط . مصر سنة ١٩٠٦

معجم البلدان (الجزء الأول)

ط . السعادة سنة ١٩٠٦

فهرست

الصفحة

٣

القدمة

الباب الأول الأمير الرجيم

١٥	الخطوط الأولى :	الفصل الأول
٢١	الانسان والفنان :	الفصل الثاني
٢٦	بين أعمامه :	الفصل الثالث
٣٢	البحث عن طريق :	الفصل الرابع
٤١	ترفع الأمراء :	الفصل الخامس
٤٦	الأمير الرجيم :	الفصل السادس
٥١	ولكنه أحب :	الفصل السابع
٥٦	المهجور :	الفصل الثامن
٦٤	حبرة :	الفصل التاسع
٧١	أيام الخزي الأخيرة :	الفصل العاشر

الباب الثاني رجل العلم والسياسة

٧٩	طبقات الشعراء :	الفصل الأول
٨٩	الجامع في الغناء :	الفصل الثاني
٩٥	مزاحم جديد :	الفصل الثالث
١٠١	صريع الكأس :	الفصل الرابع

١٠٨	: حديث الأدب	الفصل الخامس
١٢٠	: غلبة الامام	الفصل السادس
١٢٦	: نفى وعفو	الفصل السابع
١٣٢	: الطالبون	الفصل الثامن
١٣٧	: الأرجوزة التاريخية	الفصل التاسع
١٤٣	: مجلس من المجالس	الفصل العاشر
١٥٠	: المكتفى	الفصل الحادى عشر
١٥٤	: أستاذ وتلاميذ	الفصل الثانى عشر
١٦٦	: حديث ذو شجون	الفصل الثالث عشر
١٧٢	: رحلة خائبة	الفصل الرابع عشر
١٧٩	: مع الزمن	الفصل الخامس عشر

الباب الثالث

المؤامرة

١٨٧	: تداول	الفصل الأول
١٩١	: بيعة وضيفة	الفصل الثانى
١٩٧	: التدبير الجديد	الفصل الثالث
٢٠٤	: وراء المصير	الفصل الرابع
٢١١	: محاولة اقناع	الفصل الخامس
٢١٧	: برغم الخيانة	الفصل السادس
٢٢٣	: الهزيمة	الفصل السابع
٢٣١	: فى طريق النهاية	الفصل الثامن
٢٣٨	: النهاية	الفصل التاسع
٢٤٥	: ذكرى	الفصل العاشر